LAST ZAMBRA

نشأت يونس

السمرة الأخيرة

فريق متميزون
E-BOOK

KOTOPIA PUBLISHING HOUSE

رواية

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:
هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.
مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

السمرة الأخيرة

رواية

الكاتب: نشأت يونس

عن الرواية..

حكاية موريسكية لأسوء أجيال البشرية حظًّا، وأقلهم ذكرا.
الجيل المدان بلا جريمة، المعاقب بلا ذنب، الأسير بلا حرب، المطرود بلا أرض، المضطهد تحت وطأة أقوى الممالك في ذلك الزمن.
هي حكاية عن الحب والحقد، الطموح والخنوع، عن الحسد والغيرة والثورة، عن موات النفس وضياع الأفئدة والبحث عن الأمل في قيعان اليأس.
عن قوم أبوا إلا أن يرقصوا نهايتهم على أنغام رقصة السمرة وأنشودة أخيرة:

لا لا تقولي أنها تلك النهاية فالنهايات كثيرة
ونهايتي أسلمتها طوعًا لكِ في ظل نظرتك الكسيرة
في رقصة تحت الصليب تدندني كمدا كمئذنة أسيرة
فتمهلي ولترقصي لي سمرة في مرة أخرى أخيرة
في شاطئ الترحيل حيث يجرفون الذكريات المستجيرة
واستسلمي فلقد تعبت من التوجس هاربًا نبضًا وزفرًا
وأموت بعدا لا يهم سأموت حرًّا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهداء..

إلى وطنٍ بعيدٍ تاه منّي
غريبٌ للديار بكى يغنّي
إذا نادى الردى بالرغم عنّي
مُضَاعًا في البلادِ فلا تضنّي
وضميني شهيدكِ بالتبنّي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول: الشيخ (بينيديكتو)

سأموت يومًا إذ أراكِ ترقصين السمْرة
في الجعفرية والخيرالدا أو تلال الحمرا
وسيلقي ثوبك ذلك الناري حرقًا أمره...
وتطقطقين بإصبعيكِ شهادتي قبل الحياة الأخرى
ويفوح ذاك الفل من أطراف ثوبك معجزًا أو سِحْرا
سأعيش سمرتكِ بأنفاسي فلا تتوقفي بالمرَّة
وأموت بُعدًا لا يُهِم... سأموت حُرّا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١) الرقصة الافتتاحية:
ليلة (فرَّاج)

(أوليبا): إحدى قرى جنوب بلنسية شتاء ١٥٦٠م.

«ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون».

تراجع الشيخ (عبد الصمد)- واسمه التنصيري (بينيديكتو)- مبهوتًا في جلسته وهو يتأمل (عُمير- أوريليانو) بمزيج من الدهشة والإعجاب والذعر في نفس الوقت وقد سأله (عُمَير) في التوِّ عن معنى الآية القرآنية، فتردد للحظات يفكر كيف سيجيب على حفيده صاحب الاثني عشر ربيعًا. لم يكن تردده لعجز عن تفسير الآية، ولكنه كان مشدوهًا من تطور فكر الطفل الصغير بهذا المعدل المتسارع؛ حيث يسأله كل يوم عن ماضي أجداده القريب منذ بضعة عقود وتَسيُّدِهم الممالك كلها مئات السنوات، تلك الفترة التي لحق فيها الشيخ (عبد الصمد) في طفولته وشبابه آخر سنوات قبل سقوط غرناطة؛ آخر المدن الإسلامية في الأندلس والتي لم يعرف عنها (عُمَير) شيئًا إلا كأساطير وحكايات يرددها غلمان الموريسكيين سرًّا في ألعابهم الخفية. كان يعرف أن (عُمَير) له صحبة من أبناء الموريسكيين المراهقين أصحاب العزم والروح المشبَّبة الذين يرددون يوميًّا حكايات الأندلس الأسطورية التي لقَّنها لهم آباؤهم وأجدادهم. لا مفر من ذلك، ولكن الفتية في هذه السن الصغيرة متهورون ومندفعون غير مكتملي العقل منفجرو العاطفة وهذا شيء خطير في هذا الزمان.

لم يكن (عُمَير) وحده في الغرفة فقط؛ حيث كان هذا الوقت هو الميعاد اليومي للدرس القرآني السِّري لخمسة أطفال من أبناء الموريسكيين في نفس العمر تقريبًا. كان يحضر الدرس (عُمَير) وأخته (صبح-بيليتا) حفيدا الشيخ (عبد الصمد) يَتِيما الأبوين. كذلك (طاهر- كريستوفال) ابن الجيران و(حمدة- إيلينا) و(الغريب- أنخيليتو) اليتيمان اللذان يتبناهما الشيخ (عبد الصمد) ويرعاهما مع أحفاده في منزله الصغير منذ نعومة أظافرهما. كان الشيخ (عبد الصمد) يدرِّس القرآن سرًّا لأبناء الموريسكيين في مجموعات صغيرة حتى لا ينكشف أمرُه ويُزَجُّ به في أقبية دواوين التفتيش مرة أخرى بالرغم من حماية الدون (دييجو رودريجيز) له؛ وهو صاحب أكبر إقطاعية في غرب (أوليبا)؛ حيث يعيشون.

كان منزله مع تواضعه المظهري يشبه القلعة من الداخل على صِغر مساحته، منزويًا في إحدى الحارات مما ساعده على أن يقوم بتدريس الدين الإسلامي لأبناء الموريسكيين بعيدًا عن الأعين المتربصة أو الأنوف المتطفلة، فكان يدخل من دهليز إلى آخر طالعًا أو نازلًا وعابرًا غرفتين صغيرتين على الجانبين تحويان بعض المَخادع الخشبية الصغيرة للأطفال قبل أن يستقر أخيرًا في غرفة تخزين الحبوب -أو هكذا أراد لها أن تبدو- حتى تصل إلى زاوية بعيدة مختبئة خلف أكياس من الحبوب والتِّبن تحاوط مجلسًا أرضيًّا صغيرًا مكونًا من بضعة مجالس خفيضة من الكتان ومحشوة بالتبن تتوسطه طاولة عليها قنديل صغير لا يكاد يضيء ما حوله. تعوَّد الأطفال على هذه الجلسة كما تعودوا على رائحة الحبوب والخضار المجفف المختلفة من حولهم وصوت نقرات حبات الأمطار فوق الحطب الجاف على سطح المنزل، كذلك اعتادوا على دفء المكان في الليالي الباردة، دفء كان كفيلًا بجلب الطمأنينة إلى قلوبهم بالرغم من الأخطار المُحدِقة بهم في هذا الزمن وهذا المكان.

كانت ليلة الدرس القرآني من الليالي المحبَّبة إلى قلبه، فهو الشيخ العجوز الذي تجاوز السبعين لم يعد يملك من الدنيا سوى شيئين كلاهما يتمحوران حول هذا الجمع المحبب من الأطفال؛ عمله كمشرف لمَشْغَل القماش والكتان- وقد أتقن هذا العمل الروتيني منذ سنوات طويلة مما زاد من قيمته للدون (دييجو) صاحب الإقطاعية فصار لا يستغني عنه كساعده الأيمن- وهذا الدرس القرآني الذي يستمتع به ويُرضيه ويقربه من الله مع هؤلاء الفتية أحبائه. فهذا حفيده (عُمَير) العنيد الغاضب دائمًا المتمرد على كل القوانين بأسئلته الصادمة وردوده المندفعة وتفكيره العدواني الذي يتناسب مع ملامح وجهه الغاضبة المتجهمة وشارب المراهقة النابت تحت أنفه المدبَّبة مع ندبة حرق على جانب عنقه الأيمن. حفيدته (صبح) أيضًا شربت من نفس اللبن ولديها مزيج غريب من العند والتمرد والاندفاع ممزوج بلامبالاة واضطراب نفسي وتفكير بطيء ومزاج متقلب، لها جسد نحيل ووجه لا يحمل جمالًا بقدر ما يحمل من صفات روحها المضطربة ونفسها الحائرة. أما (طاهر) فكان ذلك الطفل الطيب القلب البدين الجسد الذي يحبه الجميع لتلقائيته وبراءته وحبه للحياة.

وبين هذا الجمع من الأطفال كان المَلَكان (الغريب) و(حمدة) هما الأقرب إلى قلب الشيخ (عبد الصمد). هذان الطفلان اللذان يكادان يكونان توأمَيْن في الروح والجسد، بحلمهما وهدوئهما، ببراءتهما وشفافيتهما. كان (الغريب)- مليك السماء- ذا وجه صافٍ وعين بنية حالمة معلَّقة إلى السماء تشد من يحادثه إلى ملكوت خفي لا يراه. أضف إلى ذلك ملامح وجهه الهادئة المريحة التي تفتح له القلوب قبل العقول، وصوته العميق الرخيم بالرغم من حداثة سنه. أما (حمدة)- عروس البحر- فكانت اليمامة الهائمة بين الحمائم. رقيقة كفراشة الحقول، ناعمة كفطيرة طازجة، ناعسة كجنين في بطن أمه. كانت بحق عذراء الخِدْر؛ فقد كانت الأجمل بين جميع فتيات الإقطاعية بشعرها الأسود الناعم الطويل المتهدل على جبينها وغمَّازتين ساحرتين على خدَّيها تأسران العيون، وعينيها البنيتين صافيتين كليلة صيفية. كل هذا وقد حباها الله بجسد رشيق يُنبئ بأنوثة على وشك الانفجار في غضون أشهر أو أقل. كانت (حمدة) منكسرة انكسارَ ورقة أشجار الخريف المتساقطة تحملها الرياح حيث تشاء مما حدا بـ (الغريب) أن يصير راعيًا وحاميًا لها دون أن يُطلب منه ذلك. وبعد بضعة أعوام قضاها الطفلان سويًّا في منزل الشيخ (عبد الصمد) توطدت علاقتهما وصارا رفيقين لا يفترقان، ونصفين دون أحدهما الآخر لا يكتملان. في الصباح يعملان سويًّا في معمل الحرير وفي المساء إما يسرحان بين حقول القَزِّ أو يشاركان أطفال الإقطاعية اللعب والسمر أو يحضران دروس الشيخ (عبد الصمد).

أراد الشيخ (عبد الصمد) أن يجلب كتابًا من كُوَّة في الحائط مختفية بعناية خلف حجر طيني زحزحه ببطء فكشف عن فجوة كبيرة خلفه تحوي بضعة كتب ولفائف وصُرَرًا مرتبة وموضوعة بعنايةِ خبيرٍ حتى يسهُل استدعاؤها، لكن استوقفته دقات سريعة مترددة على باب منزله الخشبي جعلته يجذب يديه من الكوة كما لو كان قد لدغه عقرب ويُرجع الحجر الطيني بسرعة إلى مكانه دون أن يُخرج شيئًا من الكوة وهو ينقل بصره بين الأطفال وبين الباب في ذعر. كان يعلم أن هذا اليوم قادم لا محالة، حين يَقبض عليه محققو ديوان التفتيش مرة أخرى بعد أن يُنقبوا منزله وحتمًا سيجدون شيئًا من الأشياء العديدة المحرم على الموريسكيين اقتناؤها ولديه منها الكثير مما خبأه في حوائط المنزل وكُوَّاته وسراديبه الخفية، كنسخة القرآن الوحيدة المهترئة لديه، أو كتاب الكيمياء والصيدلة باللغة العربية، أو ربما يجدون ذلك الوشاح الحريري الغرناطي المطرَّز؛ إرثه الوحيد من أمه ومكتوبًا عليه (لا غالبَ إلا الله) أحد رموز بني الأحمر آخر حكام غرناطة المسلمين. الأسوأ من ذلك أن يجدوا خنجر أبيه

الغرناطي الفضي بنقوشه الأندلسية الذي بالغ في إخفائه بعد صدور عدة مراسيم ملكية بتجريد موريسكيي بلنسية من الأسلحة ومعاقبة من يخالف هذا بالإضافة إلى بعض المساحيق والأعشاب التي يستخدمها الشيخ (عبد الصمد) في الصيدلة لعلاج الأمراض كما عُرف بين موريسكيي الإقطاعية مما يجعله ضحية سهلة لتُهم الهرطقة والسحر.
وبينما كان يحسب العواقب ويفنِّد الأسباب أخذ عقله يسترجع مشهدَ ذلك اليوم الأسود في حياته منذ أكثر من ستة أعوام حين قُبض عليه واستُدرج إلى ديوان محكمة التفتيش للمرة الأولى وكان يظنها الأخيرة.
كان الليل قد بدأ يرمي بظلامه في الأفق واختفى المارة في الطريق مع لمسة باردة تسري في الهواء عندما أوقف الجندي الإسباني العربة الخشبية ذات الجوادين أمام البوابة الكبرى للكنيسة في (أوليبا)، ثم هبط من مقعد قائد العربة وذهب إلى مؤخرتها فقام جندي آخر باصطحاب الشيخ (عبد الصمد) مقيدًا بالأصفاد من مؤخرة العربة لينزل منها بعد أن دفعه في عنف. كان الشيخ (عبد الصمد) منكَّس الرأس محطم الروح دامع العينين منفطر الفؤاد مستسلم الجسد. هذا ليس لأنه على بُعد خطوات من دخول ديوان التحقيق في محكمة التفتيش؛ حيث سيُحاكَم صوريًّا ليُنتزع منه اعتراف بأي تهمة يريدها المحققون تحت التعذيب، ثم يُحكم عليه بالموت تعذيبًا بمختلف الطرق والأدوات الشيطانية حتى تتسرب الحياة منه قطرة قطرة، لكنَّ سبب حزنه أنه خلال أقل من يوم واحد فقدَ ابنه الوحيد ميِّتًا مُثخنًا بجراحه، ولم يستطع حتى أن يهَبَ جسده مستقرًّا أخيرًا آمنًا، وترك خلفه حفيده الصغير جريحًا وحيدًا ضائعًا.
كان يعلم أن مصيره للموت يومًا على أيدي الجنود المَلكيين أو جلَّادي محاكم التفتيش. بل على العكس كان يتعجب أن نجَّاه الله من كل هذه المهالك طوال هذا الوقت حتى بلغ من العمر أرذله. لقد عاش جُلَّ عمره مجاهدًا بكل الأشكال منذ نعومة أظافره منذ شارك صغيرًا في ثورة البيَّازين في غرناطة قبل أن ينجو بنفسه ويهرب بعدها إلى بلنسية وينجو مِن أكثر مِن عصيان مدنيًّا كان أو مسلحًا، أو احتكاك مباشر أو غير مباشر مع جنود المملكة أو مع العصابات المسيحية المسلحة، حتى استقر به الحال في قرية (أوليبا) إحدى قرى جنوب بلنسية بعيدًا عن صخبها وزحامها وأخطارها، وتحول بجهاده إلى البحر فأصبح من مراقبي السواحل الذين يترقبون ويرصدون قدوم سفن الترك على الشواطئ الشرقية فيتلقَّف منهم كَميات من الأسلحة والأموال ليوصلها للثوار والمجاهدين في الجبال عبر طرق سرية وأساليب خفية تُبعد عنه عيون الشرطة. ثم كبر الشيخ وتسلَّم ابنه منه راية الجهاد فأصبح الشيخ مسؤولًا وحده عن حفيدَيه الصغيرين، فقرر أن يستقر في عملٍ ما ليرعاهما مزيدًا من الوقت وقلَّل من عمليات التهريب واقتصر على مساعدة الموريسكيين الهاربين، أو من يعملون معه في المشاغل ومعالجة المرضى منهم على قدر المستطاع حتى جاءت مأساة موت ولده ثم القبض عليه.
دفعه الجندي في ظهره إلى الأمام في حين شدَّه الجندي الآخر من السلاسل الحديدية التي تقيد ساعديه حتى وصلوا إلى بوابة خشبية صغيرة في أقصى يمين البوابة الكبرى فطرق الجندي البوابة وانتظر قليلًا حتى فُتحت كوَّة منها وأطل منها راهب شاحب الوجه بمصباحه اليدوي المشتعل:
لدينا سجين جديد للتحقيق في الديوان المقدس. هل تتسلمه أو تبعث إلى الأب (خيمينيث)؟
انتظر قليلًا لأستدعيه... هل لديكما أوراق الاتهام والشهود؟
نعم.

ثم أغلق الراهب الكوة واختفى بدوره لبعض الوقت حتى كاد الجنديَّان أن يتململا. انفتح الباب هذه المرة بصرير عالٍ وأطلَّ قَسٌّ يبدو من هيئته أنه أعلى شأنًا حتى إن الجنديين اعتدلا فور أن شاهداه وتكلَّما معه بكل تبجيل واحترام، لكنه تجاهلهما وهو يتسلم الملف الجلدي الأحمر اللون الذي يحتوي على أوراق الاتهام ويُلقي عليها نظرة سريعة روتينية ليتأكد من إمضاء مفتش الديوان الميداني وبيانات السجين وتهمته ثم مدَّ يده إلى ساعد الشيخ (عبد الصمد) ليتسلمه وجذبه إلى داخل الكنيسة. تنفس الجنديان الصُّعَداء وهَمَّا بالرحيل على الفور بعد أن انتهت مهمتهما بينما استسلم الشيخ للقس وخطا أولى خطواته داخل الكنيسة وهو يعلم أنه لن يخطو خارجها حيًّا مرة أخرى أو يرى السماء أو حتى الطريق.

لكن قبل أن يغلق القس الباب الخشبي امتدت يدٌ حازمة وقفت حائلًا دون انغلاق الباب. التفت القس بحدة فوجد رجلًا إسبانيًّا مُهندم الملابس عرَّف نفسه للقس على أنه الساعد الأيمن للدون (دييجو رودريجيز) وأن سيده ينتظره في عربته في الخارج لمحادثة سريعة «مفيدة». نظر القس بتململ إلى العربة السوداء الفخمة وكأنه يقيِّمها وكانت عربة فخمة مغطاة ذات أربعة جياد تقف في الجانب الآخر من الطريق يعتليها سائق مهندم الملبس، فقام بتسليم الشيخ (عبد الصمد) إلى الراهب الآخر وذهب إلى العربة في خطوات منتظمة. انفتح الباب الجانبي للعربة فدلف القس إلى داخلها وانغلق الباب خلفه. لم يقضِ القس وقتًا طويلًا حتى خرج من العربة بنفس الهدوء الذي دخلها به ثم قدِم إلى باب الكنيسة وهو يحمل في يده صُرَّة كبيرة من المرافيدس حتى توقف أمام الراهب الآخر وأمره بفك قيود الرجل وإطلاق سراحه. لم يعلق الراهب وقام بفك القيود ثم سلَّم القس الملف الجلدي الأحمر بما يحتويه من أوراق إلى مساعد الدون ودفع الشيخ (عبد الصمد) في ظهره برفق ليذهب إليه وهو يلقي بابتسامة صفراء باهتة:

أعطِ هذه الأوراق للدون نحن دائمًا في خدمته.

أخذ الرجل الشيخ (عبد الصمد) من ساعده وكذلك الملف الجلدي الأحمر من القس واتجها إلى العربة الخشبية تاركَيْن الراهب يسأل القس عن معنى ذلك فأسكته القس بإعطائه قطعتي مرافيدس في يديه ففهم الأمر ودخلا إلى الكنيسة وأغلقا الباب خلفهما وكأنَّ شيئًا لم يحدث.

أما العربة فقد تحركت بعد أن دخل الشيخ (عبد الصمد) وجلس في مواجهة الدون (دييجو) الذي ظل محملقًا في وجهه لفترة بتعمق ولَوْم. لم يرفع الشيخ رأسه عن أرضية العربة الخشبية ليس خجلًا من الدون ومساعدته أو حتى فرحًا بنجاته من ديوان التحقيق وعودته للحياة مرة أخرى، إنما لأنه لم يكفَّ عن التفكير في أحداث اليوم الماضي وما نال به من خسارة فادحة.

أعلم ما مررت به يا (بينيديكتو) وفقدانك ابنك وما حدث في السوق، ولكني قد لا أستطيع أن أساعدك المرة القادمة. لم يعد المال وحده كافيًا لإنقاذ موريسكي من ديوان التحقيق. أرجو أن تفهم ذلك!

سكت الشيخ ولم يعلق!

دار كل هذا في خَلَدِ الشيخ (عبد الصمد) في لحظات وجيزة وهو يتوقع الأسوأ على الإطلاق من ذلك الطارق المجهول. أشار للأطفال ألَّا يُصدروا صوتًا بعد أن تأكد من إخفاء كل شيء، ثم توجه بحذر إلى باب المنزل وهو يتلفت حوله يغلق أبواب الغرف ويتأكد من أنه لم ينسَ شيئًا هنا أو هناك قد يكون سببًا في هلاكه. اقترب من الباب وألصق أذنه به لعله يسمع شيئًا ينبئه أو يحذره بما هو قادم لكن يبدو أن الطارق كان أكثر حذرًا منه، فدون الطرقات لم يسمع صوتًا أو أنفاسًا؛ حيث غطى صوتُ الأمطار في الزقاق الضيق على أي صوت آخر. لا مفر من فتح الباب، فتقدمٍ وهو يردد في سره مرتعدًا: «لا

تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير». فتح شقًا صغيرًا في الباب ألقى ببصره من خلاله في تردد قبل أن يتنفس الصُّعَداء حين وجد (فاطمة- إيفا) أمَّ (طاهر) تدلف في خوف وترقُّب داخل المنزل بسرعة وحذر. حين أفاق الشيخ من رهبته قام بغلق الباب وراءها بسرعة بعد أن رمى بنظره خارج الباب في الاتجاهين ليتأكد أنها لم تكن مراقَبة. ثم التفت ناحية المرأة صائحًا فيها بصوت منخفض:

سامحك الله يا (فاطمة)، ما الذي أتى بكِ في هذا الوقت المتأخر؟ أتريدين أن تهلكينا يا ابنتي؟!

رفعت (فاطمة) قَلَنْسُوتها المبللة من على رأسها وأنفاسها تتلاحق مسرعة ثم أشارت برأسها إلى ما تحمله في يديها وقالت:

إنه ولدي... (فرَّاج)!

هنا تنبه الشيخ (عبد الصمد) أنها تحمل ابنها الصغير (فرَّاج- فابريسيو) صاحب عشرة الأعوام من العمر والجسد الضئيل تحمله على يديها وتغطيه بعباءتها تحميه من الأمطار. كان ابنها يبدو محمومًا متعرِّقًا ملتهبَ الوجه شاحب الجلد مرتعد الأوصال. تحسس الشيخ (عبد الصمد) جبهة الولد الصغير بتلقائية وانتبه لارتفاع حرارتها فأشار إليها بالدخول إلى غرفة التخزين.

انتفض (طاهر) من مقعده مندهشًا عندما شاهد أمه تدخل الغرفة مع أخيه (فرَّاج) محمولًا على يديها. فهدَّأه الشيخ برَبْتة على كتفه قبل أن يحمل (فرَّاج) من يدها ويرقده على مضجع سوَّاه من أكياس التبن والكتان ثم بدأ في فحصه فرفع جفنيه وفحص حنجرته وجسَّ نبضه وأنصت إلى صدره. التفَّ الفتية والأم الملهوفة حول الشيخ والطفل في مزيج من اللهفة والفضول ينتظرون قول الشيخ الطبيب. كان الجميع في الإقطاعية يثقون في مهارات الشيخ الطبية والصيدلية ويلجؤون إليه في أوقات المرض والطوارئ بالرغم من تضييق السلطات في (أوليبا) على الأطباء الموريسكيين واليهود ومَن سواهم.

انتهى الشيخ من فحص الصغير المرتعد المتعرق وسرح ببصره للحظة وهو يحك ذقنه بأطراف أصابعه قبل أن يخرج ورقة صغيرة من جيبه ويدون عليها كلمتين بالألخميادو ويلتفت للأطفال يأمرهم بحزم:

(الغريب).. خذ (طاهر) واذهب إلى (جوميز) البائع المتجول في بيته ولا تسلكا الطريق العام في الحي بل تخفيا وخذا حذركما حتى لا يراكما أحد. أعطياه هذه الورقة وسيعطيكما مسحوقًا أحضراه هنا بسرعة وحذر.

فصاحت (فاطمة):

أذهب أنا.

رد الشيخ بحزم:

لا يا (فاطمة). أنت سهل تتبعك ورصدك من دوريات الحرس.. الأولاد سريعون ويعرفون الطرق الخفية جيدًا ولن يستطيع الحراس أن يرصدوهم.

ابتسم الولدان وهما ينظران لأحدهما الآخر مزهوَّين بهذا الثناء واستعدا في حزم وشكيمة وأخذا الورقة فانطلقا في خفة وحذر. ثم أمر الشيخ الفتاتين (صبح) و(حمدة) أن تحضِّرا قدرًا من الماء البارد وتصنعا قطعًا صغيرة من الكتان والقطن حتى يكمِّدوا الصبي بالماء البارد طوال الليل لخفض حرارته قدر الإمكان. انطلقت الفتاتان بخفة تنفذان تعليمات الشيخ. أما (عُمَير) فخرج من الغرفة في صمت حين لم يَطلبْ منه شيئًا فضلًا عن أنه لا يحب هذا الطفل (فرَّاج) مطلقًا وله أسبابه في ذلك.

ربَّت الشيخ (عبد الصمد) على كتف (فاطمة) وطمأنها أن الصبي سيكون بخير وأنه فقط يحتاج لعناية

فائقة طوال الليل وكمادات باردة على جسده كله وأخبرها أنه سيعمل له تركيبة من الأعشاب والمساحيق ستساعده على التعافي في الصباح بإذن الله. كما أثنى عليها بالإتيان به سريعًا فلو استمر به الحال هكذا دون رعاية ربما حدثت له مضاعفات خطيرة. انزعجت (فاطمة) ووضعت يدها على صدرها في هلع على صغيرها ثم ارتمت بجانبه تدلك صدره بيديها في حنان الأم وشكرته بصوت أقرب إلى البكاء.

انطلق الولدان في خفة ورشاقة الفهود بالرغم من الأمطار الهاطلة والأرض الطينية اللزجة. كانا يعلمان الطريق جيدًا وكانا يستمتعان بالقفز بين أسطح المنازل المتلاصقة أو الاتزان على الأسوار الرفيعة أو تسلق الحوائط العالية كما تعودا خلال ألعابهم الصبيانية في الحي. حتى (طاهر) البدين كان سريعًا كالسهم وكأنه غزال رشيق. كان سهلًا عليهما أن يضلِّلا الحراس أو يتجنبوهم في هذه الليلة الممطرة حتى وصلا إلى بيت (جوميز) البائع المتجول وأعطياه الورقة فغاب في الداخل قليلًا ثم عاد إلى الفتيَيْن وأعطاهما ورقة مطوية تحوي مسحوقًا ما، وطالبهما بإخفائه وحمايته من البلل. كانت مهنته كبائع متجول قد سهلت له التبادل السري للمساحيق والسوائل الكيميائية مع نظرائه من القرى الأخرى وربما من بلنسية المدينة أيضًا؛ حيث يلتقي تجارًا من مختلف القرى والمدن أسبوعيًا. انطلق الفتيان مرة أخرى في طريق العودة وتابعا الركض والتسلق والقفز مرة أخرى حتى كان أحد الأسوار الرفيعة فانزلقت رِجْل (الغريب) عليه وكاد أن يقع من فوقه لكن لحقه (طاهر) واستطاع أن يرفعه مرة أخرى، لكنَّ نَتوءًا معدنيًّا في الحائط كان قد انغرس في ساق (الغريب) ممزقًا جزءًا من جلدها صانعًا جرحًا قطعيًّا فيها. تألم (الغريب) لثوانٍ ممسكًا بساقة فلاحظ (طاهر) ذلك فانكب على ساق (الغريب) يفحصها وبسرعة مزق جزءًا من ثوبه وصنع رباطًا ضمَّد به جرح (الغريب) واطمأنَّ منه أنه يستطيع الحركة وأكملا التحرك وكأن شيئًا لم يكن.

وصل الفتيان إلى منزل الشيخ (عبد الصمد) مرة أخرى ودخلا مسرعَيْن إلى الغرفة. كانت (صبح) تجلس وبجانبها قدر من الماء البارد تغمس فيه قطع الكتان والقطن ثم تعصرها وتعطيها لكلٍّ من السيدة (فاطمة) و(حمدة) اللتين تكمدان جسد الصغير (فرَّاج) على جبهته وتحت إبطه وبين أفخاذه كما نصحهن الشيخ (عبد الصمد) الذي كان يرتب مجموعة من القوارير التي تحوي ما بين سائل ملون أو شفاف ومساحيق بيضاء عليها بعض العلامات الدالة عليها. ما إن رأى الشيخ الولدين يدخلان عليهم منهكين ينهجان من فرط التعب وملابسهما وأشعارهما غارقة من الأمطار حتى اندفع ناحيتهما وأخذ الورقة واطمأن أن المسحوق الذي بداخلها لم ينسكب أو يُصبه بلل ثم ربَّت على كتفَيْ الفتيين وأثنى عليهما ثم نصحهما أن يذهبا ويستبدلا ملابسهما بأخرى جافة حتى لا يمرضا، ثم انكبَّ يمزج المساحيق والسوائل والأعشاب بنسب معينة في قِدر معملي صغير ليمزجها على نار مَوقد صغير مُعَد لذلك. بينما ذهب الولدان إلى غرفة الصبيان لتبديل ملابسهما.

لم يلحظ أحد جرح (الغريب) ولا اتكاءه على كتف (طاهر) إلا (صبح). اتجهت إلى غرفة الصبيان وراءهما ودلفت إليها فوجدت (طاهر) يفك الرباط عن ساق (الغريب) كاشفًا عن جرح قطعي ودماء سائلة ممزوجة بقطرات الأمطار ومسحة من الوحل. فانطلقت (صبح) دون تردد وأحضرت ماءً نظيفًا وقطعًا من القماش وانكبت على ساق (الغريب) تمسح الدماء وتضمد الجرح وقد استسلم لها (الغريب) مُتعبًا متألمًا. كانت كلما مسحت على جرحه تألم فيتمزق قلبها لهفة على ألمه وهي تتأمل وجهه المنهك وشعره المبلل. شعرت (صبح) بسحر غريب يسري في أحشائها عندما تحسست قدمه بيديها ودققت النظر إليه واقتربت منه.. إلى وجهه.. إلى صدره في صعوده وهبوطه.. إلى عينه

المتألمة.. وجبهته المندّاة. وجدت نفسها تنحني على جرحه بعد أن ضمدته برباط من القماش النظيف ثم... قبَّلته. نعم قبَّلت جرح ساقه. لا تدري لماذا فعلت هذا. لكن كان هذا فعلها الطبيعي وتصرفها المثالي مندفعة تفعل ما يحلو لها وما تشعر به دون أن تحسب حسابًا أو تعقِّد الأمور. لوهلة تعجب (الغريب) ممَّا فعلته (صبح) متسائلًا، لكنها لم تكن خجلة من تصرفها، ولم تشِح بوجهها عنه أو يحمرَّ لها وَجْنة أو يخفض الحياء نظرها، بل رمته بنظرة راغبة ثم قامت وغادرت الغرفة بلا مقدمات تاركة (الغريب) مبهوتًا.

لا تزال الليلة الطويلة قائمة، ولا تزال غرفة التخزين تعجُّ بالحركة. فالأم و(حمدة) تمسحان على جسد الصغير بقطع الكتان الباردة فينتفض من حين لآخر مزمجرًا دون أن يفتح عينيه، ومالت (صبح) على صدر أخيها وناما سويًّا على مجلسهما. أما الشيخ (عبد الصمد) فقد انتهى للتوِّ من عملِ سائلٍ أسود اللون ظلَّ يغلي في قِدر صغير على نار موقد صغير ثم ترك السائل يبرد قليلًا قبل أن يضعه في قارورة أعدَّها ليشرب منها الطفل. ثم اقترب منه فقامت الأم بإسناد ظهر ابنها لتعدله حتى يشرب السائل، فتأوَّه الطفل (فرَّاج) مزمجرًا بصوت محشرج. قرَّب الشيخ القارورة من فم (فرَّاج) وقامت الأم بفتح فمه الصغير في رفق وبدأ الشيخ يسكب السائل فيه. كان طعم السائل مرًّا جدًّا جعل الصغير يبصقه عدة مرات ممتنعًا عن ابتلاعه، ولكن مع إصرار الشيخ وإلحاح الأم جعله يبتلع القليل منه في اشمئزاز ومَقْت، وبينما كان الطعم المر يشق حلقه فتح عينيه قليلًا وارتسمت صورة ضبابية لوجه الشيخ (عبد الصمد) وهو يصب الدواء المرَّ بإصرار وإجبار ألصقت مقت (فرَّاج) للدواء المر بذلك الوجه المجعد ذي اللحية البيضاء. لا يهتم الطفل الصغير ولن يفهم إن كان هذا دواءً أو غذاءً، ولكن ما التصق في مخيلته الطعم المر ومقته وكراهيته له مع ذلك الوجه المجعد.

لم تنته الليلة بعدُ لكن سكنت لقليل من الوقت بعد أن تناول (فرَّاج) الدواء أو بعضًا مما سُكب في فمه وأسكنته أمه مرة أخرى على مخدعه الكتاني؛ حيث استمرت هي و(حمدة) في مسح جسده بالماء البارد. اختفى الشيخ (عبد الصمد) في غرفته، ورمت الأم (فاطمة) برأسها بجانب رأس ابنها وقد غلبها النعاس، ولا تزال (صبح) وأخوها (عُمَير) يغطَّان في نوم عميق، بينما غلب (الغريب) و(طاهر) التعب وأكملا الليلة في غرفتهما نائمين في سبات عميق. وحدها (حمدة) لم يغلبها التعب وأكملت ليلتها تمسح بقطع القماش الباردة على رأس وجسد (فرَّاج) في حنان غامر كما لو كانت هي أمه لا (فاطمة). هكذا كانت (حمدة) دائمًا تعطي حنانها بسخاء دون أي قيود أو اعتبارات. لم يكن (فرَّاج) يصغرها كثيرًا حتى ينصبغ ذلك الحنان بصبغة الأمومة، بل هكذا كانت منذ وعت على الدنيا وبالرغم من الأوقات الصعبة الأليمة التي مرت بها وبالرغم من فقدانها أبويها وعطفهما وحنانهما وحمايتهما، كانت تعطف على كل شيء وأي أحد. تُسامح وتنسى الإساءة ولا تحمل ضغينة لأحد. حتى الحيوانات والطيور كانت تشعر بطيبتها وعطفها فتتمسح بها مثل هرتها الصغيرة البيضاء التي لا تكاد تفارقها في العمل أو المنزل فتنام على قدمها وتجلس بين راحتيها وتحت قدميها وتأكل من يديها. لم يخطئ هذا الحنان قلب (فرَّاج)، ففي الوقت الذي بدأ الدواء مفعوله وانخفضت حُمَّاه مع الكمادات الباردة، بدأ جسد (فرَّاج) بالسكينة وارتاحت قسمات وجهه قليلًا وهدأت أنفاسه، وبينما كانت (حمدة) تمرر يديها على جسده النحيل كان (فرَّاج) يشعر بطاقة عطف دافئة جياشة تنتقل من روحها إلى جسده فتزيد من سكينته وهدوئه وكأنها تُربِّت على فؤاده بيدٍ من نور؛ ففتح عينيه في براءة رضيع ليتأمل صاحبة هذه اللمسة الإنسانية، ورأى وجهها كما لو كان بدرًا منيرًا في ليلة ظلماء وكأن هالة

بيضاء مشعَّة تلف وجهها كما يرى العذراء مريم في لوحاتها وتماثيلها داخل الكنيسة عندما يحضرون القدَّاس أيام الآحاد. هكذا كان يراها في تلك اللحظة.
لم تكن (حمدة) غريبة عن (فرَّاج) قبل ذلك اليوم، ولكنه لم يقترب منها إلى هذا الحد ولم تتلامس أجسادهما بهذا الرفق من قبل. في هذه اللحظة انتبهت (حمدة) أن (فرَّاج) ينظر إليها متمعِّنًا مما أشعرها بتعافيه واسترداده لوعيه فابتسمت له ابتسامة صافية قالتها عيناها قبل شفتيها وتبعتها بمسحة رقيقة على جبهته وشعره الناعم الطويل. توقف الزمن عند (فرَّاج) في هذه اللحظة وتدلَّى فكه في انبهار لهذه اللوحة الملائكية التي لا توصف ولكن تُحسُّ. في هذه الليلة لم تتوقف (حمدة) عن العطاء، ولم يتوقف (فرَّاج) عن الانبهار وإن استسلم لحنانها الفائض وعطفها الدافئ وأغلق عينيه كرضيع في حجر أمه.
تسلل ضوء الفجر الفضي من نافذة صغيرة في أعلى الغرفة مع تسرب شعاع شمس دافئ بعد انجلاء السحب الملبدة عن السماء معلنًا عن انتهاء تلك الليلة العاصفة العصيبة. أفاقت (فاطمة) من غفلتها عندما سقط الشعاع على وجهها فانتبهت لما حولها فكان أول ما رأت ابنها (فرَّاج) وقد ارتاحت قسماته وهدأ جسده ونام آمنًا بين يدي (حمدة) التي غلبها النعاس هي الأخرى وقد نَسِيَتْ يدها على صدر الصغير. بينما (عُمَير) و(صبح) افترشا الأرض نائمين، فربَّتت (فاطمة) على رأس (حمدة) في امتنان. دخل الشيخ (عبد الصمد) الغرفة في هذه الأثناء واقترب من (فرَّاج) ومسح على رأسه حتى اطمأن لحالته، فشعر الطفل بيدي الشيخ وفتح عينيه لتلتقي عينَيْ الشيخ مباشرة دون حجاب أو ضباب. لم يستطع (فرَّاج) أن ينسى ذلك الوجه وكان طعم الدواء المر لا يزال على لسانه وفي حلقه فظلت عينه معلقة على وجه الشيخ في حذر. ارتاح الشيخ لحالة الطفل فتمعن في وجهه دون أن يرفع يده عن جبهته. الآن فقط ومع ضوء شعاع الشمس البكر الساقط على وجه الطفل لاحظ الشيخ عيني الصغير وقد كانت إحداهما بنية صافية بلون عسل النحل الجبلي، بينما الأخرى خضراء زاهية كعين التماسيح.
كان مزيج غريب من الألوان في عيني طفل صغير جعل الشيخ يعتدل في جلسته قاطبًا حاجبيه. لم تمنعه براءة الطفل من الشعور بشيء من الحذر والخوف وكأن تلك العينين نذير شؤم أو تحملان نبوءة شريرة. لم يشعر بغبطة أو سعادة أو حتى اندهاش لمثل هذا الاكتشاف الغريب الذي لا يُرى كل يوم. لا يدري لماذا ولكنه فقط شعر بحذر وخوف غير مفهومين. استشعرت (فاطمة) رد فعل الشيخ الغريب فقالت:
هل لاحظت عينيه؟
فرد الشيخ دون أن يرفع عينيه عن وجه (فرَّاج):
لم ألحظهما من قبل عندما كان رضيعًا.. لا أعلم ولكني لا أشعر بالارتياح لما أرى.. ربما تُجلب المشاكل لعتبة بيتكم بسبب تلك العينين يا (فاطمة).
وماذا يمكن أن نفعل يا شيخ؟
لا شيء نفعله الآن. فقط احذري فلا نعلم ما تخبئه الأيام من جرَّاء مثل تلك الظاهرة...
فقالت الأم آسفة:
إنه يحدث بالفعل يا شيخ، فأقرانه من أبناء الإسبان يُعيِّرونه ويشككونه في نسبه لأبيه ويدَّعون أنه ابن خطيئتي مع أحد نبلائهم.
فالتف الشيخ برأسه في حدة إليها غاضبًا:

لعنهم الله. هذا ابن (عبد الجبار) لا شك في ذلك.. أي عاقل يستطيع أن يميز شحمة أذنيه هو و(طاهر)؛ متطابقتان وموروثتان من (عبد الجبار) رحمه الله وليس منكِ...إننا نعرفكم منذ زمن طويل يا (فاطمة) ولا غبار عليكم. وقد طبّبتكم وعاينتكم طوال حياتكم...تلك ظاهرة نادرة الحدوث تظهر بين جيل وآخر دون علة أو سبب. هذا اختيار الله. ألا يزال (فرَّاج) مصاحبًا لأولاد الملاعين هؤلاء؟

إنه يتعلق بهم كل يوم أكثر من السابق يا شيخنا. يرفض أن يصاحب أخاه (طاهر) مع أبنائنا وصبيتنا في دروسهم ولعبهم.. ويصاحب أولاد الإسبان الملاعين ولا يفارقهم.

فرك الشيخ ذقنه البيضاء في تمعن قبل أن ينفث بزفرة طويلة قائلًا:

على العموم لا زال صغيرًا ونستطيع أن نقوِّمه ولابد أن نقومه في الأيام القادمة.. ولكن كوني دائمًا على حذر يا (فاطمة)، لا ندري من أين يأتي الخطر هذه الأيام... هيا خذي ولدَيْكِ وارحلوا إلى بيتكم قبل زحام الصباح...لقد أصبح كل شيء على ما يرام.

قبَّلت (فاطمة) يد الشيخ الذي جذبها عنها بسرعة مربِّتًا على رأسها بحنان أبوي، ثم ساعدها على حمل (فرَّاج) وأيقظ (طاهر) ثم فتح باب المنزل لثلاثتهم فخرجوا مسرعين. ظل يتأمل الأم وهي تحمل طفلها الذي أراح رأسه على كتفها بينما تُمسك بيدها الأخرى (طاهر) وهو نصف نائم يمشي سِكِّيرًا. وقبل أن يغيبوا عن عينيه اعتدل (فرَّاج) وألقى بنظرة بعيدة إلى الشيخ الذي ظل ثابتًا كتمثال من الشمع سارحًا فيما يمكن أن تحمله الأيام القادمة لهذا الطفل.. أو منه.

كان يعلم أن السكينة التي امتدت لعَقدين بين الموريسكيين والإسبان سكينة زائفة يحكمها العلاقات والنفوذ ومصالح النبلاء. كانت هذه خيوطًا واهية ضعيفة تربط مضطرة بين طائفتين لن تمتزجا يومًا أو تجتمعا لوقت طويل. سيأتي يوم ينفجر فيه الموريسكيون من قيود الاضطهاد وضغوط العنصرية وكراهية الأديان حينها قد ينطلق الشرر من أصغر الأسباب ليحرق الجميع. شاهَدَ ذلك في غرناطة في ثورة البَيَّازين قبل أن يترك غرناطة صغيرًا، ولكنه لا يعلم إن كان سيشاهده مرة أخرى قبل أن يموت أم لا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٢) رقصة: الذكريات المُرَّة
(١)

بعد خمس سنوات (أوليبا) صيف ١٥٦٥م.
ألقت الأنباء السرية عن عرس (ميجيل) الشاب و(إتزيار) الجميلة بظلالها على أهل الحي وهم يتجهون إلى أعمالهم في الحقول ومشاغل الحرير والكتان. فمنذ الصباح الباكر امتلأت الأزقة والطرق بالرجال والنساء والفتية يتحركون في همَّة ونشاط وفي عيونهم نظرة سرية يُلقون بها إلى بعضهم البعض مع ابتسامة خبيثة لها دلالتها بينهم أو ربما وَشوشة ضاحكة صامتة بين آذان النساء والفتيات. كانت ترتيبات العرس تتم منذ فترة في سرية حتى لا يعلم بشأنها محققو الكنيسة فلا يقتحمون العرس ويحرمون أهل الحي الموريسكيين من الغناء والرقص الأندلسي القديم وتقديم المشروبات والأطعمة الأندلسية التي يجهزونها في مطابخهم في سرية، بل إن بعضهم يبالغ في الأمر بلبس الملابس الحريرية العربية المزركشة وخضْب الحناء في أكفِّ الصبايا قبل إزالتها في اليوم التالي. لم يكن مجرد عرس تحتفل به عائلتان بالمصاهرة ويهنئهم به بعض الأقارب والجيران، بل كان مهرجانًا يستغله الموريسكيون في إعادة إحياء حياتهم القديمة بكل أشكالها وألوانها ورائحتها. ولكي ينجح هذا المهرجان، على الجميع أن يتوخَوا الحذر فلا ينشرون الأخبار ويكتمونها. تبدو فكرة حمقاء أن يكتموا أخبار عرس وفرح ومهرجان، ولكن هكذا علَّمتهم السنون سنة بعد أخرى وعَقدًا بعد آخر وقد أشاع بينهم عجائزهم قصصًا حقيقية تكاد تصل إلى حد المآسي الملحمية عن أعراس تحولت إلى مآتم بعد أن اكتُشف أمرها فاقتحم محققو الكنيسة واكتشفوا مظاهر الموريسكيين المنتشرة في المكان فألقوا القبض على البعض وساقوا البعض لدواوين التفتيش وأحسنهم حظًّا من اضطُرَّ لدفع رشوة كبيرة للمحققين حتى لا يفضحوا أمره. وهكذا أصبح الأمر واقعًا عليهم فلزم عليهم الالتزام أو المعاناة.
وفي المساء، كان (الغريب) و(حمدة) و(صبح) راجعين من عملهم بالمشغل مع جموع العاملين في الطريق العام للحي وهم يمدُّون الخطى حتى يستعدوا ويتجهزوا للذهاب إلى بيت (صفية)؛ حيث يقام العرس.
بضعة أعوام مضت منذ ليلة (فرَّاج). يكبر الأطفال سريعًا في هذا العمر وتتغير أجسادهم تغيرًا ملحوظًا في وقت قصير فيصيرون فتية وشبابًا. الأكثر من ذلك أن تتشكل شخصياتهم وتنمو عقائدهم وتشتعل رغباتهم شيئًا فشيئًا. سرح جسد (حمدة) وتشكَّل كأجمل تمثال مثالي لآلهة الجمال الإغريقية فطال جسدها وازداد ليونة وأنوثة. بينما جمَّلت عيناها الواسعتان وجهها الأبيض الصافي وشعرها الحريري الكثيف الذي يظهر تحت قلنسوة من القماش الأبيض لتكتمل الصورة المثالية لتلك الأنثى أجمل جميلات الحي. كان جمالًا مبهرًا أخَّاذًا للعقول جاذبًا للانتباه جعل من (حمدة) محطَّ أنظار جميع رجال الحي من الموريسكيين والإسبان بكل أعمارهم ووظائفهم بالرغم من ملابسها المتواضعة ومظهرها البسيط، بينما تنظر الإناث إليها في غيظ وحسد وغيرة أنَّ ذلك الجمال المكتمل لم يكن لهنَّ أو لبناتهن.
حتى (صبح) كانت تشعر بغيرة من (حمدة) تصل إلى حد الحقد أحيانًا، فهما بحكم نشأتهما وسكنهما سويًّا كانتا تترافقان في الطريق في كثير من الأحيان فتظهر (صبح) بجانب (حمدة) كما لو كانت قميئة

أو قزَمة بالرغم من أنها لم تكن كذلك أبدًا، فتظل بعيدة عن العيون المأخوذة والعقول المشدوهة والاهتمام المُرضي للإناث، لكن كانت (صبح) مثلها مثل كثير من الفتيات ذات قوام وسيط وجسد نسائي عادي ذي أنوثة غير مُلفتة، فرغم اكتمال نموها الأنثوي لم يتفجر منها نهْدٌ بَضٌّ منتصب أو ليونة انسيابية مغرية في ارتفاع أو انخفاض، فصارت بجانب (حمدة) مثل تلٍّ رملي صغير لن يَشد إليه أيًّا من العيون وهو قائم بجوار بركان دائم الثورة والفوران. ليس هذا وحسب، كان اهتمام (الغريب) بـ(حمدة) واختلاؤهما ببعضهما في استراحات العمل وفي أوقات الراحة وتهامسهما تحت كروم العنب وعلى شاطئ البحيرة الصغيرة يجعل (صبح) تشعر بمزيد من التجاهل. كانت تعطي لـ(الغريب) اهتمامًا كبيرًا، اهتمامًا خاصًّا وواضحًا، ونظرات أطول وأكثر عمقًا. حتى بعد ليلة (فرَّاج) وتلميحها له باهتمامها بشأنه وانجذابها إليه، لم يتغير شيء من ناحيته. لا زال يعاملها معاملة (عُمَير) لها، بينما يُكِنُّ كل حبه واهتمامه ورعايته لـ(حمدة) المحظوظة في كل شيء.
أما (الغريب) فلم يكن يشعر أنه محظوظ بحب (حمدة) أو لأنه نال جميلة الجميلات قلبًا وقالبًا، بل كان يوقن أن حبهما قدر مكتوب لم يتدخل أحد من أجله. لم ينظر إلى جسدها المغري ولا أعضائها الفتانة ككل ذكور الحي بقدر ما كان يهتم بروحها النقية ونفسها المكسورة. لقد وعيا على هذه الحياة فوجدا نفسيهما يتشاركان كل شيء سويًا. في ألم اليتم وحزن الوحدة ونِير العبودية للإسبان كما كانا يتشاركان فرحة اللقاء ورغبة الأمل وفورة الأحاسيس في جنبات روح ملتاعة. وها هو الآن وقد اكتمل نضجه وبلغ أولى مراحل الشباب صار قلبه أكثر همة وهيامًا مع جسد فتيٍّ منتصب القامة طويل العماد رشيق القوام وقد نُحِت وجهه بانتظام بعد انتهاء سنوات الطفولة واضمحلال ملامحها منه فصار وجهه أكثر دقة وشبابًا ورجولة دون أن يفقد براءة العيون ووسامة التفاصيل.
أخذ ثلاثتهم يتحادثون بصوت هامس وقد أظهرت (صبح) حماسًا شديدًا لليلة العرس وكم هي توَّاقة للرقص طوال الليلة وقد استعدت إليها أتم الاستعداد. تمنى (الغريب) أن يقضوا الليلة بلا مشاكل تعكر من صفوها قبل أن تسأله (صبح) غاضبة عن معنى ذلك معتقدة أنه يلمِّح إلى أخيها (عُمَير) المندفع الغاضب الذي لا يترك مناسبة دون أن يضع لمساته الغاضبة الرعناء عليها مما يورطه أو يورط الجميع معه في مشاكل كثيرة. لا يزال الجميع يذكرون مشاجراته الدائمة مع أبناء الإسبان بداع أو بدون داع لأتفه الأسباب كانت أو أعظمها. كان يرفض الذهاب إلى الكنيسة يوم الآحاد ويجاهر بذَّلك. كان يتعمَّد عدم شرب النبيذ أمام محققي الكنيسة لاستفزازهم، ولو كان رجلًا ناضجًا كبيرًا لكانت نهايته مأساوية، وكان الشيخ (عبدالصمد) يتوسط للدون (دييجو) كثيرًا حتى يُخرج (عُمَير) من ورطة أو مشكلة سببها اندفاعه وحماقاته وحَنَقه المستمر. واليوم بالتأكيد ستطل أحداث السوق الأخيرة بظلالها على العرس وقد كان (عُمَير) صاحب المشهد الرئيس فيها قبل أن يختفي عن العيون منذ أيام.
اعتذر (الغريب) إلى (صبح)؛ حيث لم يقصد ذلك بينما ضحكت (حمدة) عليهما في رقة قبل أن يستكملوا طريقهم إلى عملهم لكن ظل السؤال يتردد في أذهانهم إن كان (عُمَير) سيأتي الليلة في العرس أم لا.

(٢)

بدأت فعاليات ليلة العرس بعد أن عاد الجميع من أعمالهم إلى بيوتهم وغربت الشمس وتثاءبت الكلاب الضالة وخفَّت الأرجل عن الطرق العامة. بدأت أرجل خفيفة تنتقل في خفة ورشاقة من كل بيت موريسكي لتمر عبر الحقول متخفية بين أشجار الفواكه وكروم العنب من شباب ورجال وفتيات

ونساء من مختلف الأعمار. فبينما كانت الطرق العامة والرئيسة في (أوليبا) تبدو خاملة كانت الطرق الفرعية والممرات بين الحقول والقنوات شعلة نشاط. الكل يقصد نقطة واحدة بعيدة عن مركز القرية في أطرافها تحت سفح الجبل عند بيت (صفية)؛ حيث تعوَّد الموريسكيون أن يتقابلوا في ليالي العرس بعيدًا عن أعين الحرس والمفتشين. هناك فقط يستطيعون أن يتراقصوا ويتغنوا ويتضاحكوا فرِحين بهذه الزيجة والمصاهرة الجديدة بين عائلتين موريسكيتين ابتغاءً لامتداد نسل الأندلسيين وعدم انقطاعه بعد أن صارت أعدادهم في تناقص متزايد نتيجة لتتبعهم والتحرش بهم من الكنيسة أو هروبهم عبر البحر إلى أفريقية. كان بيت (صفية) يومًا ما بيتًا عامرًا لامرأة موريسكية تُدعَى (صفية). كان البيت نائيًا عن القرية هناك عند السفح الجبلي واسعًا ممتدًا تحت سفح التلال الغربية لـ(أوليبا) تحاوطه من كل جانب فتجعل منه موقعًا متميزًا حصينًا. يقال إن زوج (صفية) كان أحد المارقين الهاربين من الإسبان ولهذا صمم بيته هكذا ليلتقي بزوجته بعيدًا عن الأعين. وعندما قُتل الزوج كرَّست (صفية) حياتها وما تملكه في مساعدة الموريسكيين الثوار والهاربين، فصار بيتها ملجأ لهم يخططون فيه ويلجؤون إليه. حتى كانت إحدى الليالي انكشف أمر البيت وتوجهت فرقة ثقيلة من الفرسان الإسبان مُدجَّجين بمدافع البارود إلى البيت ودمروه على من فيه من ثوار ولاجئين و(صفية) أيضًا. ومنذ ذلك الزمن تحولت أطلال هذا البيت إلى رمز صمود الموريسكيين ضد الاضطهاد والعسف الإسباني وأصبحوا يلتقون فيه للسمر والاحتفالات الدينية الإسلامية أو الاجتماعية السرية كالزواج على الطريقة الإسلامية الأندلسية القديمة بعيدًا عن أعين الإسبان.

بدأت ساحة البيت الواسعة تعج بالقادمين من رجال ونساء وفتية وفتيات، واشتعلت المشاعل وأكوام الحطب في مجموعات منتظمة وموزعة في جنبات الساحة. وبعد وقت قليل بدأ تمايُز المجموعات فصارت النساء يجتمعن بالقرب من طلل البيت؛ حيث يخبزن الفطائر والحلوى الأندلسية اللذيذة ويُعْدِدْنها للتوزيع على الضيوف والمدعوين، ورائحة الحلوى الزكية تنبعث من مكانهن فتزكم الأنوف وتجذب العيون وتربك البطون. وفي مجموعة أخرى جلس الرجال والشيوخ يدعون بالأدعية الدينية والتراتيل الإسلامية داعين للزوجين بالمباركة واليُمن والذرية الصالحة التي تمد من عمر الإسلام والموريسكيين في هذه الأرض الأسيرة. ومجموعة أخرى للشباب الذكور؛ حيث يجتمعون حول العريس (ميجيل) الذي يجلس في منتصفها لابسًا أزهى الملابس بينما أقرانه وأصحابه يتمايلون حوله مداعبين ومهرجين وراقصين. ومجموعة أخرى للفتيات يجتمعن حول (إتزيار) الجميلة وهي تلبس ثوبًا حريريًّا أبيضَ لامعًا ذا قلنسوة فضفاضة مطرزة بخيوط الذهب والفضة جاعلًا منها ملاكًا مشعًّا في الليل، أما الفتيات من حولها صنعن دائرة وجعلن يغنين ويُطبِّلن بالدفوف ويعزفن على الآلات الوترية من عود وقيثار ساعياتٍ لجذب أعين الشباب من وقت لآخر.

وصل (الغريب) و(حمدة) و(صبح) مع فوج القادمين وكلهم أمل وإثارة في ليلة مرحة يقضونها بين الأصحاب والأخلاء من الحي الموريسكي علَّها تكون راحة لهم من عناء أيام العمل الشاق. انضم (الغريب) لحلقة الشباب على الفور وقد وجده (طاهر) فأفسح له مجلسًا بجواره بالرغم من ازدحام الحلقة. كذلك انضمت (صبح) المتحمسة و(حمدة) المبتسمة إلى جمع الفتيات المتحلِّقات حول (إتزيار) العروس يغنين بجمالها ويرقصن على إيقاع الطبول والدفوف. كانت كلتا الفتاتين تلبسان ثوبًا حريريًّا مبهجًا بألوان زاهية منحدرة من درجات اللون الأحمر. تلك الثياب التي يصممها الفتيات والسيدات الموريسكيات ثم يخبئنها ولا يُخرجنها إلا في أوقات الاحتفالات؛ حيث يلبسنها ويبالغن في الزينة ولم لا وهي ليلة لا تتكرر كثيرًا في العام الواحد. أرادت (صبح) أن يكون ثوبُها مثيرًا فقصَّرت أطرافه

السفلية لتبرز أجزاء من ساقيها كما أرخت من صدريته حتى تبرز اهتزاز نهديها؛ حيث إنها تنوي أن ترقص طوال الليل بلا توقف وتشعل صدور الرجال والشباب كما تبتغي دائمًا. أما (حمدة) فكان ثوبها الحريري طويلًا وفضفاضًا لكن بالرغم من ذلك لم يستطع أن يُخفي جسدها المثير باستدارته وانحناءاته وانتفاخاته. وبالرغم من أنها لفَّت شعرها الأسود بطريقة عادية إلا أنه ظهر بكثافته وطوله وكأنه إعصار لَيْلكي حالك. امتزجت هذه الأجزاء باللون الأحمر الناري لثوبها الحريري فصنع لوحة معجزة من الفتنة والجمال.

لم يمض بعض الوقت حتى تناهى إلى مسامع الجميع صوت القيثارة بإيقاع السمْرة يتردد في الأصداء وبين التلال مع صوت ذكوري جَهْوَرِي جميل عرفه كل الحضور. إنه (زريابيس) أشهر المغنِّين الموريسكيين في بلنسية وأعمالها ومعه فرقته المكونة من عازف قيثارة وطبال وراقصة السمْرة الأشهر على الإطلاق (آنا كارميليتا) الفاتنة. بالطبع (زريابيس) ليس اسمه الحقيقي ولكن اسم الشهرة التجاري له كمغنٍ وقائد لفرقة السمْرة؛ حيث إن الاسم له دلالته على أصله الأندلسي العائد على (زرياب) أحد أشهر المغنين والعازفين الأندلسيين فيما مضى.

بعد بضع لحظات ظهر (زريابيس) ومن خلفه تابعاه العازفان يعزفان بنشاط كبير، ثم لم تمض لحظات وظهرت خلفهم (آنا كارميليتا) واقفة كأحد آلهة الإغريق القدامى وقد عكس ثوبها الأحمر اللامع المزركش وهو مرصَّع بقطع فضية وذهبية وقُرطها الدائري الكبير أضواء اللهب من المشاعل وأكوام الحطب المشتعلة فرمى بأشعته على وجوه الجميع يزيغ أبصارهم ويوقد صدورهم فسكتوا جميعًا وكأن على رؤوسهم الطير وهم يتأملون ذلك المنظر البديع. خرجت (آنا كارميليتا) في بضع خطوات استعراضية تتبعها العيون حتى وصلت إلى منتصف الساحة بين الحلقات المختلفة ثم بدأت الرقص على أنغام القيثارة وعلى صوت (زريابيس) الجميل الشجي. فأخذت ترفع وتخفض من يديها تنقر بأطراف أصابعها وتحرك كفَّيها بتوازن واتزان وتزامن مُدهش، ثم تنطلق من مكان إلى آخر متمايلة ترفع طرف ثوبها الأحمر الناري المزركش من وقت لآخر تحركه في الهواء كجناح طائر ثم تدور وتدور فيرتفع الثوب معها صانعًا زهرة حمراء متفتحة ثائرة. كانت رقصتها مزيجًا من النعومة والثورة بحركات تبدو رقيقة دافئة ثم تتحول بغتة إلى حركات غاضبة ثائرة مع خبطات قوية برجليها على الأرض الصخرية وانحناءات بطيئة يتخللها حركات مترددة سريعة أو قوية أو عنيفة ثم تصفيق بيديها بين الحين والآخر. كل هذا دون أن يَنْبِس عن شفتيها ضحكة أو ابتسامة بل غضب وصموت وتجهم.

كذلك كان صوت (زريابيس) مزيجًا غريبًا ما بين الثورة والشجن وهو يصعد بصوته ويهبط.. يصرخ ثم يبكي.. يستمر ويتوقف. يصفق بيديه أو على صدره أو على جانبي فخذيه. كان صوته نحيبًا شجيًّا مبكيًا تتخلله الثورة ويمتزج به الغضب حينًا والانكسار أحيانًا وهو يغني مما يغني:

سأموت يومًا إذ أراكِ ترقصين السمْرة
في الجعفرية والخيرالدا أو تلال الحمرا
وسيلقي ثوبك ذلك الناري حرقًا أمره
وتطقطقين بإصبعيكِ شهادتي قبل الحياة الأخرى
ويفوح ذاك الفل من أطراف ثوبك معجزًا أو سحْرا
سأعيش سمرتكِ بأنفاسي فلا تتوقفي بالمرّة
وأموت بعدًا لا يُهم... سأموت حُرّا

لن يحرقوا برُفاتي في ساحاتهم مترنمين
لن يغرقوني حين أهرب سابحًا نحو السفين
ولسوف أحيا فوق مجدافٍ يلاصقني سنين
وستنجو رأسي من قطافٍ من سيوف الصائدين...
سأعيش من أجل انصهاري باحثًا بحرًا وبَرّا
وأموت بعدًا لا يهم سأموت حُرّا
لا لا تقولي إنها تلك النهاية فالنهايات كثيرة
ونهايتي أسلمتُها طوعًا لكِ في ظلِّ نظرتك الكسيرة
في رقصةٍ تحت الصليب تُدنْدِني كمدًا كمئذنةٍ أسيرة
فتمهلي ولترقصي لي سمرةً في مرةٍ أخرى أخيرة...
في شاطئ الترحيل؛ حيث يجرِّفون الذكرياتِ المستجيرة
واستسلمي فلقد سئمت من التوجُّس هاربًا نبضًا وزفرا
وأموت بعدًا لا يهم... سأموت حُرّا

كانت رقصة السمْرة مدهشة بحق شدت ألباب الحاضرين وقلوبهم أيضًا. كانت الرقصة تمثل الموريسكيين. بل كانت هي الحياة الموريسكية ذاتها بألمها وثورتها وغضبها واستكانتها. شعر الجميع بالرقصة والغناء والموسيقى تتخلل أرواحهم وصدورهم وأفئدتهم. فمنهم من سهَّم ببصره وذهنه، ومنهم من غلبه الحزن والشجن من صوت (زريابيس) الشجي وكلماته المحزنة فدمعت عيناه. من هؤلاء كان (عُمَير). جاء واستقر بعيدًا وظل جالسًا وحيدًا كذئب مستوحد طريد يراقب من بعيد؛ حيث إنه لا يزال يشعر بالغضب والخجل من واقعة السوق الأخيرة التي جعلته يختفي عن الأعين منذ أيام لم يرغب فيها أن يظهر في العلن كسابق عهده. كانت عادته في ليالي العرس أن يتفاخر بالزي الأندلسي ويبالغ في الجهر بالعادات العربية والرقصات الغرناطية والأدعية والصلوات الإسلامية حتى يكاد أن يكون نجم الاحتفال الأول. أما الآن فيشعر أن ظهوره العلني سيزيد من انكساره وسيستجذب مزيدًا من نظرات الشفقة من الجميع وهي آخر ما يريد الآن.

ترك (عُمَير) أنغام موسيقى السمرة يتسلل إلى أعماقه فدغدغته ألحانُها الشجية وكلماتها الحزينة: (لن يحرقوا برفاتي في ساحاتهم مترنمين) وصوت (زريابيس) الجميل ورقصة السمرة المعبرة. لكن لا حيلة له أخذته أغنية (السمرة الأخيرة) رغمًا عنه إلى واقعة السوق الأخيرة منذ عدة أيام.

في ذلك الصباح استيقظ قبل بزوغ الفجر وخرج من المنزل منطلقًا في سِرِّيَّة بين البيوت والأزقة الخالية إلا من بعض الكلاب والقطط الشريدة حتى وصل إلى أطراف الحي الموريسكي عند منطقة وعرة جبلية ومرَّ بين ممرات صخرية يعرفها جيدًا قبل أن يصل إلى مدخل كهف ودلف إلى داخله؛ حيث كان الكهف فسيحًا من الداخل على عكس ما يُظهره مدخله، وفي الداخل جلس مجموعة من الصبية والشباب لم يتجاوز عددهم العشرين. كان الكهف مضيئًا بمجموعة من المشاعل النارية القليلة فيما اجتمعت كل مجموعة من الشبيبة تحت مشعل يتحادثون فيما بينهم. جلس (عُمَير) القرفصاء بجوار ثلاثة فتية في مثل عمره وقبل أن يفتتح حديثه معهم صاح أحد الفتية بالنداء لصلاة الفجر، قام الفتية واعتدلوا في أربعة صفوف متوازية ولم ينتظروا كثيرًا قبل أن يخرج من أحد جيوب الكهف رجلٌ فتيٌّ قوي البنية ذو لحية عظيمة سوداء فاحمة ويرتدي عمامة بيضاء وجلبابًا أسود من ملابس

الأندلسيين القدامى ثم توجه للإمامة وأمرهم بالتساوي والمحاذاة قبل أن يبدأ الصلاة وتلاوة القرآن بلغة عربية ركيكة متقطعة ولكن بخشوع وتأمل عظيمين.
انتهى الجمع من صلاة الفجر قبل أن يلتفت الإمام إلى مأموميه من الفتية المقرفصين ثم قال بعد الصلاة والسلام على النبي محمد:
يا إخوتي وأبنائي.. لابد لنا في كل لقاء أن نتذكر ونذكِّر بمنهجنا والدواعي له خاصة مع انضمام أبنائنا المستجدين معنا في الجماعة.
ثم نظر إلى شابين في أقصى يسار الصف الأول؛ حيث التفت بقية الفتية إليهما قبل أن يستطرد الرجل في تواضع وثقة قائلًا:
من يذكِّرنا ويُلقي على مسامعنا درسنا اليوم؟
لم يتردد (عُمَير) لحظة واحدة ووقف على التوِّ فالتفتت إليه العيون وهو يقول في همَّة ونشاط دون تردد أو لعثمة:
نحن هنا للاستعداد لأداء فريضة الجهاد يا مولاي السيد (ناصر).. فريضة جهاد الدفع كتبها الله على أهل الأرض التي احتلها الغاصبون الأجانب الكفرة وسلبوها من أيدي المسلمين. كما فعل سيدنا صلاح الدين الأيوبي عندما حرر بيت المقدس من أيدي الصليبيين.
كان السيد (ناصر بن نصر) معجبًا بحماس (عُمَير) الزائد الذي لا يترك مناسبة واحدة دون أن يظهر فيها شجاعته وإقدامه ومبادرته. قبل أن يقطع أفكاره فتى آخر قائلًا:
أليس من الأولى لنا أن نَلزَم مبدأ التَّقِيَّة يا سيدي لنحفظ ديننا وأنفسنا خاصة أننا في موضع ضعف واستكانة؟ لقد سمعت هذا من أبي أكثر من مرة إضافة إلى فتاوى شيوخ المسلمين في المغرب.
لم يُخيِّب (عُمَير) ظن الإمام (ناصر) عندما هبَّ مشيحًا بيديه في اتجاه الشاب المتحدث قائلًا:
هذا كلام العبيد المستضعفين المدجَّنين. إن أعدادنا أكثر منهم. المواجهة حتمية ولابد ستحدث يومًا ما فيجب علينا الاستعداد لهذا اليوم.
فلنستعد في الخفاء إذن!
خطأ. لابد للإسبان أن يشعروا دائمًا بالخوف منا. لابد لهم أن يعرفوا أننا نستعد لهم.. لابد أن يرتعبوا منا ولا يأمنون جانبنا في أي وقت.
كان الإمام (ناصر) يرى في (عُمَير)- كما ربَّاه وجهزه- الجندي المثالي لتنفيذ منهجه في مجابهة الإسبان. عِراك العصابات والأخويات تحدث من آن إلى آخر في مختلف ربوع ومدن المملكة الإسبانية. كان من الواضح له أن عصر المعارك الكبرى كالزلَّاقة والأرك مع المملكة الإسبانية قد انتهى منذ عقود ربما منذ سقوط غرناطة. تشتُّتهم وتشرذمهم وتحكُّم الإسبان فيهم ووضعهم في جماعات وأقليَّات صغيرة مشتتة غير مترابطة لن يساعد على ذلك إضافة إلى عدم وجود تمويل وإمداد كافٍ بالرغم من الدعم التركي أو المغربي الشحيح. حروب العصابات هي الحل الناجع للحصول على بعض المغانم وربما على المدى الطويل الحصول على استقلال قرية أو مدينة أو ربما إقليم ناءٍ بعيد. ولن تنجح حروب العصابات إلا من خلال التوازن بين السرية والجهر أحيانًا. حتى الإسبان يدركون أهمية حروب العصابات فهناك مختلف الأخويات المسيحية المتعصبة تظهر من آن لآخر وظيفتها ترويع الموريسكيين وابتزازهم وكشف المحافظين على دينهم منهم للكنيسة التي تدعمهم في الخفاء أو الجهر أحيانًا. هكذا لقَّن الإمام (ناصر) تلميذه النجيب (عُمَير) على مدى الأعوام السابقة منذ حداثته بالرغم من اعتراض جده الشيخ (عبد الصمد) على المنهج. لكن ماذا يفعل

اعتراض شيخ عجوز على حفيدَيْه (عُمَير) و(صبح) الفتيين المتمردين وهو في أشد فترات حياته ضعفًا وعجزًا وقد فقد معظم بصره وسمعه وقُيدت حركته ببضع خطوات بين غرفتَيْ بيته حتى صعب عليه إعطاء الدرس اليومي وصار يَلزم فراشه معظم اليوم بينما أخذت المسافات تبعد بينه وبين (عُمَير) كل يوم كلما تقدم به العمر وكلما ازداد تعلق (عُمَير) بفكرة الجهاد والثورة والأخويات المسلحة وشبيبة السيد (ناصر).

لم يستمر درس الصباح طويلًا كالعادة لضيق الوقت قبل الضحى حتى فضَّ الإمام (ناصر) النقاش متمِّمًا على كلام (عُمَير)، ثم أمر الفتية بالرحيل فُرادَى والذهاب إلى أشغالهم دون أن يلحظهم أحد. خرج (عُمَير) وحده وسلك نفس طريقه للرجوع حتى وصل إلى أطراف الحي الموريسكي ثم انضم في انسيابية مع نهر الطريق من العابرين والمتجهين إلى أشغالهم دون أن يلحظه أحد. لم يتوجه إلى المنزل؛ لأنه يعرف أن (صبح) و(الغريب) و(حمدة) يبكِّرون في الذهاب إلى العمل وبالتالي لن يلحقهم، فاتجه مباشرة إلى مشغل القماش في شمال الإقطاعية سالكًا الطريق العام كعادة الجميع كل صباح. وكان من حظه أنه وجد صديقه (طاهر) يسير وحيدًا فانضم له ومشيا سويًّا يتكلمان.

كان الطريق يزدحم شيئًا فشيئًا كلما مشيا فيه، وكانت المشاهد حول الطريق تتبدل كلما تعمقا في الطريق؛ حيث مساكن الحي الموريسكي الفقير في أقصى جنوب (أوليبا) يَليها حقول الفواكه والكروم على الجانبين ثم ميدان السوق مركز القرية؛ حيث أبنية المحالِّ والبضائع كوَّنت ساحة دائرية كبيرة تكون أكثر الأماكن ازدحامًا طوال اليوم وخاصة في صباح كل يوم عمل أو أيام الآحاد ثم يصل الطريق بعد ذلك إلى الطرف الشمالي من القرية؛ حيث المشاغل والمصانع والمخازن. أما بيوت الإسبان فكانت في شرق الإقطاعية في منطقة الأثرياء على جانبي الطريق إلى شاطئ البحر بعيدًا عن ذلك الزحام.

عندما وصل (عُمَير) و(طاهر) إلى مشارف السوق وانضمَّا بين زحام الناس، أحسَّا بحركة غريبة غير اعتيادية من حولهم. انتبه لها (طاهر) باستغراب بينما فطن لها (عُمَير) بسرعة بديهته وحِسه المدرَّب على اشتمام الخطر الذي اكتسبه من سنين انضمامه لشبيبة الإمام (ناصر) فهمَّ بالهرولة على الفور غير أن يدًا قوية مدرَّعة بالحديد عاجلته وكبَّلت يديه من الخلف برغم محاولته الإفلات منها كثور جريح بين فكي أسد، على عكس (طاهر) الذي استسلم مشدوهًا لذلك الجندي الذي أطبق على ساعديه وأعجزه عن الحركة. حدث كل شيء في ثوانٍ معدودة كانت كافية لإثارة ضجة وعاصفة من الأتربة انتبه لها العابرون من السوق فأفسحوا لها دائرة واسعة متسائلين عن سببها وقد أوقفتهم الدهشة والفضول عن المضي قُدمًا إلى وجهاتهم ليرموا بأنظارهم إلى مركز هذه العاصفة بعد أن بدأت سحب التراب في الانحسار. كان جنديان قويان حازمان من جنود حرس المقاطعة بملبسهما الجلدي الأسود المدرع بصفائح الحديد وخوذاتهما الحديدية يكبلان ساعدَيْ (عُمَير) و(طاهر) اللذين ما فتئا ينظران يمينًا ويسارًا في قلق وترقب بعينين متسائلتين مع استسلامهما للأسر.

ملأت الأسئلة والفضول عيون الناظرين وسرت همهمة فيما بينهم ما بين سؤال واستنباط لم يَدُم طويلًا؛ حيث ظهر في الجانب الآخر شبح أسود معتاد ومروع لهم. كان أحد مفتشي الكنيسة قادمًا في خطوات بطيئة واثقة وعلى وجهه هدوء غريب مريب وهو يتشح بعباءته السوداء الفضفاضة ذات القلنسوة الكبيرة الملقاة على ظهره كما لو أنه ملك الموت نفسه، ويتدلى من خاصرته صليب خشبي كبير يتأرجح مع حركة أقدامه بينما الصليب الذهبي على صدره يلمع في ضوء الشمس ليزيد من المشهد رهبة وهيبة. كان رجلًا نحيفًا ذا وجه مطبق الجوانب وعظام بارزة مع أنفه المعقوف، وشعره

المحلوق أعلاه المهذب الأطراف يزيد من الموقف اشمئزازًا صامتًا للجميع. لكن لم يكن المفتش يسير وحده بل كان معه فتى آخرُ يمشي بجواره وهو يشير بيده إلى حيث يقبع (عُمَير) و(طاهر). إنه (فرَّاج) أخو (طاهر) القصير ذو الجسد الضئيل والشعر الأشقر المجعد الطويل المسدل على ظهره وقد وضع على إحدى عينيه رقعة سوداء كقراصنة البحار، بينما صنعت عينه الخضراء مع تنورته القصيرة وقبعته السوداء مظهرًا مستنسخًا لأبناء الإسبان المسيحيين.
أدرك (عُمَير) (فرَّاج) عندما رآه من الوهلة الأولى، بينما أخذ (طاهر) بعض الوقت ليتعرف على أخيه حتى تدلى فكه في بلاهة تتناسب مع جسده السمين وهو لا يعرف لماذا يلبس (فرَّاج) هذه الملابس وما الذي يفعله وما صلته بما يحدث؟. حتى الجمع من الناس والعابرين صمتت همهماتهم وهم يحاولون أن يفهموا ما يجري وقد تعرف بعضهم على (فرَّاج). لم تمض ثوانٍ معدودة حتى وصل المفتش وبجواره (فرَّاج) متأخرًا عنه بخطوتين وتوقفا أمام (عُمَير) و(طاهر) المأسورين.
هل هما؟
قال المفتش في جمود هادئ دون أن ينقل نظرة التقزز من على وجهَيْ الفتيين. فأومأ (فرَّاج) برأسه دون أن ينطق وهو يرمق (عُمَير) بنظرة يمتزج فيها الخبث والتشفي بابتسامة خفية مرت على شفتيه للحظات. فانتقل المفتش بنظره إلى الحارسين وأمرهما أن يخلعا سروالَيْ (عُمَير) و(طاهر). صعق (عُمَير) و(طاهر) عند سماعهما الأمر متسائلين وحاولا الاعتراض لكن بدون سابق إنذار أتى حارس آخر وشرع بخلع سروال (طاهر) أولًا بينما سرت همهمة أخرى بين الحضور مستفسرين أو معلقين أو مفسرين. لم يدع المفتش مجالًا للتساؤل فصاح وهو يلقي بصوته العميق يمينًا ويسارًا:
وصل الكنيسة والديوان المقدس نبأ هذين الشابين أنهما أجريا ختان الكفرة.. وهي جريمة كما تعلمون جميعًا تعاقب الكنيسة عليها. فلو ثبت إجراؤهما الختان، سيُزجُّ بهما إلى سجن الكنيسة ليتم تطهيرهما من الآثام وستُنفى بالطبع عائلاتهما إلى الأبد...
علا صوت الهمهمة مرة أخرى مع صرخة نسائية مكتومة من بين الحضور هلعًا على مصير الشابين وعائلتيهما ممن يعرفون (عُمَير) و(طاهر) أو حتى ممن لا يعرفونهما. مصير أقبية دواوين التفتيش هي أسوأ ما يمكن أن يتخيله كائن حي. هي الجحيم على الأرض؛ حيث لا ينجو منها بشر بل إن الموت هو النجاة الوحيدة منها. تهمة الختان للذكور إحدى التهم التي توجَّه عادة إلى الفتية والشباب الذين ينضمون أو ينوون الانضمام إلى الثوار والمجاهدين كإحدى مراسيم الجهاد. حاول (عُمَير) أن يقاوم الحارس وهو ينزع عنه سرواله في صرامة بعد أن انتهى من (طاهر) الذي تدلَّى قميصه ليُخفي معظم عورته بينما كُشِفت ساقاه وكذلك فخذاه البضّان السمينان، لكن نجح الحارس في انتزاع سروال (عُمَير) فأمرهم المفتش برفع قميصيهما حتى يستطيع المعاينة على الملأ.
شعر (عُمَير) و(طاهر) بالمهانة لذلك الإشهار الفاضح أما بالنسبة للمفتش فكان يريد أن يُثبت عليهما التهمة بشهادة جميع الحضور لتأكيد مصداقية الكنيسة وصرامتها وإعطاء العبرة والمثل لهم وهو متأكد من ثبات تهمتهما. أدارت النساء برؤوسهن بعيدًا عن المشهد خجلًا بينما دقق الرجال النظر بحثًا عن إثبات للتهمة أو نفيها بينما علا صوت ضحكات صبيانية من بعيد سخرية من (عُمَير) و(طاهر).
رفع الحارس قميصَيْ (عُمَير) و(طاهر) فظهرت عورتاهما للجميع في منظر مخجل مُذلٍّ احمرَّ وجه (طاهر) منه خجلًا و(عُمَير) غضبًا وثورةً وهو يرمق (فرَّاج) بنظرات ينطلق منها الشرر متجاهلًا بذلك ما افتضح من أمره وما اغتُصب من جسده. جثا المفتش على ركبتيه وقرب وجهه من عورة

(عُمَير) في مشهد مقزز يبعث على التقيؤ قبل أن يمد يده ويمسك أيْرَه بثبات كما لو كان يمسك بذيل فأر ميت ويديره يمينًا ويسارًا وهو يعاينه عن قرب يتقصى أجزاءه، ثم كرر نفس الأمر مع (طاهر) دون أدنى إحساس بالخجل. لم يكن (عُمَير) ولا (طاهر) مختونين وكان ذلك ظاهرًا واضحًا جليًّا لا لبس فيه، فاعتدل المفتش وأخذ يحك ذقنه المدببة مفكرًا وهو لا يزال يرمق الشابين بينما من داخله يشتعل غضبًا فهو الآن في موقف لا يُحسد عليه فسُمعة الكنيسة ومحققيها ومخابراتها السرية على المحكِّ. فصار أمام أحد خيارين كلاهما صعب، إما أن يُطلق سراح الشابين ويعترف بفشل الكنيسة في الحصول على معلومات صحيحة، وإما أن يعتقلهما دون سبب أو ربما بسبب مُلفَّق لا أصل له، وفي هذه الحالة عليه أن يجابه غضب جمهور الموريسكيين وربما غضب الدون(دييجو) صاحب الإقطاعية أيضًا. فقرر أن يُطلق سراحهما بإشارة من يده للحراس بينما امتدت يده الأخرى لتمسك بياقة قميص (فرَّاج) تكاد ترفع قدميه عن الأرض في قوة وغضب وهو يصيح في المتجمهرين بهدوء مصطنع يخفي به غضبه وغيظه:

حسنًا إنهما غير مختونين.. وسنعاقب المبلِّغ الكاذب على ذلك.. هيا فليذهب كل منكم إلى وجهته.. هيا.

رفع كلٌّ من (عُمَير) و(طاهر) سرواليهما وجريا مختفيَيْن عن الأنظار بينما انفضَّ جمع الناس عن المشهد كما تجمعوا في صمت. ظل (عُمَير) يجري بين الحقول والمزارع مختبئًا عن العيون التي اغتالت رجولته منذ لحظات. لم يرد أن يظهر أمام أيٍّ من البشر مرة أخرى لهذا تجنب العبور من الطرق الرئيسة في الإقطاعية وظل يخرج من حقل إلى آخر يعدو بأسرع ما استطاعت قدماه أن تركض به حتى وجد نفسه وحيدًا بعيدًا عن العيون في حقل في أطراف الإقطاعية فرمى بنفسه على الأرض ودفن رأسه في التراب وظل يبكي ويبكي ويبكي.. ما كان يهمه الموت في أقبية الكنيسة لو قبضوا عليه، ولكن ما حدث أمام الحي كله كسره وجعله يقف عاجزًا عن أبسط الأمور. عن أن يدافع عن رجولته وعن كيانه كإنسان. يوم واحد فقط بكى مثل الآن وفي نفس المكان.

تذكر ذلك اليوم عندما كان صغيرًا ولا يعرف شيئًا من الحياة سوى أبيه. نعم لا يزال يذكر أباه عندما كان طفلًا صغيرًا لم تزد سنوات عمره عن ست السنوات. كان أبوه هو كل حياته وكانت تكفيه. لا يدرك أي شيء مما حوله إلا حنانَ أبيه وقد كان أبوه نعم الأب في الحب والحنان والرعاية لعائلته المكونة من الطفلين (عُمَير) و(صبح) التي كانت أصغر من أن تدرك ما حولها وجدِّه الشيخ (عبد الصمد). بينما ماتت الأم منذ ولادة (صبح) فلا يذكر الطفلان عنها شيئًا فصار الأب أمًّا لهما أيضًا.. كانت جنة كافية بالنسبة للصغير (عُمَير) أن يعيش وأخته في كنف أبيه وجده راضِين عن حياتهم يقتاتون بالقليل ولا يتوسمون في الحياة إلا ما يكفيهم لعيش يومهم. ومع ذلك لم تدُم هذه الحياة طويلًا. ما بين ليلة وضحاها أصبح الوالد كثيرَ السفر واختفى كثيرًا من حياتهم لبضعة أشهر وهَن فيها الصبيُّ وضعفت صحته وهو يتلهف للقاء والده الحبيب. ثم ظهر الأب مرة أخرى كزائر الفجر قادمًا ملثَّمًا متخفِّيًا ويرحل متخفيًا أيضًا. كان خائفًا من شيء ما. كان مريضًا وهزيلًا ومتعبًا دائمًا. لا يكاد الصغير يشبع من أبيه ومن حضنه ودفئه حتى يختفي الأب مرة أخرى لأيام أو أسابيع أو شهور. فيظل الطفل الصغير يتطلع في انتظار أبيه ويسهر الليالي مترقبًا إياه حتى يغلبه النوم. حتى كانت هذه الليلة التي حُفِرت في ذاكرته إلى الأبد. عندما جاء الأب منهكًا أكثر من أي وقت مضى وطرق الباب ودخل عليهم البيت قبل أن يسقط على الأرض مغشيًّا عليه وهو مُثخنًا بالجراح وقد بلغ الإعياء منه مبلغه. أخذه الشيخ (عبد الصمد) وأخذ يطبِّب فيه طوال المساء دون جدوى، وارتمى الصغير على صدر أبيه يتحسس نبضه الضعيف والجراح الدامية تملأ كل جسده والأب لا يفيق من غفوته. وبينما

كان الشيخ (عبد الصمد) منهمكًا بأمرٍ ما بعيدًا عنهما، فتح الأب عينه بصعوبة بالغة ونادى على (عُمَير) بصوت ضعيف خفيض مرتعدٍ انتفض له (عُمَير) من على صدره واقترب من وجهه يتحسسه وينظر إلى عينيه الزائغتين. لم يَزِد الأب المنهك على جملة واحدة قالها بعين دامعة ينطفئ منها بريق الحياة شيئًا فشيئًا:
(عُمَير)، «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون»..
ثم أغمض عينيه إلى الأبد ومات. بكاه الصغير.. وبكاه الجد.. فما أصعب فقدان الأب والابن!! لكن وجب على الشيخ (عبد الصمد) أن يملك جأشه ويتصرف سريعًا. فاستدعى ثلاثة من رجال الحي الموثوقين وأخذوا جثة الوالد في سرية تامة تحت جنح الليل مستورين بظلامه الدامس وتوجهوا إلى مقابر الموريسكيين السرية عند سفح الجبل. وفي سرية شديدة قام الرجال بنقب الأرض وتسوية لَحْدٍ على الشريعة الإسلامية. كان لابد أن يتم كل هذا في سرية بعيدًا عن عيون الجند ومفتشي الكنيسة؛ حيث إن الدفن على الشريعة الإسلامية من المخالفات الجسيمة التي يُعاقَب عليها بأشد العقاب. كان الطفل مُلقى على جسد الأب الميت لا يفارقه بينما يحفر الرجال القبر. كان يحتضنه بكل ما أوتي من قوة وهو يبكي حتى بللت دموعه كفنه الأبيض.
كان يميل بأذنه من وقت لآخر على صدر أبيه يتحسس نبضًا اعتاد الشعور به أو صوتَ أنفاس اعتاد دِفئها لعلهم يكونون مخطئين، لكنه وأسفاه لا يسمع شيئًا. قام خمستهم بالصلاة على الجسد الممدَّد أمامهم ثم شرعوا بدفنه متَّبعين الشريعة الإسلامية ومتمتمين بالأدعية والصلوات المحمدية ناشدين الرحمة والمغفرة. لم يُرِد (عُمَير) أن يترك جسد أبيه فتمسك به لكن دون جدوى ثم رضخ في النهاية. بدؤوا يهيلون التراب وهو لا يصدق أنه لن يرى أباه مرة أخرى بعد الآن وأن تلك الحفرة الصغيرة الضيقة ستكون هي المثوى النهائي لجسد ذلك الحبيب. فلا حِضن ولا حنان ولا دِفء بعد اليوم. وانتهَوا أخيرًا من تسوية الأرض واجتهدوا لتبدو كما لو لم يكن هناك شيء ثم رحلوا وهم يشدون (عُمَير) من يديه وهو رافض أن يترك حبيبه تحت التراب، فمع بزوغ الفجر تزداد المخاطر وكان لابد لهم أن يرحلوا ويتركوا المكان في أسرع وقت قبل أن ترصدهم العيون.
قضى (عُمَير) الساعات القليلة التالية لدفن أبيه ضائعًا في عالم آخر. لم يعد للبكاء معنى فيه. لم تفلح محاولات الجد في تهدئة سريرته أو طمأنة قلبه. أي عالم هذا بدون أبيه؟! لكن لم تكن تلك هي المأساة، فبعد الصباح وارتفاع شمس الظهيرة، علا صوت طرقات قوية على باب منزل الشيخ (عبد الصمد). كانت طرقات قوية مفزعة انتفض لها (عُمَير) الباكي الوجه بعينيه الحمراوين اللتين لم تذوقا طعم النوم. انطلق الشيخ (عبد الصمد) مرتعدًا إلى الباب ففتحه، وإذا بفرقة من الحراس يرأسهم فارس إسباني يندفعون إلى داخل المنزل ويلقون القبض على الشيخ (عبد الصمد) بدون أي تعليق أو ادِّعاء. ثم أخذوا يجرونه من يديه مكبَّلًا بالحديد إلى خارج المنزل في وحشية وصرامة. انطلق (عُمَير) يتمسك في ثوب جده. وَيْحهم! أبالأمس يفقد أباه واليوم يفقد جده بين ليلة وضحاها؟! صرخ الطفل مناديًا على جده وهو يعدو خلفه ولكن الجند لم يُلقوا له بالًا والجد كان منشغلًا بمصيره المرتقب والناس تتجمع لمشاهدة ما يحدث دون تعليق. وصل الجمع إلى ميدان السوق- نفس المكان-؛ حيث كان كل شيء مُعدًّا سلفًا. كان العساكر مُلتفِّين في محيط السوق صانعين مشهدًا كبيرًا يتوسطه مفتش للكنيسة بملبسه الأسود المخيف وهو يرمق الجند القادمين بالشيخ (عبد الصمد) المكبل اليدين حتى توقفوا أمام المفتش فهدأ الجمع من الناس الملتفين حول المشهد بفضولهم المعتاد فصاح المفتش بصوت جَهْوَرِي مخيف:

باسم الرب وباسم الملك فيليب الثاني ملك إسبانيا بتيجانها قشتالة وأراجون ونابولي وصقلية.. ظل الرب على الأرض وسوطه على الكافرين.. وصل إلى الكنيسة عبر أبنائها المخلصين أن هناك مخالفة جسيمة قد حدثت فجر أمس..
فهم الشيخ (عبد الصمد) سر هذه الجلبة فاستسلم برأسه إلى الأرض وقد عرف مصيره. فأكمل المفتش قائلًا:
هذا الرجل مارس طقوس الكفار المسلمين في دفن جثة أحد المارقين على القانون.. وفي هذا فقد ارتكب جريمتين.. ممارسة طقوس المسلمين الكفرة، وإيواء أحد المارقين على القانون.. وعلى هذا قرر ديوان التفتيش المقدس أولًا: محاكمة المدعو (بينيديكتو الملوكي) في ديوان التفتيش؛ حيث ينال العقاب المناسب لجريمتيه السابق ذكرهما. ثانيًا: حرمان جثة المارق (جوميز الملوكي) من الراحة الأبدية وإحراق جثته لتتطهر أمام الرب..
ثم أشار للحراس بيده فأتى العساكر بجثة مُكفَّنة في قماش أبيض متسخ بالتراب، ثم أشار إلى كومة من الحطب كانت قد أعدت من قبل. هنا انتفض الشيخ (عبد الصمد) صائحًا ملتاعًا:
لا.. احرقوني أنا.. لا تحرقوا الأموات..
قذف الحارسان بالجثة المكفنة في عنف لتستقر على كومة الحطب الجاف. اتسعت ابتسامة المفتش وهو يرى لوعة الشيخ (عبد الصمد) وكأنه يتلذذ بتعذيبه، ثم التفت إلى الحارسين وأمرهما أن يزيلا القماش ليعريا الجثة. صاح الناس مستنكرين لهذا الأمر المقزز. أي كائن هذا الذي يتلذذ بتعذيب الأحياء وتعرية الأموات وحرقهم. وفعلًا قام أحد الحارسين بتمزيق القماش من على الجثة بخنجره حتى تعرَّى الجسد الميت لوالد (عُمَير) تمامًا فظهرت عورته وجراحه في صدره وبطنه لا تزال دامية وازرقَّ وجهه وتحجرت عيناه. صرخت بعض النسوة من المشهد المؤلم بينما طأطأ الرجال برؤوسهم أسفًا وألمًا على فقيد الحي وعجزًا عن مساعدته.
كل هذا وكان (عُمَير) يجهل ما يدور من حوله. كان كل همِّه الآن هو جده أمله الأخير في الحياة. حتى قام الحارس بتمزيق الكفن وتعرية جسد أبيه على كومة الحطب. كأن صاعقة من السماء قد ضربت رأسه فتجمد مبهوتًا، فهذا هو أبوه الذي دفنه منذ سويعات وانفطر قلبه عليه وبللت دموعه كفنه قبل أن يهيل عليه التراب، هذا هو وقد جردوه من ستر التراب ليفضحوه على الملأ ويرموا بجسده عاريًا أمام الجميع وكأنه جيفة كلب ميت في السوق. فصرخ (عُمَير) وانطلق مسرعًا إلى جسد أبيه الحبيب يحتضنه ويستر جسده باكيًا بهستيرية وجنون. انتبه الجنود للطفل المكلوم فسارع أحدهم بجسده الضخم وأمسك (عُمَير) من يديه كاللعبة الصغيرة ورماه بعيدًا عن الجثة والحطب ثم أتى جندي آخر بشعلة من النار وأخذ يشعل الحطب في أكثر من موضع بعد أن بللوه بالزيت سريع الاشتعال حتى اشتعل جلُّه. زاد صراخ (عُمَير) وزاد معه بكاء النسوة من حوله عندما بدأ الحطب في الاشتعال وبدأت ألسنة اللهب تحرق في أطراف الجثة الملقاة. وزاد بكاء الشيخ (عبد الصمد) وهو يرى فِلذة كبده تحترق أمامه لا حولَ لها ولا حولَ له ولا قوة. حاول (عُمَير) مرات ومرات أن يتفلَّت من العساكر ليذهب إلى النيران المشتعلة ليطفئها وينقذ جسد أبيه، ولكن كان في كل مرة يمسكه أحد الجنود ويرميه بعيدًا. حتى ارتفع لهب الحطب واحترقت معظم الجثة وانتشرت رائحة شواء اللحم البشري تزكم الأنوف حينها أشار المفتش للجنود فبدؤوا في الإعداد للرحيل وتركوا (عُمَير) فاغتنم الفرصة على الفور وانطلق إلى اللهب بلا خوف وارتمى بجسده على الجثة المشتعلة دون أن يهاب النار والاحتراق والألم.. فلحقه بعض الرجال وأنقذوه قبل أن تشتعل النيران فيه لكن كان قد احترق

جزء من كتفه ورقبته. وبينما أخذ الرجال يعالجونه وهو ملقى على الأرض منهار كانت عينا (عُمَير) معلقة من بين الأرجل والأجساد وسحابات الدخان والتراب إلى جثة أبيه التي اختفت معالمها على كومة الحطب المشتعل بين لهيب النيران ورماد الحطب ودخان الشواء. وبين كل هذه المشاهد لم تغفل عيناه منظر ذلك الطفل القصير الصغير ذي الشعر الأصفر الطويل (فرَّاج) وهو يلعب ويتضاحك مع أطفال الإسبان حول النار ويرمون بقطع من الحطب وأغصان الأشجار على جسد أبيه المشتعل كما لو كان لعبة يتسلون بها.

لم يعبأ بجراحه وآلام كتفه ورقبته وأطلق لرجليه العنان.. جرى بين الحقول كما جرى.. جرى بعيدًا عن الحي.. عن البلدة.. عن الناس. ولم يجد نفسه إلا في نفس المكان عند نفس الحقل في أطراف القرية الجبلية فارتمى على الأرض يصرخ ويبكي ويتألم. حتى كانت تلك اليد الحانية.. يد الإمام (ناصر) تُربِّت على كتفه المحروق ثم حمل الفتى المثخن بجراحه وقد أنهكه الألم وغشي عليه. أخذه الإمام (ناصر) وعالجه وضمد جراحه وتبنَّاه منذ تلك الليلة. تلك الليلة التي زرعت فيها بذرة الانتقام والثورة داخل (عُمَير) وسقاها السيد (ناصر) بسخاء.

والآن بعد أكثر من عشرة أعوام يتكرر الأمر مرة أخرى بشكل مختلف ومأساة مختلفة. صرخ في الفضاء الفسيح أمامه بأعلى صوته بكل ما أوتي من غضب وحَنَق وثورة عندما عاودته تلك الذكرى، ثم قرر ألا يستسلم للانكسار. قرر ألا يُستذل بعد اليوم ولا يستسلم. قرر أن يكون هذا اليوم هو اليوم الذي يتخلص فيه من العبودية والذل. فمسح دموعه من على وجنتيه وتحولت ملامح وجهه إلى الصرامة والغضب بعد الانكسار والحزن. ثم أكمل طريقه إلى حيث كان في الصباح الباكر عند مقر أخوية الإمام (ناصر). فسلك نفس الطريق ونفس الممرات الجبلية ودلف إلى الكهف ثم نادى على الإمام فخرج له وسأله باستغراب عن سبب مجيئه في هذا الوقت فقال (عُمَير) في صرامة:

اليوم هو يوم الخلاص لي يا سيدي!

اقترب الإمام منه ووضع ساعده على كتفيه يحتضنه قائلًا:

هذا قرار مبكِّر يا بني. أنت تعرف أنه لا يمكن الرجعة فيه راجع نفسك..

فردَّ (عُمَير) بصرامة:

هذا هو الوقت المناسب لي يا سيدي. لا أريد أن أستمر في هذه الحياة الوضيعة مرة أخرى. سأتحرر اليوم أو أموت اليوم مستعبدًا.

كان الإمام (ناصر) يتوقع قدوم ذلك اليوم لـ(عُمَير) أسرع من ذويه. تلك الشخصية المشبَّبة العنيدة لن تقبل العيش الداجن طويلًا بعد أن نضج عقله ونمت مشاعره واشتد ساعده. لكنه كان يشفق عليه أن يبدأ حياة المطارَدين من هذه السن الصغيرة. صحيح أنه نضج فكريًّا وجسديًّا وعاطفيًّا أسرع من أي شاب في سِنه، ولكن شخصيته المندفعة كافية بأن ترمي به إلى الهلاك عند أول منعطف فيسقط في بئر الهزيمة والفشل. ولكن يبدو هذه المرة أكثر إصرارًا فلا مفرَّ من ذلك بعد الآن. فتنهد الإمام ثم قال:

ستعيش مطارَدًا يا ولدي من الآن إلى أن يشاء الله.. لن تنعم بالسكينة والهدوء مرة أخرى.. هل ستنضم إلى أخوية بلنسية؟

لا.. الآن أريد أن أجمع شتات نفسي في مكان آخر لا يطاردني فيه الماضي.. سأذهب إلى أخوالي في غرناطة.. لديهم مشاغل ومحالُّ للحرير. ومن هناك تكون نقطة انطلاقي..

إذن فقد حسمتَ أمرك بالانضمام إلى الأخوية في قرى جبال (البشرات).. إنهم أكبر عددًا وأكثر تنظيمًا منا.. ولديهم بعض الدعم من المغاربة.. حسنًا دعني أرتب لك الأمور.. ولكن اعلم أنك بهذا ستقطع صلتك بأختك وجدك وكل من تعرفهم هنا.
نظر (عُمَير) إلى الأرض في حزن ثم قال:
جدي على شفا الموت.. و(صبح) لا أمل فيها. تعجبها حياة التدجين ولا تهتم لشيء.. سأذهب أودعهم عند انشغال الناس بعرس (ميجيل) بعد أيام أو ربما بعده..
حسنًا دعني أرتب لك الأمور.. فالطريق إلى غرناطة طويل وصعب وخطر. ودوريات الجنود تبحث عن الموريسكيين الفارِّين أو المخالفين لقوانين السفر والتنقل بين الممالك.
هزَّ (عُمَير) رأسه في استسلام وهو يشاهد الإمام يذهب إلى غرفته الكهفية قبل أن يستوقفه مناديًا:
يا سيدي. شيء آخر أريده منك.. أريد أن أُختَن!
تجمد الإمام (ناصر) في وقفته وهو ينظر إلى (عُمَير) نظرة طويلة متفهِّمًا قراره قبل أن يناديه بإشارة من يديه ليدخلا الغرفة الداخلية فقام (عُمَير) في استسلام يجر أقدامه يتبع خطوات الإمام (ناصر).
اليوم يريد (عُمَير) أن يُعلنها صراحة للعالم أجمعه وحيث لا رجعة في قراره. اليوم نهاية (عُمَير) حفيد الشيخ (عبد الصمد) العامل الداجن المسكين المكسور الذي أُهين في رجولته وإنسانيته، ومولد (عُمَير) جديد.. (عُمَير) حر.. (عُمَير) الفارس.. (عُمَير) المسلم.. (عُمَير) المختون. وهنا فقط طرأ على ذهنه أن يغير اليوم اسمه إلى (عُمَير المختون) ليبقى اليوم علامة ميلاد جديدة له ولرجولته ولإنسانيته. اسم يليق بفارس أخوية مسلم. ثم دوَّى صوت صرخة ألم مكتومة لـ(عُمَير) من داخل الكهف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(حمدة) أيضًا أخذتها أنغام السمرة إلى ذكرى قديمة ظلت عالقة في ذهنها بالرغم من أنها كانت طفلة لم تزد سنون عمرها عن اليد الواحدة. كان ذلك على شاطئ قريب من (أوليبا) في ليلة سوداء حالكة. جرفتها أمواج البحر هي وأمها وآخرين إلى الشاطئ، وهناك في الأفق الأسود الحالك من بعيد تظهر بعض السفن المحترقة لا يكاد يظهر منها إلا أضواء اللهب وألسنة النيران وسحب الدخان المنعكس عليها وهج النيران من بعيد. وجدت (حمدة) نفسها بعد معاناة مع الأمواج والغرق ملقاة على الشاطئ يكتنفها الألم والبرد والرعشة بجوار أمها المستلقية على وجهها المغموس في الماء المالح ورمال الشاطئ دون حراك. كانت تبكي بين العديد من الجثث الملقاة متناثرة على الشاطئ لا حراك فيها. ظلت تصرخ من الألم في صدرها بعد تسلل بعض الماء المالح إلى رئتيها وجوفها وسرى البرد في كل جزء من جسدها. ظلت تصرخ منادية على أحد ينقذها لكن لا حي يسمع أو يجيب. اقتربت من أمها وأخذت تربِّت على رأسها لكن الأم مفارقة للحياة لا أنفاس لها ولا نبض بها.
ظلت (حمدة) الطفلة الصغيرة تبكي وتصرخ طوال الليل تستغيث حتى جاء الشيخ (عبد الصمد) ومعه بعض الرجال متسلِّلين تحت جنح الليل لينجدوا إخوانهم الموريسكيين على الشاطئ بعد أن فشلوا في الوصول إلى سفن الترك وتتبَّعتهم دوريات سفن الإسبان وأغرقوا قواربهم الصغيرة في واحدة من عشرات المحاولات التي تحدث على الشواطئ الشرقية والجنوبية. ظل كل واحد من المتسللين يبحث في الجثث الملقاة على الشاطئ عن ناجين لكن كان أغلبهم غرقى مختنقين جثثًا هامدة تحركها الأمواج كأوراق الأشجار الجافة بين متاعهم المبلل. أما الشيخ (عبد الصمد) فأصابته غُصَّة في قلبه وهو يسمع صراخ تلك الطفلة في الظلام من بعيد، فجرى يبحث عنها كالملهوف بين ظلام الليل الدامس

خوفًا من اقتراب دوريات حراسة الشاطئ القادمة بكل تأكيد بين لحظة وأخرى فيقبضون عليهم ويأخذون الطفلة اليتيمة إلى أديرة الكنيسة مع اليتامى والضالين. أخيرًا وقع بصره على الطفلة الصارخة فاقترب منها بسرعة وخلع عباءته يغطيها ليقيها من البرد فزاد صراخ الطفلة فصاح فيها برفق وبصوت هامس:
ششش.. اصمتي يا صغيرتي.. أنا هنا لأنقذك.. اصمتي يا عروس الماء.
ثم وجد الشيخ (عبد الصمد) الطفلة وهي تشير إلى أمها صارخة، ففهم أنها أمها فقلَّبها يمينًا ويسارًا وحاول أن يستمع إلى نبضات قلبها دون فائدة. فنظر إلى الطفلة في شفقة قائلًا:
عذرًا يا صغيرتي.. ماتت أمك كما ماتت عشرات الأمهات على هذا الشاطئ.. لم يعد لك بعدها إلا الله.. وأنا..
ودون تفكير انطلق الشيخ (عبد الصمد) بالطفلة بعيدًا عن الشاطئ، وقرر منذ هذه اللحظة أن يربي هذه الطفلة ويرعاها مع أحفاده (عُمَير) و(صبح).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما (الغريب) فجذبته أنغام السمرة لاستدعاء حياته السابقة في بيت الشيخ (عبد الصمد) منذ وَعَى عليها. ذاكرته بدأت فقط في بيت الشيخ (عبد الصمد) في ذلك اليوم الذي ضمه فيه إلى بيته مع (حمدة) و(عُمَير) و(صبح) عندما كان طفلًا صغيرًا. ما قبل ذلك ممسوح من ذاكرته كضوء أبيض باهر في عقله لا يميز فيه وجوهًا ولا أماكن ولا أصواتًا. كان يومًا صيفيًّا حارًّا حين استيقظ الحي ليتوجهوا إلى أعمالهم فإذا بهم يجدون طفلًا جميلًا غريبًا نائمًا على عتبة منزل الشيخ (عبد الصمد). كان الطفل ذا مظهر ملائكي بما تحمله الكلمة من معان. فمع كونه نائمًا على الأرض كانت ملابسه بيضاء ناصعة نظيفة ومهندمة بشكل واضح. وجهه نظيف وشعره أسود مشذب ناعم طويل يتهدل على جبينه الناصع البياض، وخداه المكتظان ناعمان نعومة الحرير. والأغرب من ذلك أنه كان نائمًا وعلى وجهه علامات الرضا والاطمئنان والأمان كما لو كان نائمًا على حجر أمه في بيت أبيه وسط إخوته. هكذا ظهر من العدم بدون مقدمات وبلا علامات. بل حاول بعض أهل الحي بعد ذلك من غرابة ذلك الطفل وغرابة ملابسات ظهوره أن يربطوا بين ظهوره وبين ظهور شهاب بارق لمع واضحًا في سماء نفس الليلة وأضاء ظلامها لبعض اللحظات فظلوا ينادونه بالطفل الشهاب (الغريب).
في ذلك الصباح استيقظ الشيخ (عبد الصمد) وعلى وجهه علامات الفرح والاطمئنان والرضا. لقد جاءه في الحلم رجل بَهِيُّ الوجه جميل الطلعة لا يستطيع الشيخ أن يصفه من فرط جماله وراحة مقابلته وكأنه كان في شوق شديد لمقابلته طوال عمره. شعر بفرحة غامرة وراحة في قلبه عندما أتاه في الحلم وأخرج من جيبه قبسًا من النور وأعطاه في راحته قبل أن يضمه إلى صدره بقوة رحيمة اختلجت لها أضلعه فشعر الشيخ بطاقة مهولة من الراحة والاطمئنان والأمان تشع في قلبه. لم يرد الشيخ لهذه الراحة أن تنتهي لكنه بالرغم من هذا الهدوء والاطمئنان مر بخاطره رهبة عابرة وظلال من الخوف من القدر الغامض الذي يحيط به دائمًا كما تعود في حياته في كل وقت وفي كل مكان من الجنود الإسبان أو مفتشي دواوين التفتيش، فابتسم الرجل ابتسامة ساحرة هادئة بعثت مزيدًا من الاطمئنان إلى الشيخ ثم مد راحته ولمس بكفه اليمنى المضيئة صدره فشعر الشيخ وكأن طاقة عظيمة تدفقت إلى قلبه جعلته يستيقظ مسرعًا من منامه وفي أذنه يتردد صدى صوت الرجل جميلًا وعميقًا يقول: «فسيكفيكهم الله».

في ذلك الصباح عندما فتح الشيخ (عبد الصمد) باب منزله متجهًا إلى عمله وهو في تلك الحالة من النشوة والرضا، فوجئ بالطفل نائمًا على عتبتها في هدوء. وبالرغم من منظره الملائكي الغريب. لم يحاول الشيخ أن يوقظه من غفوته ظانًّا أنه ربما ينتظر والديه هنا أو هناك فغلبه النعاس. ذهب الشيخ إلى عمله ثم رجع منزله فإذا بالطفل الجميل جالسًا في هدوء مستندًا على حائط المنزل كما لو كان تمثالًا من الرخام الأبيض. حاول الشيخ أن يكلمه فلم يرد عليه الطفل بل ظل يحدق فيه مبتسمًا في هدوء ووداعة جعلت قلب الشيخ يرق له، فقدم له بعض الطعام فأخذ الطفل يتناول الطعام في بساطة ووداعة ورُقِيٍّ لا ينبئ أبدًا بدنوِّ نشأته أو وضاعة تربيته بل على العكس كان يأكل كما الأمراء والملوك بالرغم من جوعه الشديد. تركه الشيخ يتناول الطعام ودخل منزله لعل والدَيْ الطفل يعودان فيصحبانه، لكن جاء الليل ولم يتغير شيء. ظل الطفل الغريب على وضعه جالسًا هادئًا مطمئنًا وجيء له ببعض الفاكهة من الجيران فأكل بعضها وترك بعضها. رقَّ الشيخ لحال الطفل إن ظل هكذا وحيدًا على قارعة الطريق في الليل، فاصطحبه لداخل المنزل لينام مع الأولاد. حاول أن يحادثه لكن الطفل لم يتحدث كلمة واحدة طوال اليوم. استقر الطفل حيث أجلسه الشيخ مع أطفاله الثلاثة ولم يتحرك. نظر إلى الأطفال يمينًا ويسارًا وابتسم لهم فجاءت (حمدة) الطفلة الصغيرة له بحبة رمان وجلست ملتصقة بجانبه وتأملت عينيه الصافيتين لثوانٍ قبل أن تضحك له ضحكة بريئة وديعة وتمد يدها له بحبة الرمان، فابتسم الطفل لها وأمسك حبة الرمان منها وانفلتت منه ضحكة بصوت مسموع. انتفض الشيخ (عبد الصمد) عند سماع صوت الطفل الجميل للمرة الأولى فقدم إليه ومال عليه سائلًا:
ما هو اسمك أيها الطفل الغريب؟!.. سأسميك مليك السماء (الغريب) فمثلك غريب على هذا العالم.
لوهلة تمنى الشيخ أن يبقى الطفل (الغريب) في بيته فتحققت الأمنية ولم يأتِ أحد يسأل عن (الغريب). لا أب ولا أم. (الغريب) نفسه مضت شهور طويلة قبل أن ينطق لسانه ببعض كلمات لا تسمن ولا تغني من جوع. فلم يدل أحد على أبويه أو بيته أو قريته. ولم يسأل عنهم أو يبكي لغيابهم أو يفتقدهم. كان كما لو أنه من عالم آخر حط على قرية (أوليبا) وكان من حظ الشيخ أن حط على عتبة داره فلقبه بمليك السماء مثلما لقب (حمدة) بعروس الماء. ومضت السنون وتربَّى (الغريب) في بيت الشيخ (عبد الصمد) لا يعرف دونه بيتًا ولا يعرف دون الشيخ من عائلة هو وأولاده الثلاثة.
في ليلة (الغريب) الأولى في بيت الشيخ (عبد الصمد)، جاء الشيخ بعد أن نام الأطفال ليدثرهم بالأغطية فلاحظ شيئًا ما يتدلى من عنق (الغريب)؛ خيطًا رفيعًا ملتفًا حول رقبته تتدلى منه قطعة قماش مخيطة وملفوفة على شكل مثلث في حجم عُقلتي إصبعين. أخرجها من عنق الطفل في رفق حتى لا يوقظه ثم أخذ يفحصها لعلها تحتوي اسمًا أو عنوانًا يستدل به على أهله. استخدم سكينًا حادًّا في فك عروات الخيط لفتحها فسالت منها رمال ناعمة ناصعة البياض وسقطت ورقة صغيرة ملفوفة. فرح الشيخ لوجود الورقة ممنيًا نفسه بمعلومة مفيدة عن الطفل ثم صُعق عندما أمسكها وفردها وقرأ ما بها: «فسيكفيكهم الله»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(صبح) أيضًا نبهتها السمرة وأيقظت حواسَّها وذكَّرتها بمأساتها وما آلت إليه وما صنعته بها. ذلك الماضي الذي قادها إلى ما أصبحت عليه الآن. حين كانت قد بلغها الحيض أول مرة منذ عدة أعوام. لم يكن لها أم تشرح لها أو أخت تفهمها أو خالة تنبهها. فقط جدٌّ عجوز وأخ متهور أرعن. فاجأها المحيض فجرًا وهي نائمة فانزعجت لذلك وقامت من نومها مضطربة متألمة لا تعلم ما تفعله. كان يومًا حارًّا بالرغم من لسعة برودة الليل فكانت ترتدي ثوبًا خفيفًا، فعزمت أن تذهب إلى جدول الماء

القريب لتنظف الدماء عن جسدها وملابسها. ذهبت إلى جدول الماء العذب في ليلة مظلمة بلا قمر وخلَت الطرق من المارة. نظرت وتأكدت أن أحدًا ليس في الجوار فنزلت بقدميها في جدول الماء وشرعت تغتسل بملابسها وتنظف فرجها وفخذيها وملبسها من بقع الدماء. قضت وقتًا طويلًا تفعل ذلك مع قلة خبرتها حتى ابتل جُلُّ ملبسها وبرزت أعضاؤها الأنثوية وقد تلاصقت الملابس الخفيفة المبللة عليها فجسَّدتها وجسَّمتها وشفت عنها. في الوقت الذي مر فيه حارسان إسبانيان مخموران من دورية حراسة المقاطعة، ومع خيوط الفجر وقع بصر الحارسين على (صبح) العذراء في جسدها البكر الأنثوي وأعضائها البارزة تحت ملابسها الملتصقة عليها. فحزما أمريهما وتأكدا بأنظارهما أن أحدًا لا يوجد في الجوار. وفي الوقت الذي لم تكن تنتبه فيه الفتاة انطلق الذئبان إليها وقد أعماهما الشبق والخمر وأمسكا بها ومزقا ثيابها وتناوبا الاعتداء عليها بعد أن قضيا على عذريتها في ثوان قاومت فيها المسكينة دون جدوى؛ حيث كان الحارسان يتبادلان الأدوار عليها فيكبلها أحدهما ويكمم فمها بينما يعتدي الآخر عليها ويرمى بجسده كثور هائج يرتمي على غزال صغير. كان افتراسًا سهلًا غير عادل على ضفاف جدول الماء الطيني.

وما إن قضيا وطريهما وسئما منها حتى انطلق الحارسان واختفيا عن العيون تاركين (صبح) في الطين ممزقة الثياب منهكة الجسد. لكن (صبح) بالرغم من ضعفها وإنهاكها كأي طفلة مرت للتوِّ بهذه التجربة، قامت في صلابة تُحسد عليها وعدلت من نفسها وثوبها ونظفت نفسها في ضعف وألم، ثم عادت إلى المنزل تحت جنح الظلام دون أن يشعر بها أحد واستطاعت أن تخلع عنها الثوب المقطع وتتخلص منه ثم أخفت ما استطاعت من آثار هذه الليلة. وبرغم العلامات التي ظهرت على وجهها ورقبتها في النهار التالي، إلا أن أحدًا لم يسأل أو يتخيل ما حدث في الوقت الذي كتمت فيه (صبح) من أمر هذه الواقعة فلم تخبر بها أحدًا. فلا أم لها ولا خالة ولا صديقة. حتى (حمدة) لم تستسغ (صبح) أن تكون لها صاحبة مقربة أو كاتمة أسرار. ولم تزد هذه الواقعة من وِحدة (صبح) فقط بل من استقلاليتها وعِندها ومبادراتها الجنونية. فهي لا ترجع إلى أحد ولا تسأل أو تستأذن أحدًا قط. فقط تفعل ما تُمليه نفسها عليها.

كانت تجربة مؤلمة لفتاة في عمر الزهور وفي أول سنين البلوغ وكأن برعمًا صغيرًا لم تكد زهرته تتفتح حتى دهستها أرجل الثيران وألصقتها بالطين. ولكن (صبح) لم تفكر فيه كذلك فقد هداها تفكيرها العميق ونفسها المتمردة الشاردة إلى شيء آخر. ربما كانت تجربتها الأولى مؤلمة لأنها قاومت أو لقلة خبرتها أو لرفضها. هي تعلم من أحاديث النسوة والفتيات البالغات أن الجماع مع سطوة الذكر واستسلام الأنثى ينبغي أن يكون مزيجًا من الألم والمتعة في نفس الوقت. والآن بعد أن التأمت جراحها وهدأت سريرتها استشعرت بتَوْق لتكرار التجربة ولكن برغبتها وبإرادتها وباختيارها. فقررت أن تخوض التجربة مرة أخرى في ظروف أفضل. لم يكن صعبًا عليها أن تجد من يشاركها التجربة من رجال الحي. وأُعجبت بالتجربة بعد أن قلَّت الآلام واستشعرت بعض الشبَق. ثم كررت التجربة مع أحد الحراس الإسبان فكان أداؤه أفضل وكانت متعتها أكثر والأفضل من ذلك أنه رمى إليها بقطعة مرافيدس تساوي أجر عمل يوم كامل لها فاستطاعت أن تشتري وشاحًا حريريًّا جديدًا. ولكن بعد فترة من التجارب صارت (صبح) تنتقي فريستها ولا تسلم جسدها بأثمان بخسة ولكل سلعة سعرها المناسب.

فصارت تستهدف حراس المشغل؛ لسهولة التواصل معهم ولأنهم يُجزِلون لها العطاء. فكانت ما إن تباشر عملها اليومي المعتاد حتى تقدم حججًا واهية للانقطاع عنه فتارة لقضائها الحاجة وتارة

لترتوي بالماء وما إلى ذلك من الأسباب المتكررة فتختفي لفترة ليست بقصيرة ثم تعود لعملها. هذا الصباح مثلًا اختفت كعادتها لوقت ليس بقليل قبل أن تعود إلى مقعدها أمام مشغل الحرير اليدوي الخشبي لكن كان فيها شيء مختلف عما كانت عليه منذ قليل. لقد كانت جبهتها مندَّاه بقطرات العرق كما لو كانت آتية بعد عمل جهد شاق. كما أن ملابسها تبدو أكثر تجعيدًا عما كانت في الصباح بشيء ملحوظ. كالعادة لاحظت نظرة زميلتها المتدنية إليها مليئة بالاحتقار والاشمئزاز قبل أن تلحظ الحارسين الإسبانيين عند مدخل المشغل وهما ينظران إليها ويتمايلان ويتضاحكان ويتهامسان.
لقد فرغت للتو من لهوها المتكرر النجس مع الحارسين فتُطفئ من شبقهم بلمسات من يديها، وتترك لهم القليل ليتحسَّسوه من جسدها؛ حيث تقودهم إلى حيث تريد فلا يأخذون منها إلا ما تعطيهم ثم يستحيلون إلى خرقة بالية في دقائق معدودة بينما تحصل هي على نقودهم. لقد اعتادت أن تسلم جسدها لحارس أو مشرف ما ليعبث فيها بيديه على لحمها وأعضائها دون أن تعريه أو تسلمه له لقمة سائغة. لقد احترفت هذا الأمر جيدًا وتدربت عليه مرارًا فتختار الزمان والمكان الذي لا يسمح بأكثر من ذلك، فلا تمضي لحظات يقضيها بين أحضانها وعلى لمسات يديها حتى يسيل ماؤه هنا أو هناك فيرمي لها قطعتين من المرافيدس ويعود إلى عمله مجهدًا متعرِّقًا. بينما يتركها هي تعدل من ملابسها قبل أن تعود إلى عملها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما (فرَّاج) فكان هو أيضًا بعيدًا عن جمهور الحفل يستمع ويشاهد السمرة بعيدًا عن أعين الجميع مع صديقه المقرب (خوليو). أتى (فرَّاج) ومعه صديقه الإسباني المقرب (خوليو) إلى مكان الاحتفال بعد أن بدأ بقليل ووقفا يتأملان الحفل وبيد كل منهما قارورةٌ من النبيذ يحتسيان منها بين حين وآخر. لم يكن (فرَّاج) يعبأ باحتفالات الموريسكيين أو مناسباتهم بل كان دائمًا يتجنبها لإبعاد الشبهات عنه. لكن هذه المرة أراد أن يأتي فقد ساقته أفكاره السوداء للحضور. وبينما أنغام السمرة تصدح في أجواء بيت (صفية)، أخذته ذاكرته إلى واقعة السوق الأخيرة منذ أيام حين تحدَّاه (بيدرو) ابن الدون (دييجو) أن يبلِّغ مفتش الكنيسة عن (عُمَير) أنه مختون مقابل ضمِّه إلى أخوية (بيدرو) المسيحية.
بعد تلك الواقعة وفض الناس عن السوق أخذ مفتش الديوان يجر (فرَّاج) من ياقة قميصه يبحث في عقله عن عقاب مناسب له للإبلاغ كذبًا والاستهزاء بمفتشي الكنيسة، فبدا (فرَّاج) كما لو كان دجاجة مساقة إلى الذبح وهو يحاول أن يجر قدميه تماشيًا مع خطوات المفتش الغاضبة. حاول (فرَّاج) أن يشرح أو يستعطف المفتش، غير أن المفتش لم يُعِرْه أيَّ انتباه وأكمل مسيرته في صرامة وجمود و(فرَّاج) معلقًا في يده كالذبيح. حتى ما إن وصلا بعيدًا عن الزحام بناصية زقاق جانبي مرَّا بجوار جمْع من الفتية الإسبان نصف متكئين على مصطبتين في ناصية الزقاق كما لو كانا قد فرغا للتو من مشاهدة مسرحية هزلية أو لعبة صبيانية. ما إن لمحهم (فرَّاج) حتى أشاح بيديه لهم يستنجد بهم صائحًا (بيدرو).. (بيدرو)..
استوقفت الصيحة المفتش ورمى بنظره ناحية الفتيان المتسامرين فوجد (بيدرو) ابن الدون (دييجو) يتوسطهم وهو يرمق المفتش و(فرَّاج) بنظرة ناعسة لاهية وقد وضع جزءًا رفيعًا من فرع شجرة بين شفتيه يقلبه بلسانه من وقت لآخر في لا مبالاة. كان شابًّا يافعًا طويل القوام ذا شعر أشقر ناعم متوسط الطول وعين خضراء ضيقة مخيفة وسط غابة من النَّمَش على جانبي وجنتيه. همس المفتش لـ(فرَّاج) دون أن ينظر إليه:
هل تعرف (بيدرو) ابن الدون (دييجو)؟

وكأن المفتش قد ألقى بطوق النجاة إلى (فرَّاج) الذي صاح سريعًا:
نعم.. نعم.. كل شيء تم بعلمه.
قطَّب المفتش حاجبيه الكَثَّين ثم نظر إلى (بيدرو) والفتيان من حوله قبل أن يحزم أمره على مضض ويجر (فرَّاج) في اتجاههم ليتوقف أمامهم مباشرة ثم يقول مستفسرًا:
هل تعلم هذا الصبي يا سيد (بيدرو)؟
صاح (فرَّاج):
نعم.. نعم. أنا معهم..
فنكزه المفتش على مؤخرة رأسه حتى يصمت فلا حاجة لكلامه هو، وظل معلِّقًا بصره إلى (بيدرو) الذي ظل سارحًا في وجه (فرَّاج) متجاهلًا سؤال المفتش للحظات بل متجاهلًا المفتش نفسه ثم اعتدل من جلسته في هدوء غريب وتقدم بخطوات بطيئة حتى وقف أمام (فرَّاج) فبدا كأنه عملاق بجانب (فرَّاج) القصير، ثم انحنى يصطنع تفحص وجه (فرَّاج) متفرسًا ثم قال في خبث وهو يتلمس وجه وشعر (فرَّاج):
دعني أرى.. ذلك الوجه.. ذلك الشعر الأشقر.. تلك العين الخضراء..
ابتلع (فرَّاج) لعابه في خوف من ألعوبة (بيدرو) معه خوفًا أن تنقلب عليه، هذه ليست ألعوبة بل حياته على المحك في أيدي هذا الفتى اللاهي. ثم اقترب (بيدرو) من أذن (فرَّاج) وقال:
ذكِّرني باسمك مرة أخرى يا فتى؟
رد (فرَّاج) مسرعًا:
هيا يا (بيدرو).. هذا ليس وقتًا للمزاح.. أنا (فابريسيو)..
مط (بيدرو) شفتيه بطريقة مسرحية مصطنعة ورفع كتفيه قائلًا:
(فابريسيو).. (فابريسيو)!! أنا لا أعلم عن أي (فابريسيو) تتحدث.. أي (فابريسيو) تقصد يا فتى؟
ابتلع (فرَّاج) لعابه مرة أخرى وقد فهم مقصد (بيدرو) وقال في مزيج من الخجل واللامبالاة:
أنا (فابريسيو) ابن.. ابن الززانية..
ابتسم (بيدرو) راضيًا واعتدل في وقفته في ارتياح ثم قال موجهًا كلامه إلى المفتش:
نعم أيها الموقر، أعرف (فابريسيو) ابن الزانية.. إنه معنا.. اتركه.
أراد المفتش أن يعترض قائلًا:
ولكن الكنيسة ومفتشي الكنيسة ليست لعبة يلهو بها الغلمان يا سيد (بيدرو).. أرجو..
أخرستْه قطعتان مرافيدس أخرجهما (بيدرو) من جيبه ووضعهما في يده قبل أن يُربِّت على كتفه قائلًا:
نعلم أيها الموقر.. نعدك ألَّا يكرر هذا الغلام هذه الفعلة الشنعاء مرة أخرى.. شكرًا لك.. وأرسل تحيات والدي للأب (خيمينيث).
نظر المفتش إلى القطعتين النقديتين في يديه قبل أن يترك ياقة قميص (فرَّاج) ليسقط على الأرض ويرحل دون أن يعقب مغمغمًا بكلمات حانقة غير مفهومة.
تنفس (فرَّاج) الصُّعَداء وهو يشاهد المفتش وهو يرحل وظل متطلعًا ناحيته حتى يتأكد من رحيله تمامًا قبل أن يشيح بيديه إلى (بيدرو) صائحًا:
ماذا تراك كنت تفعل يا (بيدرو).. لقد كان هذا وشيكًا يا صاح..
لم يلتفت إليه (بيدرو) قائلًا:

دعك من هذا يا ابن الزانية.. المهم أننا لقنّا هذا الكافر (أوريليانو) درسًا لن ينساه طوال حياته ولن يستطيع أن يرفع رأسه أمامنا مرة أخرى.
فقال (فرَّاج) متملقًا:
طبعًا طبعًا.. لكن (كريستوفال) أُخِذ ظلمًا في..
قاطعه (بيدرو) بصوت أجش ممسكًا ياقة قميصه في قسوة:
ماذا؟ لا تأخذك بهم رأفة يا (فابريسيو).. وإن كان أخوك من أمك.. هو كافر الدم من أبويه.. ولولا أن أمك زنت مع أحد الإسبان وأنجبتك أنت وبداخلك دم إسباني لكنت كافرًا مثلهم وما كنا لندخلك معنا في أخويتنا أبدًا.. هل تفهم؟
انكمش (فرَّاج) في وقفته أمام عيني (بيدرو) الغاضبتين وقال في صمت:
نعم يا (بيدرو).. أنا أفهم ذلك جيدًا..
لكن (بيدرو) أطال النظر بعمق في عيني (فرَّاج) وأمسك كتفيه قائلًا بصوت عميق وكأنه آتٍ من أتون الجحيم:
أنت ابن زانية موريسكية ولكنك ابن رجل إسباني.. عليك أن تفخر بذلك.. وهذا أشرف ألف مرة من أن تكون موريسكي المولد كافر الدين. يا (فابريسيو).. لو قطرة دم مسيحية واحدة في عروقك كافية أن تدخلك الجنة.. لو لديك شك في هذا فارحل الآن إلى الأبد غير مأسوف عليك.
تضاءل (فرَّاج) أكثر وأكثر وارتعد صوته عندما خطرت على باله فكرة إبعاده عن الأخوية وهو يقول:
ولكن أمي مسيحية أيضًا يا (بيدرو)..
لا. هي ككل الموريسكيين يدَّعون المسيحية ويبطنون الكفر.. كاذبون مخادعون.. وينتظرون يومًا ينقضُّون فيه علينا ويحلمون باستعادة بلادنا ونشر الكفر فيها مرة أخرى.
حسنًا حسنًا.. اهدأ يا زعيم.. عمومًا لقد فعلتُ ما طلبتَه مني. فهل أنت راضٍ عني الآن؟ هل أصبحت مكتمل العضوية في الأخوية الآن؟
قام أحد الفتية بتخليص (فرَّاج) من يدي (بيدرو) وتهدئته فقال بدوره:
ليس بعد. لتنضم لأخويتنا وتصبح أخَ دم منا وتستحق رعايتنا وحمايتنا لابد أن تمر بعدة اختبارات.. هذا مجرد اختبار تمهيدي بسيط.. الأصعب قادم وهو الأهم. اذهب الآن ونراك في المساء عند الساقية.
تفرق فتيان الأخوية ورحلوا في ثنائيات. ظل (بيدرو) مع صديقه المقرب (رامون) بعد أن تفرق الأصحاب فسأل (بيدرو) إن كان فعلًا ينوي أن يضمه للأخوية. فابتسم (بيدرو) ابتسامة خبيثة قائلًا:
مستحيل أن أضمه إلى أخويتنا يا (رامون) طالما تسري في عروقه قطرة دماء كافرة واحدة.. لكنه ألعوبة رائعة نستطيع أن نتحكم بها أو نضحك عليها أو نستخدمها ونحقق بها مآربنا.. ثم حين تحترق نركلها بعيدًا عنا لتحترق بعيدًا دون أن تؤذينا.
ضحك الاثنان من المخطط الشيطاني وهما في طريقهما راحلين. أما (فرَّاج) فمضى إلى بيته وحيدًا وهو يقلِّب الحوار الأخير مع (بيدرو) في رأسه ويندب حظه أنه لم يولد مسيحيًّا نقيَّ الدم من أب وأم إسبانيين. لم يكن (فرَّاج) يحب العمل في مشاغل الحرير والكتان مثل بقية أبناء الموريسكيين بل يظل يتسكع طوال النهار مع رفاقه من أبناء الإسبان ثم يعود آخر اليوم إلى المنزل؛ حيث أخوه وأمه فلا يكاد يتكلم معهما أو يراهما أو يحاورهما إلا فيما ندر.

ها هو وصل إلى منزله ودخل إلى غرفته متمنيًا ألا يرى أخاه (طاهر) لا خوفًا منه ولكن حتى لا يشعر بالشفقة عليه. وما إن دخل الغرفة حتى دخلت أمه عليه مسرعة بوجه غاضب تسأله عما سمعَتْه مما حدث في السوق. تجاهل (فرَّاج) سؤال أمه ورمى برأسه على مخدعه سادًّا أذنيه بكلتا يديه، لكن أمه لم تكفَّ عن الصياح وهي تكرر عليه كم أن (طاهر) طيب رقيق القلب ولا يستحق ما حدث. إضافة إلى أن (عُمَير) العنيف الغاضب لن يترك هذا الموقف يمر دون عقاب وسيتحرش بـ(فرَّاج) يومًا ما.. و..و..

لم يتحمل (فرَّاج) صراخ أمه فيه وصرخ فيها معتدلًا في جلسته بحدة مواجهًا لها في تحدٍّ وكلمات (بيدرو) لا يزال صداها يتردد في أذنيه:

أسكتي يا كافرة.. أنا لا أهتم لـ(أوريليانو) ولا (كريستوفال) ولا حتى إليك.. كلكم كفرة مخادعون..

خرست الأم مصدومة لما سمعت واضعة يدها على فمها في ذهول قائلة:

ماذا تقول؟!

أقول إنكِ سبب شقائي في هذه الدنيا.. أقول إنك وبرميل الشحم (كريستوفال) تقفان عائقًا أمام سعادتي ونجاحي.. أقول إن كل هذا الحي بغلمانه وشيوخه لا يستحقون الحياة ومصيركم النار أحياء وأمواتًا. أقول إن أفضل ما فعلتِه في حياتك كلها أنك زنيتِ مع إسباني وأنجبتماني ولولا ذلك لكان أمرك منتهيًا منذ زمن.

صفعته أمه على وجهه وهي تصرخ فيه:

هل لا زلت تكرر هذا الهراء يا لعين.. إنهم أبناء الملاعين الذين يلقِّنونك هذه الخرافات.. أنا شريفة وأنت و(طاهر) ابناي وابنا زوجي الذي لم أخنه يومًا حيًّا أو ميتًا.

انتفض (فرَّاج) من جلسته متحديًا أمه في صرامة وصاح وهو يشير إلى عينه الخضراء:

إذن ما هذه؟ من أين جاءت؟ وهذا الشعر الأشقر ممن؟ لا.. أنا إسباني كاثوليكي ابن زانية موريسكية.. لن أكون (فرَّاج) أبدًا.. أنا (فابريسيو) ابن الزانية.. أنا ابن الزانية.

ثم خلع الرقعة السوداء من على عينيه البنية وقال وهو يضغط بأطراف أصابعه عليها:

وإن كانت هذه سبب شقائي فيمكنني أن أفقأها..

وقال وهو يشير إليها:

حتى أنت لو أصبحت سر شقائي فيمكنني أن أقتلك.. وأقتل (كريستوفال).. وأحرق الحي بأكمله وبمن فيه..

ثم جرى مسرعًا وخرج من المنزل تاركًا أمه غارقة في بحر من الدموع متمنية لو أنها ماتت قبل أن تسمع ذلك الكلام. أما هو فخرج من البيت ساخطًا مغمغمًا باللعنات والسباب هنا أو هناك دون أن ينسى أن يضع الرقعة السوداء على عينه البنية مرة ثانية. نعم كان يتمنى لو ولد بعينه الخضراء فقط. عينه الخضراء الوحيدة فقط كانت كفيلة بمستقبل أفضل له. كان يتمنى حتى لو ولد يتيمًا واحتضنته الكنيسة مع الأيتام هناك في الدير فربما يكبر فيها كقس أو كاهن مسبوغ عليه بهدايا الملوك والأمراء، أو ربما يصبح من مفتشي الديوان المقدس المرتشين المتنعِّمين في إتاوات الموريسكيين أو رشوات النبلاء، وأقل شيء ممكن أن يحدث له أن يصير من جنود الكنيسة الأقوياء أصحاب السطوات والأوامر الناهية والطاعة المطلقة. حظه العاثر فقط هو الذي أوقعه في هذه العائلة البائسة وهذا الحي التعِس. لا زال يتذكر طفولته عندما كانت تأخذه أمه وأخاه إلى قدَّاس يوم الأحد. كم كان سعيدًا مبهورًا

وهو يدخل هذا المبنى العملاق بعمدانه الرخامية الشاهقة ورؤوسه المدببة ذات الصلبان الذهبية الضخمة متأملًا لوحات القديسين وتماثيل العذراء!!.
كان يشعر بالرعدة تسري في قلبه كلما دخل إلى الكنيسة واستشعر بتلك الرائحة العطرة في أرجائها والدفء في جنباتها وبين أنوار شموعها. كان يحسد (بيدرو) وأشقاء الأخوية وهم يجلسون في الصفوف الأمامية أو يقفون بين الكهنة والقساوسة يرتلون ويترنمون بأصوات رائعة شجية وهم يلبسون أفضل وأزهى الملابس بينما هو وأمه وبقية الموريسكيين من الحي يقفون في الصفوف الأخيرة بعيدين عن البركة والدفء وربما تحت زخات المطر بين روائح العرق تحت آباطهم وروائح الثوم والبصل العالقة بثيابهم. كان يرى نفسه بين أشقاء الأخوية بملابس زاهية خلف الأب (خيمينيث) يرتل ويرنِّم وينال ثناء الكهنة والقساوسة. حتى في التناول، كان البابا (خيمينيث) بنفسه يلقِّم القربان المقدس في فم الإسبان وأبنائهم بابتسامة وهدوء وبركة مربِّتًا على أكتافهم وماسحًا على شعور صبيانهم، وما إن ينتهي من الإسبان يرحل ويترك القس (ميجيل) القميء الغاضب يكمل التناول في فم الموريسكيين بوجهه الغاضب النحيل وحاجبيه الكَثَّين وكأنه يدس السم في فيهم- وكان يفعل لو يستطيع- على عجل منه حتى ينتهي من هذه المهمة المقززة. حتى مع أبناء الموريسكيين الرضع عند التعميد يكاد القس (ميجيل) أن يُغرق الرضيع بل يصفعه على وجهه بقوة لو بكى أو صرخ. لا يرى (فرَّاج) نفسه وسط هؤلاء الموريسكيين البؤساء وشيئًا فشيئًا أصبح موقنًا بل مؤمنًا أنه في وضع مؤقت حدث خطأ وسيأتي اليوم الذي يُصحح فيه.
حاول مرات ومرات أن ينضم للغلمان الإسبان (بيدرو) وشلته في ألعابهم وسمرهم، نهروه مرات ومرات عديدة وسبُّوه بأقذع الألفاظ، ولكن أمام إصراره ومحاولاته الدؤوبة لإرضائهم وإذلاله الدائم لنفسه تبناه (بيدرو) ابن الدون (دييجو) صاحب الإقطاعية ليكون خادمًا له ولهم أكثر من أن يكون صاحبًا، بل لعبة يلهون بها ثم يرمونها فترجع إليهم مرة أخرى. وتمر السنون ويصبح (فرَّاج- فابريسيو) عضوًا دائمًا في شلة الغلمان الإسبان في الإقطاعية، ورغم محاولات أمه وأخيه (طاهر) أن يدمجوه مع أبناء الموريسكيين ليحضر معهم الدروس السرية أو يلعب معهم بأدواتهم البدائية وألعابهم البسيطة المتاحة لديهم، إلا أن (فرَّاج) لم يَمِلْ يومًا لغلمان مثل (عُمَير) الغاضب دائمًا أو (الغريب) العاشق دائمًا أو حتى أخيه (طاهر) السمين ليستبدلهم بشلة الغلمان الإسبان الذين يلعبون بالجياد والسيوف الحقيقية وأحيانًا ببنادق البارود.
وبينما كان يتذكر طفولته التعسة إذا بصفعة مفاجأة قوية على مؤخرة رقبته رمت به على الأرض في عنف مع صوت أجش يصيح فيه:
ماذا فعلت بأمك يا لعين؟.
اعتدل (فرَّاج) وهو يستشعر قفاه من شدة اللطمة وتأمل وجه الضارب بين غبار التراب المتصاعد، فإذا بخاله (جميل) بملبس الفِلاحة المتسخ وجسده الضخم يقف متحفزًا والشرر يتطاير من عينيه، ثم صاح مرة أخرى وهو يركل (فرَّاج) في إليته وفي خاصرته:
ماذا فعلت بأمك أيها العاقُّ لتنهار باكية هكذا؟ وماذا فعلت بأخيك (كريستوفال) الطيب يا لعين؟ أنت لعنة على الجميع.. وعار علينا جميعًا.. أمك التي ربَّتكما سويًّا وحدها بعد موت أبيك تنال منك كل هذا أيها النذل! ما كل هذا الشر يا فتى؟! من أين رضعت كل هذا الكره؟.. أنت ميت الروح.. أنت مسخ.. أنت مسخ!

ظل (جميل) يكررها وهو يَكيل السِّباب إلى (فرَّاج) الذي ظل يتَقي ضرباته وركلاته هنا أو هناك قبل أن يقوم ويجري بعيدًا عنه وعن ضرباته ولعناته ليختفي من أمامه كالفأر المذعور. كان يعلم أن خاله لن يتوقف عن ضربه فهو لا يستمع إلى توسلاته أو توضيحاته. كان دائمًا السوطَ الذي تسلطه أمه عليه حين تعجز عن معاقبته. حتى وإن لم تطلب لم يكن (جميل) غائبًا عن بيتهم لا يدري ما يدور به بل كان دائم الحضور بحكم خلو المنزل من عائل أو رجل يحميه، وهكذا كان يصب دائمًا بجام غضبه على (فرَّاج) ويضربه ويعاقبه على تصرفاته وأفكاره وكلامه.
اللعنة عليك يا جميل.. أقسم بالرب أن أنتقم منك ومن كل ضربة ضربتها لي.. وسنعلم مَن المسخ حينها..
ثم رحل نافثًا عن حمم الغضب بداخله يلوك الأحداث التي تدور حوله ويتأمل فيها باحثًا عن مخرج لمأزق حياته المتأزم كما لو كان ذا عاهة مستديمة تجعله مسخًا في عيون الجميع، فلا الإسبان يقبلونه بالرغم من دأبه في محاولاته لإرضائهم، ولا هو يقبل الموريسكيين وحياتهم بالرغم من محاولاتهم دمجه واستقطابه. هو مسخ في عيون الجميع.. عار على الجميع.. كان لابد له أن يغير من حياته هذه إلى الأبد. لا يستطيع أن يعيش حياته هكذا مسخًا في عيون الموريسكيين وقُمامة في عيون الإسبان. لابد أن يصير سيدًا لدى الفئة الغالبة. لابد للإسبان أن يقدروه ويحترموه ويسعوا لإرضائه كما يفعلون مع (بيدرو) ومن مثله من أبناء الأمراء والنبلاء.
أما الموريسكيون فلا مكان لهم في حياته ولابد ألا يكون لهم مكان فيها. تلك الفئة المستضعفة المستذلة مصيرها للزوال والنهاية ولن يجدي أن يعيش فيهم سيدًا أو عبدًا، هم يجيدون دور الضحية وعليهم الاستسلام لذلك وعليهم ألا يؤدوا غير هذا الدور في حياته أيضًا، أما هو فلا يريد أن يعيش بينهم ولكن ربما يستخدمهم ليصل إلى مأربه. لن يقدِّره الإسبان بأمرائهم ونبلائهم وقساوستهم وعسكرهم إلا بعدائه لهؤلاء الشرذمة من حثالة البشر. بشكل أو بآخر عليه أن يفعل ذلك ويستغلهم ولن يكون هذا صعبًا حتى لو اضطر لقتل كل موريسكيي (أوليبا) كلهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تدغدغ موسيقى السمرة مشاعر أهل الحفل من الموريسكيين فقط، كان الدون (دييجو) عابرًا في هذا المساء متفقدًا حدود إقطاعيته الكبيرة مع أحد مساعديه على جواديهما بالقرب من التل الذي يقع بيت (صفية) في سفحه حين تنامَى إلى مسامعه صدى صوت أغنية السمرة الأخيرة يتردد في الأجواء عبر التلال والسماء الصافية. أخذته الموسيقى الحالمة والصوت الشجي إلى ذكرياته الجميلة مع زوجته الراحلة (زيدية) أثناء رقصة السمرة في القصر خلال زفاف أحد عاملي القصر.
في هذه اللحظات استرجع تلك الذكرى التي تحطم روحَه البائسة وتقلق كيانه منذ عقد ونصف عقد من الزمن. كان الدون وصديقه المقرب (بينيديكتو) يعملان في الماضي في حقول ومشاغل أحد الموريسكيين الأثرياء القلائل الباقين في (أوليبا) (أفوجادرو الوزيري) الذي كان ثريًّا جدًّا وقويًّا جدًّا حتى إنه لم تفلح ضده محاولات الغرامات الملكية أو الرشاوي الكنسية. فقد حافظ السيد (أفوجادرو) على توازن علاقاته بالتاج والكنيسة والموريسكيين على حد سواء دون أن يخلَّ بمتطلبات أي منهم وهذا ما زاد من حنق وحسد النبلاء الآخرين ضده. كان (بينيديكتو) و(دييجو) عاملين في حقوله ومشاغله وتوطدت صداقتهما.
دون أي مقدمات وقع (دييجو) في حب (زيدية) ابنة السيد (أفوجادرو). وأحبته (زيديه) حبًّا شديدًا مجنونة بوسامته مهووسة بطلاوة حديثه. عايش (عبد الصمد) تفاصيل هذا الحب ويكاد يشهد أنه كان

غرامًا أسطوريًّا بين قلبين من عالمين مختلفين متضادين. لكن الحب- كعادته- يصنع المعجزات ويتخطى كل الحواجز والسدود. حاول السيد (أفوجادرو) منع هذا الحب فلم يستطع فقد كانت ابنته مغرمة بذلك الشاب الإسباني الوسيم (دييجو) برغم كونه مجرد أحد عمَّال أبيها. وافق الأب على زواجهما على مضض. وترقى (دييجو) بالتبعية من عامل بسيط حتى أصبح الساعد الأيمن للسيد الثري.

كاد (دييجو) أن يكون ابنًا صالحًا للسيد (أفوجادرو) وصهرًا نبيلًا، لكن تتدخل الأطماع والمصالح والعنصرية لتعوق ذلك. فالسيد (الوزيري) كان محطَّ أنظار وحسد وكره من جميع الإسبان، فاتحد أعداؤه من الكنيسة ومن التاج ومن النبلاء الإسبان المنافسين له ودبروا له مكيدة للتخلص منه إلى الأبد. لكن هذه المكيدة لم تكن لتتم دون وجود أهم عنصر فيها وهو شخص من داخل بيت (الوزيري) يعلم بخصوصياته وأسراره، وهكذا أغرى أعداء (الوزيري) الشاب الطموح (دييجو) أن يتحد معهم وينفذ المكيدة من الداخل ليقبض عليه ثم يصادروا أمواله ويرحِّلونه عن المملكة على وعد منهم بعدم قتله وإعادة أمواله إلى (دييجو) و(زيدية). وفي لحظة ضعف ما تغلبت العنصرية والطموح والطمع لدى (دييجو) على حبه لـ(زيدية) وحفظه لجميل السيد (الوزيري) فوافق على الاشتراك في المكيدة وقد وجد نفسه على أعتاب أن تؤول كل هذه الثروة إليه وحده لينضم إلى نادي النبلاء الأثرياء وهو في هذه السن الصغيرة. نفذ الخطة كما اتفق عليه وفعلًا تم القبض على السيد (الوزيري) والزَّجُّ به في دواوين التفتيش. لكن أعداءه لم يَفُوا بوعودهم ليُقتل (الوزيري) في ديوان التفتيش في الحال خوفًا من أن تنقذه علاقاته وأملاكه وأمواله.

حزنت (زيدية) حزنًا شديدًا على أبيها لكنها في النهاية استسلمت للأمر، وحيث كانت تجهل دور زوجها بما ألمَّ بوالدها، استمرت الحياة بضعة أعوام أصبح فيها (دييجو) أحد الأثرياء الشباب في (أوليبا) وأنجبت له (بيدرو) لكن أثناء حملها بطفلها الثاني (ماديلينا) أفضى أحد الناقمين على (دييجو) من رفقاء الأمس الحاسدين وشركاء المكيدة الغيورين بالسر لـ(زيدية). لم تستطع (زيدية) تصديق الخبر فواجهت (دييجو) فتهرب حينًا لكنه اعترف في النهاية طالبًا منها الغفران. لم تستطع (زيدية) أن تغفر لزوجها تلك الخطيئة الشنيعة. وبينما كانت في شهور حملها الأخيرة امتنعت عن الطعام والكلام. أرادت أن تقتل نفسها وتقتل ما في أحشائها.

توسل إليها (دييجو) أن تسامحه وألَّا تسقط فريسة للحزن بحق حبهما لكن (زيدية) فقدت كل معاني الحب مع (دييجو) وفقدت معها ثقتها وأملها فيه. وجاء مخاضها فماتت على الفور بعد أن وضعت (ماديلينا). ماتت حانقة على (دييجو) فلم تمنحه غفران الحبيب أو وداع الزوج. ماتت تاركة (دييجو) مكسورًا مهزومًا وقد فقد حبيبته الأبدية وفقد احترامه لنفسه ولإنسانيته. وفي غمرة يأسه وحزنه لم يجد ما يفتدي به إثمه ويعوض به خطيئته ويكفر به عن ذنبه إلا تلك الطفلة الوليدة (ماديلينا)، فأقسم على جسد زوجته المتوفاة ألَّا يُدنس أحدٌ تلك الروح الطاهرة (ماديلينا) بالكراهية والعنصرية والشرور كما تَدَنَّس هو. أقسم أن يبتعد بابنته بعيدًا عن كل شرور هذا العالم وأطماعه التي لوثته هو. وقرر أيضًا أن يمنع أي ظلم يقع على الموريسكيين بقدر ما أمكنته قوته وأمواله فداءً لروح زوجته.

وبينما ورثت (ماديلينا) طهارة ورحمة (زيدية)، ورث (بيدرو) كل شرور وأطماع (دييجو) فصار شيطانًا عنصريًّا بغيضًا كما كان (دييجو) يومَ وضع يده في يد أعداء (الوزيري). صار (بيدرو) شيطانًا عنصريًّا كارهًا للموريسكيين دون أن يعرف أنهم قومُ أمه ودماؤهم تسري في أوردته. ولكي يعاقب القدر (دييجو)، ولدت (ماديلينا) المسكينة بقلب ضعيف مريض وكأنها حقًّا روح رقيقة لا

يتحمل قلبها مشقة ذلك العالم. حاول علاجها وأتى بكل أطباء المملكة من مسيحيين ويهود وموريسكيين ولكنهم جميعًا أجمعوا على عدم وجود علاج لحالتها ويجب أن تبتعد عن كل المجهِدات طوال حياتها مهما امتدت، وهكذا صار (دييجو) الحارس الأمين على حياة وروح وقلب (ماديلينا) الصغيرة. فكان يبعدها عن كل ما يشق على قلبها ويجهده من حركة أو مشاعر فكانت إن يجهدها أمر ما جسديًّا كان أو نفسيًّا، تفقد وعيها ويضعف نبضها بنَفس متحشرج ويزرقُّ وجهها كما لو كانت تموت. فصار الدون كما لو أنه يحمل بين يديه قلبًا زجاجيًّا هشًّا يحول بينه وبين قذائف الحياة الآتية من كل اتجاه.

كبرت (ماديلينا) وصارت جميلة جمال الأميرات، رقيقة رقة الفراشات، هادئة هدوء الشفق الأحمر، ملائكية كنور الفجر. عوضها الدون بحنانه فقدانها أمها فصارت (ماديلينا) حبيبة أبيها وقرة عينيه، وبالرغم من وجود ابنه الأكبر (بيدرو) الأهوج العنيف، إلا أن الدون (دييجو) وضع كل محبته وحنانه تحت إمرة ابنته (ماديلينا) وحدها. هي روحه التي لا يطيق بعادها لبعض الوقت. يعود منزله بعد عناء اليوم الطويل فتأتيه من بعيد وتتعلق برقبته كالطفلة رغم بلوغها كأنثى ناضجة فتذهب عنه الآلام ويحتضنها ويقبلها كما لو كانت لا تزال طفلة صغيرة.

منذ ولادتها قرر الدون (دييجو) أن يبعد فتاته عن شرور هذا العالم وأحقاده في ذلك الزمن المتشح بالحقد والكراهية والعنصرية ويحميها من كل ما يعكر روحها الطاهرة وسلامها الداخلي ونقاء سريرتها فصنع لها عالمًا خاصًّا خالصًا لها وبها، فأبقاها في قصره الفسيح بعيدًا عن (أوليبا) كلها ووفر لها كل سبل الراحة والأمان حتى لا تحتاج شيئًا من هذا العالم الموحش. كان يخاف عليها من هواء (أوليبا) المليء بالكراهية، كان يحميها من أفكار العنصرية وتراتيل البغض والأحقاد فيغرس فيها الحب والرحمة والإنسانية. حتى الكنيسة لم يعبأ بإرسالها إليها بل اختار بعناية أحد القساوسة المعتدلين من الكنيسة وأوكل إليه الرعاية الدينية لابنته دون أن تتحرك من قصرها. وفر لها الخادمات والوصيفات فكانت أقربهن إلى قلبها (زائدة) السيدة الموريسكية التي عوضتها عن حنان الأم فصارت لها أمًّا رؤومًا لا تفارقها.

منذ أن وعت (ماديلينا) على الحياة، أصبح كل الناس بالنسبة إليها أباها الطيب و(زائدة) الخادمة الحبيبة مع بعض خدم القصر، وأصبحت كل الأماكن عندها هو ذلك القصر الكبير القابع في شرق (أوليبا) بين قصور النبلاء. كان القصر مبنيًّا على مساحة كبيرة جدًّا من الأرض كلها مزروعة بمختلف الأشجار والثمار حتى صار جنة خضراء يمر فيها جدول الماء بحظيرة الخيول الكبيرة التي تحب أن تأخذ فرسها الأبيض كل صباح تعدو به بين جنبات القصر وحقوله الفسيحة. بجوار حظيرة الخيول كانت تقبع بيوت أسر العاملين بالقصر التي لا تذهب (ماديلينا) كثيرًا ناحيتها فـ(زائدة) تعيش في غرفة ملحقة بغرفتها حتى لا تفارقها فصارت (ماديلينا) لا تحتاج أي شيء؛ حيث كل شيء تحت أمرها وفي متناول يديها من مأكل أو مشرب أو مَلهى.

حتى أخوها (بيدرو) لا يعبأ بها ولا يلتقي بها إلا فيما ندر فهو كثير اللهو واللعب والتنقل بين جنبات (أوليبا) وبلنسية والسمر والعبث مع أصدقائه هنا أو هناك بعيدًا عن القصر وملحقاته. (ماديلينا) نفسها لا تستشعر أي حنان أو أخوة مع أخيها (بيدرو) وهما على النقيض من بعضهما البعض. فلا يتصور أحد أن تكون (ماديلينا) الجميلة هادئة الطباع مُحبة الناس على مختلف أصولهم الرحيمة معهم واللطيفة في معاملاتهم، هي أخت ذلك الشيطان (بيدرو) الولد اللعوب شعلة النار التي يتجنبها الكبير

والصغير في (أوليبا) وأصدقاؤه الملاعين الذين يروِّعون البلدة بأفعالهم الحمقاء وكرههم للموريسكيين وتحرشهم الدائم بهم.
كبرت (ماديلينا) وكثرت أسئلتها ولم يعد من السهل إخفاء الأمور عنها أو إلهاؤها، فصارت تلقي بسيل من الأسئلة على أبيها وعلى (زائدة) والقس وترهقهم في الجدال والمناورة. كبر الفضول لديها مثلما نضج جسدها ونما عقلها، فصارت تسأل أباها الخروج من القصر ومقابلة الناس والاحتكاك بهم. رفض أبوها في بداية الأمر رفضًا تامًّا حتى أدرك عبثية رفضه وأن ابنته شاء أم أبى لابد لها أن تحتك بالناس وتخالطهم فتنمو لديها الشخصية الاجتماعية التي ستساعدها أن تجابه الحياة بالرغم من قسوتها كشخص طبيعي، لكن لم يكن من السهل عليه أن يترك ابنته هكذا دون حاكم أو رابط لتمتزج بالغث والثمين على حد سواء، فقرر أن يختار لها من تخالطهم من الناس.
اختار لها أولًا ابنة صديقه الدون (سانشو) فهي وحيدة مثلها وابنة إقطاعي غني مثله، لكن ذلك لم يشبع رغبة الفتاة فكان فضولها يجذبها بإلحاح تجاه هؤلاء القوم الموريسكيين القابعين في الحي الفقير. تهرَّب الأب أكثر من مرة إلا أن الفتاة ألحَّت في طلبها وهي لا ترى من الموريسكيين إلا (زائدة) التي أعطتها المثال الأفضل على الإطلاق في الوفاء والإخلاص والحب والرحمة. لا يكنُّ الدون (دييجو) أي كره للموريسكيين بل على العكس كان كأغلب النبلاء محافظًا عليهم وحاميًا لهم؛ لأنهم يمثلون عماد ثروته وأملاكه ومشاريعه. وعلى الجانب الآخر كان الموريسكيون العاملون في مزارع ومشاغل الدون (دييجو) محظوظين بهذه الرعاية والحماية أكثر من غيرهم من الموريسكيين العاملين عند النبلاء الآخرين. لكن كان الدون متحفظًا على بناء علاقة بين ابنته الساذجة وبين قوم يدور حولهم الجدل والمخاطر حتى وإن لم يكونوا هم سببًا لهذه المخاطر. لكن في النهاية رضخ الدون لطلب ابنته وبدأ في اصطحابها من وقت لآخر إلى حي الموريسكيين في مساء الليالي الصيفية. اختار الدون بيت (بينيديكتو) صديقه القديم ورفيق دربه وساعده الأيمن الذي لا يثق بأي أحد سواه أيًّا كان. بيت (بينيديكتو) هو البيت الوحيد في الحي الموريسكي الذي يأتمن على نفسه وعلى ابنته فيه. رويدًا رويدًا أصبحت زيارة بيت (بينيديكتو) زيارة شبه منتظمة خاصة عندما وجد الدون ابنته (ماديلينا) قد اندمجت سريعًا مع (الغريب) و(حمدة) و(صبح) وصادقتهم وطاب لها قضاء الوقت معهم في الأحاديث واللعب والسمر. خاصة وأنه أثناء ذلك كان يقضي هذا الوقت في الحديث مع صاحبه العجوز ورفيق كفاحه (بينيديكتو).
ثم تذكر الدون (دييجو) الزيارة الأخيرة لهما لبيت (بينيديكتو) بالأمس. زار الدون وابنته بيت (بينيديكتو) وكان الشيخ قد زاد تعبه ومرضه عليه فلم يستطع أن يستقبلهما بنفسه. انضمت (ماديلينا) سريعًا مع الأولاد بينما دلف الدون إلى غرفة الشيخ فوجده راقدًا وقد أسند رأسه على الوسادة وهو يقرأ بصعوبة كبيرة في كتاب ما، فأتاه الدون (دييجو) وسلم عليه دون أن يسمح له بالاعتدال وجلس بجواره على مخدعه قبل أن يلحظ الكتاب البالي وقد نحَّاه الشيخ جانبًا بعد أن بدت للدون الصفحة المفتوحة بها آيات قرآنية، فابتسم بهدوء قبل أن يقول:
ألا تخاف أيها العجوز أن أبلغ عنك مفتشي الديوان؟
ضحك الشيخ ضحكة منهكة قائلًا:
لم يبق في العمر بقية حتى أخاف عليه يا صديقي. لكن أليس الأفضل لك أن تتخلص من كاتم أسرارك!!
ضحك الدون بدوره قبل أن يسرح بنظره قائلًا:

ألم أنقذك من على أعتاب ديوان التفتيش يا رجل يوم أمسكوا بك في سوق (أوليبا)؟ ولكن أنت على حق.. أنت شاهد على ماضيَّ الأسود بكل تفاصيله. أنت الوحيد الذي يستطيع الدون (دييجو) أن ينكسر أمامه يا (بينيديكتو).
ربَّت الشيخ على كتف الدون مطمئنًا وقال:
لا تقسُ على نفسك يا صديقي. ليس كل ماضيك أسود. لديك نقاط مضيئة كثيرة في هذا العالم المظلم. يكفي ما تفعله معنا منذ سنين وحمايتك لنا ولأبنائنا.
مط شفتيه ساخرًا وقال:
هذا ما يفعله أي نبيل إقطاعي ليحافظ على ثروته وينمِّيها يا (بينيديكتو). أما أنا فمهما فعلت فلن أكفر عن ذنبي.
كان يعلم الشيخ أن الدون على حق، وأن ما فعله الدون في شبابه من آثام كافية أن تقلق روحه حتى الممات. ولكن لم يعد هناك من داع ولا فائدة من التحدث عن الماضي، فأراد أن يغير مسار الحديث فقال:
ولكن الرب عوضك في (ماديلينا) أليس كذلك؟
نجحت الحيلة فتهللت أسارير الدون وهو ينظر عبر الباب إلى الغرفة المقابلة؛ حيث تجلس (ماديلينا) تتسامر مع (الغريب) و(حمدة) و(صبح) في مرح وسعادة وقال:
إنها حبيبة أبيها وقرة عيني. لكن على العكس يا (بينيديكتو) أشعر أن الرب يعاقبني في ابنتي. إنها متشرِّبة من طهر أمها رحمها الرب. وأنت تعلم أن الملائكة في هذا العالم أول من ينكسرون وينسحقون بين رحايا الوحشية والعنصرية والكراهية.
ولكنك تحميها بكل ما تملك من قوة يا (دييجو).
نعم وأكثر من ذلك لو استطعت، لكن إلى متى؟ (ماديلينا) تكبر ويقتلها الفضول وتسأل وتعرف أكثر وهذا أخطر ما يقلقني. ماذا لو عرفت بأمها وما سبَّبتُه لها؟
ثم وضع كفيه يغطي بهما وجهه خجلًا وخوفًا من ذلك بينما انكمش الشيخ في مخدعه وهو يرى أمامه الدون (دييجو) القوي الثري جليس الملوك والأمراء وهو يجلس بجواره منكسرًا ضعيفًا بما يحمله من أحمال وهموم وأسرار تكفي لهدم ذلك الصرح الكبير. شرد الدون طويلًا في ذكراه الأليمة مرة أخرى وتركه الشيخ برهة يستجمع فيها رشده وبأسه حتى أفاق الدون من ذكرياته على تنهيدة طويلة حارة ثم ربَّت على كتف الشيخ (عبد الصمد) وهو يهمُّ بالرحيل قائلًا:
لا أستسيغ هذا العالم بدونك يا صديقي.. اِبقَ حيًّا من أجلي.
لابد أن تستعد لهذا الأمر يا (دييجو).. لقد انتهت رسالتي في هذا العالم. جلُّ ما أرجوه منك أن تحمي أولادي من بعدي كما حميتنا في حياتي.
لقد أصبح العالم الآن أشد بغضًا يا (بينيديكتو). أخشى أن الأيام القادمة قد لا تأتي بالخير.. العالم يزداد إظلامًا من حولنا والصدام لا مفر منه. لكن اطمئن سأفعل ما أستطيع لأجلك ولأجل (زيدية).
ابتسم الشيخ وهز رأسه مشجعًا للدون وهو يعلم أنه لن يدخر جهدًا في حماية أولاده. ثم قام الدون وأشار لـ(ماديلينا) بالرحيل. على عتبة الباب نظر نظرة أخيرة إلى الشيخ الراقد. شيء ما أخبره أن تلك الليلة ربما تكون الأخيرة التي يرى فيها صديقه (بينيديكتو). فأشاح بيده له وقال وفي عينيه دمعة لا يدري إن كانت استعدادًا لفراقه أم تذكرًا لحبيبته أم خوفًا على ابنته:
السلام عليك يا شيخ (عبد الصمد)..

قال الشيخ (عبد الصمد) ولم يقل (بينيديكتو) كما تعود أن يقول ثم رحل.
كل هذا دار في خَلَدِ الدون وهو يستمع لأصداء السمرة الأخيرة بين تلال أوليبا.
أتريد أن نبلغ الحراس ليفضوا هذا العرس الموريسكي يا سيدي.. لو علم المفتشون سيسببون لنا المشاكل!
قالها تابع الدون فرد عليه الدون بهدوء:
لا. اتركهم واحرص على عدم اقتراب المفتشين من الإقطاعية هذا المساء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٣)رقصة النار والغضب
(١)

انتهى (زريابيس) من الأغنية الافتتاحية (السمرة الأخيرة) التي دائمًا يفتتح بها ليشد انتباه الجميع ويعلن عن قدومه الصاخب للحفل. وعندما انتهى منها اشتعل الحضور بالتصفيق الحار والصياح، فاستغل (زريابيس) الموقف وانطلق بأغنيته التالية ثم الثالثة، لكن بعد أغنيته الأولى بدأت بعض الفتيات بالرقص على أنغام السمْرة بالرغم من انفراد (آنا) بالمشهد الرئيس وانجذاب أغلب العيون إليها. فكانت الفتيات يرقصن في حلقتهن الخاصة يتبارين في الرقص ومقارعة الراقصة الأولى في البراعة والإتقان. وبدأ الفتيان بتبادل أنظارهم من حين لآخر بين حلقة الفتيات والراقصة الرئيسة. لم تُضِع (صبح) الفرصة وبادرت بنفسها ترقص وسط حلقة الفتيات وتبالغ في حركاتها وتمايلها وخبطاتها ونقراتها. لقد تدربت كثيرًا لأجل هذا وأعدت نفسها للرقص طوال الليل حتى الفجر بلا توقف. استمر الحفل لساعات تبادلت فيهن الفتيات الرقص للراحة إلا (صبح) التي لم تحاول أن تستريح بالرغم من إجهادها وكأنها الرقصة الأخيرة في حياتها. حتى (آنا كارميليتا) نفسها ذهبت لتستريح وتناول بعض المشروبات حتى تستعد للجزء الثاني من الاحتفال. واستغلت النسوة التوقف وقمن بتوزيع أطباق الحلوى والمأكولات الشهية على الحضور.

وبينما يعم الحضور هدوء بينيٌّ ومعظمهم بين شارب أو آكل أو منتظر، كان (زريابيس) قد استراح لبضع دقائق وشرب بضع جرعات من شراب النعناع السكري الساخن وهو يستند على أحد جدران الطلل المهدم، فأخذ يدندن أغنية السمْرة الأخيرة الحزينة مرة أخرى فصاحَبَه الطبال وعازف القيثارة بدورهم كما اعتادوا أن يفعلوا. كان يدندن ليضمن استمرار طبقة صوته على نفس الوتيرة والاستعداد حتى لا يفقد براعتها ودقتها في الجزء الثاني من الاحتفال. وبينما انشغل الجميع عن الغناء، كانت الفتيات اللائي يتعبن من الرقص يقمن باختيار فتاة أخرى لتحل محلهن في الرقص الجانبي، فقامت إحدى تلك الفتيات باختيار (حمدة) لكنها أبت أن ترقص فحياؤها كان دائمًا يمنعها أن ترقص أمام أعين الجميع. صحيح أنها كانت ترقص مع (صبح) في خلواتهنَّ بين حين وآخر، لكنها لم تحاول ولم تنوِ أبدًا أن ترقص وتتمايل أمام أعين الجميع رجالهم ونسائهم. لكن انضم المزيد من الفتيات ممن يؤيدن الموقف وأخذن يجذبن (حمدة) من يديها ليوقفنها رغمًا عنها لترقص خاصة أنها معروف عنها الحياء والبعد عن مواضع جذب الانتباه. لم تفلح محاولات (حمدة) في الامتناع عن الرقص فأرغمها الفتيات على الوقوف وأفسحن لها الحلقة وجلسن حولها إلا (صبح) التي لم تعبأ بالأمر واستمرت في رقصها بكل تركيز واهتمام.

نظرت (حمدة) حولها فحمدت الله أن أغلب الذكور منهمكين بأشياء أخرى تلهيهم عنها من طعام أو شراب أو جدال أو مسامرة فتشجعت للأمر وبدأت ترقص على أنغام (زريابيس) الحزينة الآتية من بعيد. بدأت ترقص بخجل جعل من حركتها بطيئة غير مناسبة لأغنية السمْرة الأخيرة، لكن بعد بضع لحظات أغمضت عينيها وتركت الأنغام والموسيقى بكلماتها تنساب إلى روحها فتملكتها وسيطرت على حركتها وانفعالات وجهها، فما هي إلا بضع لحظات وكأن شيطان الرقص قد تملك روحها واستعبدها، فتحولت ملامح وجهها للتجهم والغضب والانكسار ورفرف ساعداها بحركات عنيدة قوية ودبدبت أقدامها كفحل هائج وأخذت تتمايل وتعتدل كنخلة باثقة في وجه ريح عاتية حينًا وحينًا آخر

كهِرَّة تتلوى وتتمدد تحت أشعة شمس دافئة. وانفكت رابطة شعرها دون إرادتها فطار هائجًا مع حركتها القوية ودورانها الإعصاري.
أخذت العيون تنجذب إلى حلقة الفتيات شيئًا فشيئًا. وعمَّ الصمت مرة أخرى أمام هذا المشهد الرائع. كانت (حمدة) ترقص السمْرة في حلقة الفتيات كأجمل ما يكون والأكثر إعجازًا هو حركة جسدها الفارع الجميل مع نغمات وصوت (زريابيس) الذي انتبه للأمر فأشار لرفيقيه أن ينهضا وترتفع أنغامهما ورفع صوته ليواكب الموقف وينتهزه. الرقص كان جميلًا ويكاد يكون احترافيًّا لكن الإعجاز أن يكون الرقص على هذا الجسد المعجز. كان كل جزء في جسد (حمدة) الثائر عالمًا معجزًا غير معقول. لم يستطع أي من الحضور من يعرفها أو يجهلها أن يرفع عينيه خجلًا عن استدارة جسدها وليونته مع كل ميل أو التواء لها، واهتزاز أردافها المزامن للإيقاع يزلزل قلوبهم، ورجرجة ثدييها تحت ثوبها المحتشم كأنما حمامتان سمينتان حبيستان تحت ثوبها تحاولان الهروب. كان شعرها ثائرًا في الهواء وكأن ليلًا آخر قد هبط على وجوههم وعقولهم أيضًا. وحركة يديها العارية البيضاء الممتلئة تعكس ضوء القمر فهما في استدارتهما كهلالين لامعين في ليلة مظلمة وفي استقامتهما كسيفين فضيين بتَّارين. حتى أقدامها تدق على الأرض الصخرية في ثبات فتهز الصدور وترتعد معها الأفئدة وتشعل اللهب في عيونهم مع حركات أطراف ثوبها الأحمر. كان الجمال نفسه يرقص ولم يكن يضارعه شيء حتى وإن كانت (آنا كارميليتا) نفسها التي نأت بجانبها عندما انتبهت للأمر، فرغم براعتها في الرقص لا يمكنها أبدًا أن تضارع ذلك الجسد المعجز.
توقف الزمن لدقائق طويلة وانطمست كل الصور إلا من (حمدة) الراقصة وصمت الكون إلا من أنغام (زريابيس). بل شعر الجميع بتوقف حركة الكون وتجمد أعضائهم وهم يشاهدون هذا المشهد النادر. فمنهم من ثارت رغبته في (حمدة) الأنثى الكاملة فسرت الدماء في عروقه، ومنهم من رأى فيها راحة الأرواح ونشوة الأفئدة، حتى النسوة استمتعن بذلك المشهد بالرغم من غيرتهن الأنثوية الموروثة.
وبين كل العيون المتلهفة، والقلوب المنتفضة كان (الغريب) في عالم آخر عائشًا في كون آخر اسمه (حمدة). حبيبته التي يأوي إليها بروحه وتأوي إليه فيأمنان سويًّا في عالم مخيف ويدفئان في أفق بارد كالثلج. الليلة فقط يراها بعين أخرى ويستشعرها بروح مختلفة ويسمعها بأذن جديدة. (حمدة) الخجلة الساكنة الهادئة انتفضت منها روح أخرى أنثوية ماردة ثائرة جريئة متفجرة. لم يكن (الغريب) بغافل عن هذا ولا متجاهلًا له لكن اليوم فقط شعر باكتمال حبه لـ(حمدة). اكتمال حب الروح بحب الجسد. وأن الدماء التي تُضخ في عروقه ليست لتغذي الأفئدة البتولة فقط بل والعقول الراغبة والأحشاء المتقدة أيضًا. لكن مع كل هذه المشاعر المتزاحمة على روح وعقل (الغريب) شعر بالخوف يندفع إلى صدره وهو يرى كل العيون قاطبة تنطلق أشعتها الحارقة كلها على مكان واحد فقط على جسد (حمدة). فأيقظ هذا الإنذار عقله وزلزل قلبه وشعر أن القادم له ولـ(حمدة) لن يكون كالأمس أبدًا. الأمس!
وبينما عقله يضج بالأفكار القلقة لم يمنع نفسه خلال هذه اللوحة الرائعة لـ(حمدة) الراقصة أن يتذكر الأمس القريب بعد انتهاء يوم العمل المرهِق وانطلق هو و(حمدة) وحدهما بعيدًا عن العيون في اتجاه بحيرة الماء أحد الأماكن المفضلة لديهم للّقاء. تلك البحيرة الضحلة الصغيرة التي تتكون بضعة شهور من السنة بفعل الأمطار قبل أن تجف باقي السنة. كانا يتسللان بعيدًا عن الأعين الفضولية من أصحابهم أو من سواهم، لكن أمرهم ليس سرًّا على أحد من سكان (أوليبا). الكل يحسد (الغريب) على تملكه لقلب الفاتنة (حمدة) الأجمل في حي الموريسكيين بالإقطاعية وربما في (أوليبا) كلها. فكان

الحبيبان يتسللان بحثا عن قليل من الحب الهادئ قبل ليلة العرس الصاخبة. وصلا واتخذا مجلسيهما عند صخرتهما المعتادة؛ حيث يجلسان متكئين ظهرها إلى صدره يلتحمان بدفئيهما ونبضاتهما يتأملان غروب الشمس في الأفق البعيد حتى تغيب تمامًا عن العيون ويتحول الشفق الأحمر إلى سماء فضية ثم إلى زرقة الليل مع نسيم صيفي جميل مبلل برذاذ الشاطئ الصخري لتلك البحيرة الهادئة مع بعض أصوات الطيور البحرية القليلة على الشاطئ. كانت لوحة هادئة مكتملة الأركان تضع اللمسات النهائية للَّوحة العاطفية التي يصنعها العاشقان بلوعتيهما وتنهيداتهما. تنهدت (حمدة) تنهيدة عميقة وهي تغمض عينيها في تأمل وهدوء ثم قالت:
كم أتمنى أن تدوم هذه الأوقات إلى الأبد ولا تنتهي.
ابتسم (الغريب) وهو يمرر بكفه على ساعد (حمدة) ثم قال في رضا:
ستدوم.. وتصبح أفضل وأفضل لأننا سنبقى معًا. أعدك بهذا يا حبيبتي.
مرَّ شبح رعشة على شفتيها الورديتين ثم قالت:
أثق فيك يا حبيبي ولكن لا أثق فيما سواك. كل ما حولنا يدعوني للخوف والقلق. مثل صفحة الماء هذه ترعبني لمجرد النظر إليها..
ماذا تعنين يا حبيبتي؟ ما الذي يخيف في هذه البحيرة الجميلة؟
ابتلعت لعابها وقالت بصوت خافت مرتعد:
الغرق.. مجرد الفكرة تشعرني بالقشعريرة تسري في أوصالي. مجرد شعوري بجهلي لما أسفل صفحة الماء تلك يرعبني. لا أرى سوى الموت فيها. بالرغم من جمال المنظر وراحتي فيه كلما نظرت للأفق البعيد، لا أفتأ أن أرتعد كلما سقطت عيني على صفحة الماء كما لو أنها بوابة للجحيم أو مدخل لعالم العفاريت.
شعر (الغريب) بالقلق تجاه ما تقوله (حمدة) بكل هذه الجدية، وهنا قرر أن يساعدها على طريقته، وبدون سابق إنذار اعتدل (الغريب) واقفًا في حركة سريعة ثم خلع قميصه بنشاط، فنظرت له (حمدة) متسائلة، لكنه لم يمهلها الوقت الكافي للتساؤل ورماها بابتسامة واثقة قبل أن يقذف بنفسه في البحيرة مع صرخة قصيرة من (حمدة)، غاب للحظات قليلة تحت سطح الماء ثم ظهر مرة أخرى على السطح عائمًا بمهارة قبل أن يقف ويرمي بنظره إلى (حمدة) وقطرات الماء تنساب من رأسه على جبهته وعينيه وقال:
هل رأيتِ؟ إنها مجرد بحيرة ماء. ليست بوابة للجن والعفاريت ولا يختفي الموت تحتها. بل على العكس إنها منعشة تزيل الهموم والآلام.. هيا!!
استنكرت (حمدة) ما يدعوه إليها (الغريب) ورجعت بظهرها للخلف قائلة:
ماذا تقصد. أنت مجنون..
قال مازحًا:
أنا مجنون بحبك يا حبيبتي.. ولابد أن تعلمي أنني سأكون إلى جوارك لأحميك من الخوف والألم برًا وبحرًا.. هيا تعالي. انزلي إلى الماء إنه منعش وأنا سأمسكك ألا تثقين في؟
أثق فيك لكن لا أستطيع.
قال بحزم مصطنع:
هيا لا تخافي. أنا هنا سأمسكك وسنستمتع سويًّا بهذا الجمال الصافي دون شائبة أو خوف. طالما أنا معكِ لا تخافي شيئًا.

ابتلعت لعابها وهي تقف ببطء وتتقدم نحو حافة الصخرة. لم يكن ارتفاع الصخرة عاليًا أو مخيفًا، لكنها كانت مضطربة من الفكرة ذاتها. رفع (الغريب) يديه مناديًا لها ومشجعًا إياها وهي تتقدم بخطوات بطيئة وتتراجع عن بعضها في تردد وحيرة. حتى وصلت إلى حد الحافة الصخرية ورمت بنظرها إلى عيني (الغريب) فوجدتْ فيها ما تحتاجه من الثقة والأمان. لم تشعر أبدًا بجواره إلا بالأمن والراحة والرضا. لم يخذلها يومًا وكان دائمًا بجوارها سندًا وعونًا وحماية. أغمضت عينيها وقذفت بنفسها إلى الماء ثم حدث ما توقعت. لم تشعر بشيء آخر سوى الظلام كما لو أنها دخلت إلى عالم العفاريت إذ أرجعتها ذاكرتها إلى الوراء؛ حيث ذلك اليوم الذي وجدها فيه الشيخ (عبد الصمد) فغابت عن الوعي وتشنجت أطرافها وتصلب جسدها عندما استشعرت البلل وبرودة الماء وقد استرجع جسدها تلك الذكرى المؤلمة بكل تفاصيلها. فانقبضت رئتاها من ماء مالح لم يدخلها، وارتعد جلدها من برودة ماء في خيالها، وانتصب شعرها خوفًا ورعبًا دون أدنى سبب.

لا تدري كم من الوقت مر عليها حتى أفاقت (حمدة) بعد حين على قُبلة دافئة طويلة من (الغريب) بعد أن أنقذها من الغرق وفتحت عينيها في بطء وانتظم نفَسها فوجدت وجه (الغريب) وفي عينيه التياع العاشقين. اطمأن عليها ثم ساعدها على الاعتدال وأسندها ثم رحلا في خطوات بطيئة وقد تضاءلت (حمدة) بين ساعديه وهو يسندها ويقوي ضعفها كما اعتاد دائمًا.

لا يعلم (الغريب) كمَّ الأهوال التي عاشتها (حمدة) في طفولتها وجعلها هكذا هشة الروح منكسرة الفؤاد في موقف كهذا لا يدعو لرد الفعل العنيف ذلك. فمع طول قامتها لا يوجد احتمالية الغرق أبدًا في هذه البحيرة الضحلة الصغيرة. لكنه مع ذلك لابد له أن يحميها من ذلك الشبح القابع في ماضيها ويشدها للموت غرقًا في بحيرة من ذكرياتها.

الغضب أيضًا له مكان في هذا المشهد الفريد. عندما شرعت (حمدة) في الرقص لم تخش (صبح) شيئًا من منافستها. فهي تعلم أن (حمدة) لا تضارعها في الرقص ولا تقنياته المختلفة التي تعبت (صبح) في تعلمها هنا أو هناك من بيوت السيدات الموريسكيات أو حفلات السمر التي كانت تهرب من بيت جدها لتحضرها دون علمه فأتقنته وصارت تستخدمه كأحد الأسلحة في اصطياد فرائسها من الرجال الأثرياء. وفعلًا كانت هناك بعض العيون في العرس ترمقها من حين لآخر وتكاد تنصب شركها على أحدهم أو ربما أكثر. كل هذا توقف عندما أسهبت (حمدة) في رقصة السمْرة وتملَّكها إله الرقص فحادت العيون عن (صبح) وعن كل الراقصات الأخرى بشدة وتوجهت كلها إلى نقطة واحدة جسد (حمدة).. جسد (حمدة).. جسد (حمدة).. اللعنة على (حمدة) وجسدها الفارع. مرة أخرى تضاءلت (صبح) بجانب (حمدة). تحولت (صبح) إلى حشائش قصيرة نابتة بجوار نخلة عالية باثقة مثمرة بألذ وأجمل أنواع التمور الطيبة بألوانها المختلفة فصار كل الحاضرين كالأطفال اللاهين يدوسون تلك الحشائش بالأقدام يتطلعون إلى ثمار النخلة الناضجة يتمنون الصعود إليها وركوب جزعها والوصول إلى ثمارها بأيديهم والتلذذ بتلمسها بأطراف أصابعهم وتذوق طيبها وعسلها. مرة أخرى حولتها (حمدة)- حتى وإن لم تقصد- إلى شيء مجهول بجوار كل شيء.. أجمل شيء.. بل أكثر الأشياء رغبةً فيه.

ظهر الغضب على وجه (صبح) فتوقفت عن الرقص مبهوتة وهي ترمق عيون الجميع المأخوذة برقص (حمدة) متجاهلين وجود (صبح) كما لو أنها مختفية عن العيون بالرغم من تعبها وإتقانها الرقص لساعات طويلة مجهدة. انسحبت (صبح) من المشهد وهي تغمغم بكلمات الغضب والحَنَق والغيرة التي لم يلحظها أحد وتوجهت إلى ركن بعيد عن العيون في أحد أطلال المنزل واستندت عليه

كما لو أنها تختبئ من شيء ما وهي تنفث بأنفاسها الحارة وكأنها آتية من أتون الجحيم، أتون الغضب والغيرة والحسد. لم تتمالك نفسها فترقرقت دمعة الحنق بين جفونها دون أن تنزل على وجنتيها. (صبح) التي لا تهتم لأي شيء مهما غلا شعرت أن أمر (حمدة) هذا قد استفحل وتمادى كثيرًا وأتى بأسوأ الأثر عليها وسيأتي بأسوأ منه طالما ظلت تعيش في ظلها بجوارها تحت رحمة جمالها وأسيرة لوهَج جسدها. (صبح) التي لا تعبأ لأي شيء في حياتها كالدين والوطن والشرف والأخوة والعائلة، تملَّكها هي أيضًا شيطان آخر أكثر قوة وأكثر شرًّا. الغيرة وما أدراك ما الغيرة عندما تشتعل في صدر أنثوي ثائر ونفس غير سوية غير مؤهلة لسبر غور هذا الشيطان وإلجامه. لهذا قررت بل قرر لها شيطانها أن تترك له لجامها يتحكم فيها كيف يشاء ليؤذي من يؤذي ويحرق من يحرق ويقتل من يقتل إرضاءً لهذا الشيطان. رمت بنظرها مرة أخرى في غيظ على الجمع المشدوه والعيون المنجذبة إلى حيث ترقص (حمدة) فلمحت في أقصى السفح بعيدًا عن العيون (فرَّاج) ومعه فتى إسبانيٌّ آخرُ وهو يتأمل (حمدة) من بعيد وفي عينيه بريق غريب آخر.
ظل (فرَّاج) متابعًا مشهد الاحتفال وكانت أفكاره السوداء تتملَّكه وتجعل عقله يعمل كخلية من النحل. إنه يريد كل شيء؛ السطوة والقوة والشهرة والثروة والاحترام و.. (حمدة). نعم هكذا كان الأمر بالنسبة إليه. (حمدة) هي الجوهرة التي ستزين ملبسه وتجعله منظورًا ومحسودًا من الجميع؛ إسبان وموريسكيين. قرر ذلك بعد أحداث السوق عندما خرج غاضبًا لاعنًا ساخطًا من (أوليبا) وقصد كهفًا جبليًّا بالبحيرة يعتزل فيه الناس ويفكر. بينما كان يغوص عقله في بواطن أفكاره القاتمة تناهى إلى أذنه صوت صفحة الماء الهائجة كما لو أن شيئًا أو جسدًا قد سقط فيها وأقلق من سكونها. فاعتدل يبحث عن مصدر الصوت فوقع بصره على (الغريب) وهو يحاول أن يمسك (حمدة) التي بدت كأنها تغرق في البحيرة ثم استسلمت ليدَيْ (الغريب) الذي أخذ يجرها خارج الماء حتى استقرا على الشاطئ الصخري وقد غابت (حمدة) عن الوعي. فظل (الغريب) يوقظها في حنان قبل أن يقبلها قبلة دافئة طويلة أفاقت لها (حمدة) فاحتضنها (الغريب) لبعض الوقت يدفئها ويُطمئن من روعها ثم رحلا وهو يحتضنها بساعده وهي منكمشة في أحضانه كالهرة الصغيرة في مشهد دافئ.
في ذلك الوقت انتابه مزيج من المشاعر المختلطة فوقف مبهوتًا وهو يتأمل الحبيبين يرحلان قبل أن يغيبا عن الأفق البعيد وأفكاره القاتمة تصفع به يمنة ويسرة. هل انتابته الغيرة؟ هل يحب (حمدة)؟ هل يحسد (الغريب) على عشقه الخالص لـ(حمدة)؟ هل يحقد عليهما ذلك الحب وتلك العاطفة السامية؟ هو لا يعرف ما معنى الحب ولا حتى الشبق. لكن الشيء الوحيد الذي أشعل شيئًا ما في صدره الآن هو (حمدة) جميلة الجميلات. الكل يرغبها. الكل يريدها. الإسبان والموريسكيون على حد سواء. فإن كان الجميع يريدها فلابد هو أيضًا أن يريدها ويرغبها بل ويقتنصها من الجميع. كما أنه لا يزال يحمل لـ(حمدة) ذكرى تلك الليلة عندما انتابته الحُمَّى في بيت الشيخ (عبد الصمد) منذ سنوات. لم يَرَ أمام عينيه إلا (حمدة) تسهر على مداواته. لم يشعر إلا بحنانها ودفء يديها على صدره تملِّس بها على جلده. لم ير إلا ابتسامها لعينيه ومسحها على شعره بيديها، لم يشعر إلا بكفها يمسح عرقه عن جبهته. لن ينسى أبدًا ذلك الدفق المنهمر إليه من عينيها حنانًا وعطفًا ورأفة. هي فقط من يحمل لها ذكرى جميلة من بين كل فتيات الحي. حتى عندما حاول (عُمَير) مرة من المرات أن يضربه وهو عاجز وحيد ملقى على الأرض و(عُمَير) جاثم على صدره يكيل له اللكمات، وقف جميع فتية الحي بين مشاهد وضاحك إلا (حمدة). انطلقت وحالت دون ذلك ومنعت (عُمَير) من المزيد من الضرب واللكم لـ(فرَّاج) كلبؤة تدفع عن أسدها هجوم الفيلة الغاضبة.

قرر في قرارة نفسه أن تكون (حمدة) له وحده. قرر ألا يسمح لـ(الغريب) أو أي أحد آخر أن يقف حائلًا دون ذلك. وبينما عقله يضجُّ بالأفكار السوداء والمخططات القاتمة رمى بنظره من على بعد إلى حيث انجذبت كل العيون وارتكزت على نقطة واحدة. على (حمدة) المهرة البيضاء الراقصة ذات السرج الأحمر الناري وألهبت أفكاره أكثر وأكثر. لم تجذبه أنثويتها الصارخة، ولم يجذبه رقصها الإبداعي، ولكن جذبه فيضان الرغبة المتقدة المنساب من أذهان وعقول وأفئدة جميع الحاضرين كسيل الزبد من أشداق الذئاب على جسدها. الكل يريدها بشكل أو بآخر لذا لابد له أن يحصل عليها هو وحده.

وبينما ذهنه مستعبد بتلك الأفكار الجهنمية شعر بذلك الظل يقترب منه فإذا بـ(صبح) تقصده لتقف بجواره. رمقها بنظرة سريعة قبل أن ينقل بصره مرة أخرى إلى (حمدة) غير عابئ بوقوف (صبح) بجواره كما لو كانت ظلًا ثم قال:

لماذا لا أراكِ ترقصين مثلها..

ظلت (صبح) تحدق في (حمدة) عاقدة الجبين ثم قالت:

اللعنة عليها.. لم تترك حتى الذباب ليلعق رحيقي..

أعجبه كلامها وقد أتى على هواه فنظر إليها وقال:

أليست رفيقتك وشقيقة مخدعك وصاحبة صباك؟

بل فرضٌ لم أختره، زحامٌ لم أَسْعَ إليه، وشراكة مقسومة من نصيبي. والآن صارت جَوْرًا على حقي، وبَثرة أزيلها الآن أو تشوه وجهي إلى الأبد..

كان يعلم غيرتها من (حمدة) منذ الصغر، لكنه لم يتوقع أن تكبر معها لتتسلط عليها إلى هذا الحد. لكن هذه النفس المريضة هي أفضل أداة يستطيع أن يتحكم بها لتحقيق مآربه. هدية مجانية من السماء أتته هذه الليلة، فاتسعت ابتسامته وهو يحدق في عيني (صبح) قائلًا في عزم:

أتساعديني أزيل البثرة عن وجهك. ما رأيك؟

قالت مسرعة:

طبعًا أساعدك.. أريدها أن تختفي من أمام ناظري. أريدها بعيدة عن مجرى أنفاسي.. لا أريد أن أستشعر دفئها في مخدعي مرة أخرى.. ولا لعابها يلتصق بصحني.. افعل ما تشاء ولا يهمني أمرها بعد الآن..

و(الغريب)؟!

التفتت إليه تستفسر بنظرها عن سؤاله قبل أن تقول وقد فهمت مقصده:

إنه لا يدور إلا في فلكها، فلو سقطت سيسقط معها حتمًا.. كلاهما من نفس المجرة.. لم أعد أهتم به.. زائر عابر على عالمي وسيرحل ولن أركض وراءه.. أنا فقط لا يهمني إلا أمري وأحلامي وعالمي الذي أبنيه بيدي أنا.

كأني أسمع نفسي!! لم أَدْرِ من قبل أننا قريبًا الشبه من بعضنا البعض أنا وأنتِ.. ربما يتلاقى عالمانا ذات يوم!

جرى على وجهها شبحُ ابتسامة ساخرة ثم شرعت بالرحيل قائلة:

ربما تلاقيا بالفعل.. عندما تريد مساعدتي ستجدني.

فرد عليها:

نعم.. عندما أريدك سأجدك!

ثم اختفت من جواره في ظلال بعض أطلال المنزل بينما استمر هو يراقب حينًا ويحتسي النبيذ حينًا آخَر.
في هذه الأثناء ظل (عُمَير) جالسًا منكمشًا في أحد الأطلال المرتفعة البعيدة مطلًّا على ساحة العرس متأملًا تفاصيله باحثًا عن أصدقائه (الغريب) و(طاهر) وبقية الفتية من الحي. ثم وقعت عينه على (حمدة) وهي ترقص. كان رقصها مثيرًا رائعًا جذب أنظاره فتعلقت بها ككل العيون. لم يكن (عُمَير) من المفتونين بـ(حمدة) كأنثى أو بأي أنثى أخرى. لقد كرَّس عقله ونفسه للقضية منذ أن وَعَى عقله ومنذ أن رأت عيناه جثة أبيه تحترق وسط احتفال الإسبان واستكانة الموريسكيين. لم يغفل جسد (حمدة) وهو ينمو أمامه يومًا بيوم. لكنه كان دائمًا يقرنها بـ(صبح) كأختين له مُحرِّمًا على نفسه أن تثار لجمالهما أو لجسدهما. فضلًا عن نصائح السيد (ناصر) المستمرة له أن المجاهد المسلم لابد أن يكبح جماح رغبته ويلجم نفسه تجاه نزواته. وأن الأندلس لم تضع من بين أيدي المسلمين إلا لانشغال الناس عن الجهاد بأمور الدنيا من النساء والأموال والسلطة. فقرر (عُمَير) منذ صغره أن يعتزل النساء ويكبح رغبته حتى يكون مجاهدًا قويًّا مثاليًّا خاليًا من الشوائب الدنيوية. لكن لم تخلُ تلك السنوات من العيش سويًّا تحت سقف واحد من المصادفات التي حركت بواعث الذكورة في نفس (عُمَير) تجاه (حمدة) فكان يذهب لمعلمه السيد (ناصر) يحكى له فيعنِّفه السيد (ناصر) ويطلب منه أن يصوم شهرًا كاملًا حتى يستطيع أن يقوي من عزيمته ويقبض على شهواته فلا يحيد عقله أبدًا عن هدفه ولا يزيغ عن قضيته فقرر (عُمَير) ألا يسمح بتكرار مثل هذه المصادفات، وأصبح لا يأتي البيت إلا قليلًا ولا يتحرك فيه إلا بحذر ويتجنب مواضع الاجتماع بـ(حمدة) و(صبح). انتبه إلى أحد القادمين نحوه فالتفت إليه بحذر وإذا بـ(الغريب) يقف إلى جانبه مربتًا على كتفه وهو لم يره منذ واقعة السوق منذ أيام، فالتفت إليه (عُمَير) وربت على يديه قبل أن يقول (الغريب):
أين كنت يا أخي.. لقد ألقيت الروع في قلوبنا عندما اختفيت كل هذا الوقت.
ابتلع لعابه وقال باقتضاب:
لا رغبة لي في شفقتكم يا (الغريب). كنت بحاجة إلى نفسي أكثر من ذلك.
فهم (الغريب) ما الذي يعنيه فقال مطمئنًا:
(عُمَير) الذي نعرفه لا نقبل أن نشفق عليه، لكن وجب علينا مؤازرته.
وأين كانت مؤازرة الناس عندما حرقوا جثة أبي في نفس المكان؟!
صمت (الغريب) وهو يعلم كم ترك هذا الأمر من جراح لا تبرأ لدى (عُمَير). فأكمل (عُمَير) بنفس نبرة الغضب الصامت:
وأين كانوا عندما سحق الإسبان رجولتي أمام الجميع!! ومَن التالي منا يا (الغريب) الذي سيقف الموريسكيون مكتوفي الأيدي وهو على أكوام الحطب المشتعلة أو في قيعان أقبية دواوين التفتيش؟
يعلم أنه على حق فاستطرد (الغريب):
وماذا نستطيع أن نفعل يا أخي ونحن مستضعفون في الأرض لا حول لنا ولا قوة إلا أن نتقي الشبهات ونسأل الله السلامة.
فرد (عُمَير) مقاطعًا:
كالحيوانات الداجنة في مزارع النبلاء أليس كذلك؟ يرعوننا ويطعموننا ليذبحونا ويقتاتوا علينا حين يشاؤون أو يستعبدونا خدَمًا لديهم على أقل تقدير فيرمون الفتات إلينا ليضمنوا استمرار عبوديتنا وخدمتنا لهم.

لم يستطع (الغريب) أن يرد على حجته القوية فهمَّ بقول شيء ما لكن قاطعه (عُمَير) بحزم قائلًا:
اقبلوا أنتم هذه الحياة.. أما أنا فلا..
كان (الغريب) يعلم أن هذا اليوم آتٍ لا محالة حين يقرر (عُمَير) أن يعيش حياة الثوار أو ما يسميه الإسبان قطاع الطرق المارقين. كانت مسألة وقت حتى يتخذ (عُمَير) هذا القرار. ولعُه بسيرة أبيه المجاهد، وانضمامه لأخوية السيد (ناصر) منذ الصغر، وتصرفاته كلها كانت توحي أنه يسير نفس الطريق الذي مشاه أبوه ومَن هم على شاكلته. هكذا كان ظاهرًا جليًّا لكل من في (أوليبا) أو الحي الموريسكي أن (عُمَير) سيتحول إلى أحد المارقين يومًا ما فتجنبه البعض، واستعداه الإسبان منذ القدم. سأله (الغريب):
فماذا أنت فاعل الآن يا أخي.
قال بثبات:
أنت تعلمه يا (الغريب) منذ الصغر.. سأنضم للثوار.
وكأنه تفاجأ بالأمر فابتلع لعابه وقال:
أنت صغير على حياة الطرائد يا (عُمَير). أخشى عليك يا أخي.
ابتسم ابتسامة باهتة في سخرية وقال:
كأني أعيش حياة النبلاء هنا! لا تخف يا صديقي سأعيش مع من يحمون ظهري حيًّا ويدفنون جثتي حين أموت. سأعيش مع من يقرر مثلي كيف نعيش وكيف نموت، فإن قدَّر الله لنا النصر سألقاك سيدًا أميرًا، وإن قدر لي الموت سأموت مجاهدًا شهيدًا في أعلى درجات الجنة.
كم يحسده (الغريب) على هذا الثبات وهذا القرار الحاسم!. كم كان يتمنى أن يكون له نفس الثبات وتلك القناعة!، لكنه لديه من يعيش من أجله.. (حمدة). لا يملك أن يتخلى عنها. لقد تعاهدا ألا تفرقهما الأيام أو الأحداث مهما كانت. (حمدة) المسكينة الضعيفة المَهيضة الجناح لا يستطيع أن يتركها لتواجه مصيرها وحيدة في هذا العالم الموحش ليذهب هو إلى حياة المغامرة مهما كانت نتائجها. ظل (الغريب) تراوده الأفكار بعض الشيء وهو يتأمل (حمدة) المهرة الراقصة من بعيد والجميع يراقبونها بأعين مستذئبة فيتزايد القلق في عينيه. استشعر (عُمَير) قلق (الغريب) فقال:
أعلم ما تفكر به يا صديقي.. احذر العدو والصديق فكلاهما سيترصدك. لقد أصبحت (حمدة) مطمعًا للجميع ولن يكون الحفاظ عليها وحمايتها أمرًا سهلًا أبدًا.
ابتلع لعابه دون أن يرفع عينيه عن (حمدة) وقال:
بالحب أنقذها من براثن هذا العالم يا (عُمَير). الحب هو درعي الذي سأدافع به عنها.
وماذا يفعل الحب وسط مدافع البارود يا أخي. الكره البشري والحقد المقدس أقوى من حبكما ألف مرة. اهرب بحبك بعيدًا عن حقول الكراهية وأقفاص الاستعباد وعش حرًّا ولو في جحور الكهوف يعش حبكما طويلًا.
ربما يكون (عُمَير) على حق، لكنه لن يغامر بـ(حمدة) في حياة الطرائد. الحب لا ينجو على طرق الهروب أو في أوكار الاختباء. سيكرِّس كل حياته من أجل حمايتها ورعايتها حتى ولو ظل عبدًا لدى الإسبان إلى الأبد.
أنت تحلم يا صديقي، سيأتيكما الخطر شئتما أم أبيتما. إن لم تعاجله بالحيطة والتجنب أو حتى بالمواجهة سيعاجلك بالفراق والموت والتشتيت. تذكر كلماتي يا (الغريب) الصديق والعدو كلاهما

سيكون ضدك، وأقصى ما يستطيعه أقرب الناس إليك هو أن يشاهدوا موتك البطيء بنظرات الشفقة والحسرة..
ثم قطع كلامه فجأة وكأن حية قد لدغته فانتبه (الغريب) لذلك والتفت إليه، فإذا بـ(عُمَير) وقد عقد حاجبيه وتطاير الشرر من عينيه وهو يرمي ببصره في اتجاه ما. نظر (الغريب) فوجد (فرَّاج) يتوجه بخطوات مثقلة إلى منتصف ساحة الاحتفال. ضم (عُمَير) قبضتيه في قوة صائحًا:
لقد استعجلت موتك أيها القَزم المسخ..
ودون أن يفهم (الغريب) ما يقصده (عُمَير) انطلق (عُمَير) بأسرع ما استطاعت به ساقاه تجاه (فرَّاج) الذي وقف في منتصف الساحة يترنح وقد لعب الخمر برأسه وأفقده صوابه فظل يحملق في وجوه الحاضرين بعين زائغة. لم يلحظ أحد (فرَّاج) بين زحام المدعوين المشغولين بينما شد بصرهم تلك العاصفة الترابية الآتية من أطراف الساحة المرتفعة حتى وصلت بين أقدام (عُمَير) الراكض خلف (فرَّاج) وعاجله بلكمة خلف رأسه قذفت به بعيدًا على الأرض مُتَأَوِّهًا.
سقط (فرَّاج) على وجهه وسط عاصفة ترابية انتبه لها الجميع مع صوت الجلبة وصرخة (فرَّاج) المتأوه. وقبل أن يحاول (فرَّاج) السكير أن يفهم الأمر انكب (عُمَير) بجسده القوي على جسده الضعيف وأخذ يكيل له اللكمات والصفعات صائحًا:
جئت لموتك أيها المسخ.. أقسم أن أقتلك الليلة..
تحرك الفتية تجاه المتصارعين يحاولون أن يفرقوهما ومن بينهم (الغريب) الذي ركض خلف (عُمَير)، وبعد محاولات كثيفة من الشباب والرجال استطاعوا أن يفرقوا بينهما بالرغم من معارضة (عُمَير) وتشبثه بملابس (فرَّاج) بعد أن كال لوجهه عدة لكمات شديدة.
انفضت الرقصات ورحل (زريابيس) وفرقته عن الساحة المشحونة بالغضب والسباب واللعنات وتحولت الساحة إلى حلقة مصارعة. ساعد الفتية (فرَّاج) على الاعتدال بالرغم من سُكره فأخذ يسب ويلعن (عُمَير) بأقذع الألفاظ وهو يشيح له بيديه بالرغم من جسده المهتز وعينيه الزائغتين قائلًا:
اخرس أيها الموريسكي الجبان.. أنا أفضل منك ومن كل الموريسكيين اللعينين في هذا الحي اللعين.. أنتم كلكم كفرة..
صاح فيه (عُمَير) كثور هائج مكبل بأيدي الفتية والرجال:
بل أنت المسخ القزم المشوه.. أنت عار علينا ووجب قتلك والتخلص منك.. أقسم ألا يطلع النهار عليك حيًّا يا كلب الإسبان.. يا عبد الكنيسة وخادم النبلاء وجاسوس دواوين التفتيش..
بالرغم من محاولات جميع الحضور التوسط بين (عُمَير) و(فرَّاج) إلا أن (فرَّاج) بلسانه السليط وكلماته اللاذعة فقدَ أي نوع من التعاطف منهم وهو يسبهم وينعتهم بالكفرة. كان سكيرًا فلم يستطع أن يتحكم في انفعالاته فانفضَّ الجمع من حوله خاصة وأن واقعة السوق لا تزال قريبة من أذهانهم جعلتهم يتعاطفون مع (عُمَير) وموقفه وما كانوا يفرقون بينهما إلا لتجنب تخريب الاحتفالية والعرس.
وجد (فرَّاج) نفسه وقد انفض من حوله الفتية وتباعدوا عنه وحيدًا في حلقة واسعة وكل العيون تتطلع إليه بغضب أو استهزاء أو اشمئزاز وهو واقف يهتز بجسده ويلوح بيديه المرتعدتين وعيناه تزوغان هنا أو هناك في اضطراب. واحد فقط أتى إلى (فرَّاج) وحاول أن يجذبه بعيدًا عن تلك العيون المترصدة، أخوه (طاهر) أراد أن يمسك ذراعه ليأخذه بعيدًا عن ذلك الحشد الغاضب إلا أن (فرَّاج) نفض ذراعه من يد أخيه ووجه سبابه إليه قائلًا:
أنت أيضًا ملعون بلعنتهم.. أنت أيضًا موريسكي كافر مُدَّعٍ.. كلكم ملاعين.. أما أنا فلا..

ثم وجه صيحاته وسبابه للجميع:
نعم أنا ابن زانية، ولِيَ الفخرُ أني أحمل دماء إسبانية نبيلة.. أما أنتم بدمائكم العفنة مصيركم إلى الجحيم.. لا مكان لي بينكم بعد اليوم.. وستعرفون من هو المسخ أيها الملاعين.. عيشوا حيواتكم كالحيوانات في الجحور أما أنا سيد ابن سيد وسترون من سأكون وستندمون جميعكم..
وانتقلت عيناه الزائغتان بين الزحام حتى وقعت على (حمدة) بين جموع الواقفات المراقبات وأشار إليها بأصبع مرتعش وهو يقول:
وأنتِ.. أقسم بالرب أن تكوني لي وحدي أنا.. كل هؤلاء العيون الجائعة إليك لن يمنعوني من الوصول إليك وامتلاكك إلى الأبد.
والتفت إلى (الغريب) بعين متحدية قائلًا:
حتى أنت لن تمنعني من الحصول على جائزتي..
الآن فقط انتبه أن الخمر قد غلبه وجعله يبوح بكل أفكاره السوداء وأفضى للتو بأسراره وخطته أمام الجميع وعليه أن يتصرف على الفور فجرى بقدميه المترنِّحتين بعيدًا عن العيون مغادرًا العرس والساحة حتى اختفى تمامًا. (عُمَير) أيضًا تخلص من الأيادي المكبلة له ثم غادر الساحة في خطوات ثابتة بوجه عابس صامت.
انتهى الاحتفال بهذه الأحداث المؤسفة وقد انتصف الليل وذهب كل واحد إلى بيته كما أتوا متخفيين، فما كانت إلا بضع دقائق وعاد بيت (صفية) لسابق عهده طلل قديم مهجور لا روح فيه، وعادت الطرقات والحقول للصمت والخمول، ولزم كل واحد في بيته فعادت السكينة إلى الحي الموريسكي في (أوليبا) وغط الناس في النوم استعدادًا ليوم شاق آخر في العمل في المشاغل والمزارع. لم يعبأ العديد منهم بتلك المشاجرة الأخيرة بين (عُمَير) و(فرَّاج). كانت حفلات العرس والأفراح لا تخلو عادة من شجار أو مشاحنة أو ملاسنة بين الفتية. كان الأمر لا يعدو عن كونه حماس شباب أو تناطحًا ذكوريًّا طبيعيًّا أمام أعين الإناث. حتى عندما سبَّهم (فرَّاج) كانوا يعلمون أنه سِكير فلم يلقوا له بالًا وذهبوا إلى بيوتهم وغطوا في نومهم استعدادًا ليومهم الجديد.

(٢)

بينما هبط النعاس على بيوت الحي، لم يكن منزل الشيخ (عبد الصمد) كذلك. كان (الغريب) و(حمدة) و(صبح) ملتفين حول مخدع الشيخ (عبد الصمد) الذي كان راقدًا عليه ويبدو أكثر هزالًا ومرضًا عن أي وقت آخر. كان وجهه باهتًا وعيناه زائغتين ضبابيتين تتطلعان إلى سقف الغرفة في ثبات بينما تخرج الأنفاس من فمه ضعيفة محشرجة. ترقرقت الدموع من عيني (حمدة) وتنهنهت وهي ترى الشيخ (عبد الصمد) ينازع الحياة ويكاد يفارقها بين لحظة وأخرى. بينما جلست (صبح) عند رأس جدها وهي ترمق (حمدة) بعيون غاضبة ولا تزال أحداث العرس عالقة بذهنها. أما (الغريب) كان ينظر إلى الشيخ (عبد الصمد) عاجزًا لا يدري ماذا يصنع فيربت على صدره بين حين وآخر.
استجمع الشيخ (عبد الصمد) قوته وقال بصوت ضعيف محشرج:
أين (عُمَير)؟
سكتوا حائرين فلم يتوقع أحد منهم أن يعود (عُمَير) هذه الليلة بعد أحداثها الساخنة فاستعدوا لتجهيز أسباب غيابه، لكن المفاجأة حدثت عندما طرق باب المنزل فذهب (الغريب) ليجد (عُمَير) آتيًا للبيت

بصمته المطبق وعينه الغاضبة فدخل على جده وتبوَّأ مقعده بجواره. رمى الشيخ بنظره بين أربعتهم ببطء وقال بصوت ضعيف:
يا أبنائي.. كل نفس ذائقة الموت.. وأنا مفارقكم بين لحظة وأخرى.. لقد عايشت في هذه الحياة كل شيء.. عشت حرًّا ومستعبدًا.. عشت في كل ربوع الأندلس شمالها وجنوبها.. كنت ابنًا وأبًا وجدًّا.. عشت حياة الدَّعة وحياة المغامرة وحياة الاستكانة أيضًا.. لقد أطال الله في عمري وسخرني وسخر لي الأسباب لهدف ما.. من أجلكم.. فلا تجعلوا هبة الله لي فيكم تذهب هباءً.. «فسيكفيكهم الله»..
ثم التفت إلى (حمدة) ببطء وابتلع لعابه في صعوبة وقال:
(حمدة).. قدرك أن أصبحت قدرًا للآخرين.. ستكونين محورًا للحياة والموت أيضًا.. لن تختاري حياتك بعد اليوم لكن ستُختار لك حياة بل حيوات أخرى كثيرة فلا تفقدي الأمل يا ابنتي. لك الله يا عروس البحر.
سرحت (حمدة) في كلمات الشيخ وهي تمسح دموعها من على وجنتيها، فانتقل الشيخ (عبد الصمد) ببصره المجهد والتفت إلى (صبح) وقال لها:
لا تصغي إلى نفسك يا (صبح).. كم من نفوس ضاعت وتاهت بين ضباب هذه الحياة الدونية يا ابنتي!.. لا تطلقي المارد الجبار من قمقمه فيحرقك ويحرق من حولك..
ثم التفت إلى (الغريب) وقال:
قلبك يا (الغريب) شقاؤك ودرعك لتنجو في هذه الحياة.. هذه الحياة ما صنعت للملائكة يا ولدي.. تشبث بالحياة يا (الغريب).. يا مليك السماء.
ثم التفت إلى (عُمَير) وتأمله قليلًا ليجد فيه ملامح أبيه فابتسم ابتسامة باهتة وقال:
«ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين».. إن كنتم مؤمنين يا (عُمَير).. فقط إن كنتم مؤمنين.
ثم رمى ببصره إلى سقف الغرفة قائلًا:
ستفرقكم الأيام يا أبنائي.. فلا تجعلوا فراقكم كحبات الرمان تفرط مشتتة مبعثرة فيسهل قنصها والتهامها حبة حبة.. التحموا مهما فرقتكم الأيام.. فربما يحمل المستقبل لكم ما لا يتحمله بشر.
كان يودعهم بكلماته، وكانوا يستمعون إليه وهم يستعدون لأيام الحزن والفراق لراعيهم ومربيهم الأوحد الذي جمع شتاتهم تحت سقف واحد وغذَّى عقولهم قبل بطونهم. لم يتساءلوا في قرارة أنفسهم عن حياتهم بعد الشيخ (عبد الصمد)، ستمضي الحياة بكل تأكيد ولكن كيف ستمضي بهم وإلى أين؟ لم يفكروا في هذا الأمر حتى هذه اللحظة.

(٣)

لحق (خوليو) بصديقه (فرَّاج) السكير بعد أن ركض مبتعدًا عن بيت (صفية) وشرر الغضب يتطاير من عينيه وتحركا سريعًا بين طرقات (أوليبا) و(فرَّاج) كله حنق وغضب وثورة ممتزجة بالسكر. أخذه (خوليو) إلى مكان الساقية؛ حيث تعوَّدا أن يجتمعا هناك مع الأخوية. لم يُرد (فرَّاج) أن يعود إلى منزله بعد تلك الأحداث فربما تقابله أمه الغاضبة أو خاله الأحمق الهائج. وهناك عند الساقية استخرجا زجاجة نبيذ أخرى كانا يخبئانها وجلسا سويًّا وبدأ (فرَّاج) الغاضب يتجرع النبيذ بنفس كثافة غضبه وحنقه بينما يحاول (خوليو) أن يهدئه بكلماته بين حين وآخر أو أراد أن يبدو كذلك. لقد وصل (فرَّاج) إلى أقصى ما يستطيع احتماله ولن يستطيع أن يتحمل المزيد.

أنت على حق.. هؤلاء الحمقى لا مكان لهم في حياتك يا صديقي.
قالها (خوليو) وفي عينيه خبث لئيم وهو يبعث بنظرات ثاقبة عبرت روح (فرَّاج) وعقله المغيب.
تجرَّع (فرَّاج) دفعة من النبيذ ومسح بيده الأخرى على شفتيه الرطبتين وهو يتأمل المدى المظلم قبل أن يقول في تثاقل:
نعم يا (خوليو).. لابد أن أمحُوَهم من حياتي.. آه لو أُولد من جديد!!
وما الذي يمنعك أن تولد من جديد؟ اليوم وليس غدًا!
عقد (فرَّاج) حاجبيه ونقل بصره إلى (خوليو) مستفسرًا:
كيف هذا؟
ابتسم (خوليو) بخبث واقترب من أذن (فرَّاج) كما لو كان يلقنه سرًّا عظيمًا أو خطة جهنمية قائلًا:
لقد هددك اليوم ذلك التعس (أوريليانو) بالقتل أمام الجميع، فهذه فرصتك أن تقتل (فابريسيو) وتمحوه من الوجود.. ويولد شخص جديد إسباني المولد مسيحي الأصل بعيدًا عن هذا الحي القميء وساكنيه الملاعين.. ليس هذا وحسب بل سيُتَّهم (أوريليانو) في قتلك أيضًا ويُزج به في السجون أو يقتل.
أخذ (فرَّاج) بضع دقائق يقلِّب الأمر في رأسه محاولًا التركيز بالرغم من سكره مفكرًا بعمق قبل أن تتسع شفتاه للحظات مستسيغًا الفكرة قبل أن يضمهما مرة أخرى حيرانَ متسائلًا:
ولكن كيف؟ كيف يقتل (فابريسيو) بلا جثة؟ كيف يمكن أن أتخفَّى من أمي وأخي (كريستوفال) إلى الأبد؟ كيف أولد كإسباني؟ تبدو فكرة معقدة صعبة التنفيذ يا (خوليو).
ابتسم الخبيث (خوليو) وهو يرى (فرَّاج) أمامه سهل الانقياد إلى ما يريده له في استسلام. فقال معللًا ومفسرًا:
لكي تولد كإسباني مسيحي من جديد عليك أن تحرق الماضي بكل ما فيه.. ومن فيه. ستحرق بيتك وكل ماضيك فيه.
اعتدل (فرَّاج) وسأل:
ولكن أمـ..
ثم قطع كلامه بغتة واتسعت عيناه وهو يرمق (خوليو) قائلًا:
هل تقصد..!!
قاطعه (خوليو) في ثبات وثقة وحزم:
نعم.. أقصد أن تحرق بيتك بمن فيه. لكي تولد من جديد يا صديقي لابد أن يموت (فابريسيو) وأسرته.. ليحترق المنزل بمن فيه من موريسكيين ملاعين وما فيه من ماضٍ مُخزٍ وذكريات شائنة. لا يمكن أن تولد من جديد وهناك من يجرُّك للماضي ويعرفك مهما تخفيت وأينما ذَهبت. ثم من هم هؤلاء الذين تفكر فيهم؟!.. موريسكيون حقراء طالما ظلوا عائشين في هذه الحياة سيظل مصيرك مرهونًا بهم إلى الأبد وستحترق في النهاية بنفس النار التي ستلتهمهم. لا أمل لك في النجاة معهم يا (فابريسيو). بل كل أملك في التخلص منهم.
ولكن..
لم يعطه فرصة للتفكير فواصل الحديث مفسرًا:
سنحرق المنزل في الفجر.. وفي الصباح لن يكون هناك (فابريسيو) ولا عائلته.. الكل مات محترقًا بالنيران التي أشعلها (أوريليانو) في منزل (فابريسيو) انتقامًا له لواقعة السوق وسيشهد الجميع أنه هددك بالقتل أمامهم في العرس.

ابتلع (فرَّاج) لعابه وهو يتخيل الأحداث في ذهنه ثم قال:
وماذا يحدث بعد هذا؟
أكمل فحيحه في أذن (فرَّاج) قائلًا:
سيُقبض على (أوريليانو) وينتهي أمره.. وأنت سآخذك إلى قريب لي في بلنسية..
اندهش (فرَّاج) من سماع اسم بلنسية تلك المدينة العظيمة التي طالما يحلم بها كل طامح أو ناجح:
بلنسية؟!
نعم.. بلنسية عالم كبير نستطيع فيه أن نصنع لك شخصية مسيحية جديدة وسيسهل اندماجك هناك بين آلاف الناس. سيزوِّر قريبي لك كتابًا أخضر يثبت نقاء نسبك المسيحي لأحد الأسر المسيحية العريقة منذ الأجداد القدامى، ومن يعلم فقد يلحقك للعمل في كنيسة بلنسية الكبرى وأنت تعلم ما الذي يعنيه انضمامك إليها.. ستلتحق بجنود الكنيسة أو الجيش الملكي أو البحرية بأسطول الأرمادا العظيم أعظم أساطيل الأرض.. أو على أقل تقدير تصير أحد رهبان الكنيسة أو مفتشيها..
تدلى فك (فرَّاج) وهو لا يصدق أن أحلامه كلها يمكن أن تتحقق بهذه السهولة. فقط شعلة نار واحدة تضمن له مستقبلًا باهرًا وتحرق كل ماضيه المخزي في بضع دقائق. لن يُذل بعدها أبدًا وسيعيش كريمًا عزيزًا بين النبلاء والقساوسة والفرسان. نعم هذا هو الخلاص. لكن بين هذه الصورة المشرقة لمستقبله أطلَّت على ذهنه صورة باهتة لأمه وأخيه (كريستوفال) يحترقان ويصرخان ألمًا، لكن (خوليو) الثعبان كان أذكى من أن يعطي مشاعر (فرَّاج) الفرصة لتسيطر عليه فصاح مستحثًّا:
ما الذي تفكر فيه يا (فابريسيو)؟.. الوقت يمر. الليلة هي الفرصة المثالية لميلادك الجديد. لو طلع الفجر واستيقظ واحد فقط من الحي دون أن ننفذ ذلك فلا أمل لك مرة أخرى في هذه الحياة بل وربما يستطيع ذلك التعس التمكن منك وقتلك ولن تستطيع الأخوية حمايتك طوال الوقت خاصة في هذا الحي.. الاختيار أبسط مما تتخيل تحرق ماضيك وتولد من جديد كمسيحي إسباني، أم تتمسك بماضيك لتموت معهم اليوم أو غدًا؟.
ثم قام (خوليو) ومد يده لـ(فرَّاج) الذي تردد قليلًا قبل أن يحزم أمره بعد أن أتقن الثعبان (خوليو) رسم الخطة وإقناع رأسه السكيرة وسيطر بشباكه اللزجة حوله. لم يكن أمرًا صعبًا على أي حال. كانت الأفكار الشيطانية تزاحم عقله وكانت تحتاج فقط من يرتِّبها وينمِّقها في خطة مترابطة ما، وها هي الأقدار تساعده دونما أي تدخل منه. حزم أمره أن الليلة ستكون الليلة الأخيرة له كـ(فابريسيو) ابن الزانية الموريسكية وغدًا سيكون اليوم الأول له في حياته الجديدة. فمد يده إلى (خوليو) معلنًا موافقته على الخطة واستعداده لتنفيذها الآن فورًا.
لم يمض وقت طويل حتى استطاع (فرَّاج) و(خوليو) أن يعبرا شوارع الحي الضيقة في خفة وسرعة وخفاء بعيدًا عن أعين دوريات العسكر وصولًا إلى بيت (فرَّاج). كان الحي يغط في نوم عميق وقد مر منتصف الليل ونام الجميع ولم يعد هناك من أثر لليلة العرس فصارت الشوارع مهجورة تمامًا إلا من بعض الكلاب الضالة المتثائبة. وقف (فرَّاج) يتأمل منزله للمرة الأخيرة. لا يشعر بأي حنين تجاهه الآن بل يشعر أنه مقبرة صماء لـ(فرَّاج- فابريسيو) الذي لن يعبر عتبته بعد الآن لا هو ولا أمه ولا (كريستوفال). أمسك (خوليو) بمشعل كان معلقًا على أحد جدران البيوت بغرض الإضاءة وأخرجه من مسنده ثم توجه به إلى (فرَّاج) ومده إليه. لكن (فرَّاج) لم يمسكه منه وتجاهله تمامًا وهو يقف كالصنم متأملًا المنزل للمرة الأخيرة. خشي (خوليو) أن تغلبه العاطفة ويتراجع في اللحظات الأخيرة، لكن (فرَّاج) تقدم بخطوات ثابتة واثقة إلى فراغ ضيق بين البيوت وأتى بقائم خشبي عريض

كان يستخدمه بعضهم في مختلف الاستخدامات كالرفع والتثبيت. حمله بصعوبة ثم توجه به بخطوات ثابتة إلى باب منزله. فهم (خوليو) ما كان يفعله (فرَّاج) وابتسم مطمئنًا أنه الآن لن يتراجع مطلقًا. قام (فرَّاج) بتثبيت القائم الخشبي العريض أمام باب المنزل وعلقه عرضيًّا على إطار جانبَيْ الباب بحيث يمنعه أن يُفتح مهما حاول أحد فتحه من الداخل ليضمن ألا يستطيع أحد الخروج من المنزل أو النجاة من النيران. وبعد أن انتهى أمسك الشعلة النارية من يد (خوليو) في ثبات وتقدم لبضع خطوات ثم توقف للحظات متأملًا. حزم أمره مرة أخيرة ثم أخذ نفسًا عميقًا يستجمع به شجاعته ثم رمى بالشعلة على سقيفة المنزل. كان يعلم أن النيران إن أتت من أعلى المنزل فلا مفر لمن بالداخل بعد غلق الباب بإحكام الآن. فالمنزل لا مخرج ولا مهرب منه إلا من خلال الباب الأمامي أو من خلال سقيفة المنزل التي يجيد (كريستوفال) القفز خلالها من بيت إلى بيت. أما الآن لا مفر لهما لو أتت النيران من سقيفة المنزل خاصة وأنها تحوي كميات كبيرة من القش وأغصان الأشجار وبقايا النباتات الجافة أو مخلفات الحيوانات التي تستخدم كوقود.

شده (خوليو) من يديه ليبتعدا عن المكان قبل أن ترتفع ألسنة اللهب ويبدأ الناس أو الدوريات في الهبوب للنجدة لكن (فرَّاج) كان متجمدًا أمام منظر اللهب المتصاعد وكأنه ينتظر أن يأتيه الدليل على نهاية هذه المرحلة من حياته. أما (خوليو) فلم يمهله المزيد من الوقت وأخذ يجذبه بعنف بعد أن بدأت رائحة الدخان تنتشر في الجوار وبدأت أضواء اللهب تلمع في ظلام الليل وصوت الزمهرير يعلو في السكون. تحرك (فرَّاج) مع (خوليو) بعيدًا عن المشهد وبعد بضع خطوات سمع صوت صريخ أمه من داخل المنزل فتوقف مذعورًا يلتفت في حدة إلى مصدر الصوت. لا شيء يراه لكن صوت صراخ أمه وهي تنادي على (كريستوفال) في ذعر شقَّ صدره وزلزل كيانه وهو يرى النيران تلتهم سقيفة المنزل وتنتشر في جوانبه ثم سمع صوت خبطات قوية على الباب. يبدو أنهما يحاولان أن يفتحاه في قوة. لوهلة ترقرقت عيناه بالدموع المرتعدة وهو يقف متجمدًا يرى جراء فعلته الشنيعة وهناك صوت صارخ آخر ينطلق من قلبه ويشق صدره صائحًا به في غضب: ماذا فعلت أيها الجاحد!!!

جذبه (خوليو) في عنف وهو يصيح به هامسًا:

فات أوان التراجع الآن يا (فابريسيو).. هيا لنهرب بسرعة قبل أن يكتشف الناس أمرنا.

وفعلًا كانت هناك أصوات ذكورية صائحة تأتي من بعيد، فانطلقا بعيدًا عن المكان حتى وصلا إلى مكان بعيد خفِي يستطيعان فيه مراقبة الأمر فأخذا موقعهما يراقبان من بعيد. كانت المشاعر المتعاركة تتزاحم على عقل وقلب (فرَّاج). فرغم فرحته أنه الآن يسطر شهادة وفاة (فرَّاج) أو (فابريسيو) الموريسكي ويكتب شهادة ميلاد جديدة له يبني بها مستقبلًا باهرًا، إلا أن قلبه يكاد ينخلع من صدره أمام هذا المشهد الصادم ولم يكن يظنه بهذه الشناعة وهو يرى المنزل الذي تربى فيه والنيران تلتهمه كله وقد بدأ الناس عبثًا يحاولون إطفاء النيران أو إنقاذ أمه وأخيه وصوت صراخ النساء تختلط بصيحات الرجال واستصراخهم واختفى صوت أمه وأخيه ربما إلى الأبد. وبدأ المنزل يتداعى بعد أن التهمت النيران أعمدته الخشبية. أيقن (فرَّاج) حينها أن خطته قد نجحت وأن كلَّ من بالمنزل قد قضَوا نحبهم لا محالة بما فيهم هو نفسه. فأشاح بوجهه بعيدًا عن المنظر وأسند ظهره إلى حائط في استسلام يحاول أن يتفهم تبعات فعلته وما عليه أن يفعله الآن. صاح به (خوليو) في صوت خفيض:

هيا يا (فابريسيو).. ليس لدينا المزيد من الوقت.. علينا أن ننطلق الآن إلى بلنسية قبل الفجر حتى لا يلمحنا أحد.

همَّا بالتحرك والهروب تحت جنح الليل، لكن شيئًا ما دفع (فرَّاج) أن يلتفت مرة أخيرة إلى مشهد البيت المحترق. شيئًا ما يدفعه أن ينادي على أمه وأخيه طالبًا منهما الغفران لما فعله بهما. لكن على النقيض كان هناك شيء آخر يدفعه دفعًا أن يصيح فرحًا بحريته أخيرًا من نِير هذه الحياة الذليلة. صرخة مدوية من داخله تريد أن تتحرر لتفرغ من بركان ثورة المشاعر المتضادة التي تستعر في صدره.. لم يستطع أن يكتمها فصاح بأعلى ما في صوته وخيط رفيع من دمعة وحيدة تجرَّأت وسالت على وجنته وهو يرى المشاهد الأخيرة للبيت المحترق من بعيد:
اذهبوا إلى الجحيم..
صرخ بها وأتبعها بضحكة هستيرية مختلطة بنبرة نصر مزيفة ورعدة انهزام فؤاده تحت وطأة عقله السكير. انتبه (خوليو) لفداحة الموقف فبالرغم من انشغال الجميع بالنيران وصعوبة أن يكون أحد ما قد سمعه أو انتبه إليه وسط الجلبة إلا أنهما لابد أن يهربا فورًا فالخطر متزايد الآن خاصة مع اقتراب قدوم دورية الحراس. فجذب (فرَّاج) من ملابسه ليذهبا بعيدًا في الاتجاه المعاكس، واستسلم (فرَّاج) أخيرًا لـ(خوليو) وبدأ في التحرك معه بعيدًا عن الجلبة والأحداث والزحام. لكن عندما التفت بجسده لمحت عيناه الزائغتان ذلك الشبح من بعيد وهو يقف صامتًا مراقبًا لـ(فرَّاج) و(خوليو).
لم يلحظ (خوليو) ذلك الشبح وهو يستطلع طريقهما في كل اتجاه بينما استطاع (فرَّاج) بالرغم من عقله المغيب وعينه الزائغة أن يتبين صاحب ذلك الظل. لقد كانت (صبح) تقف في ركن بعيد تراقب (فرَّاج) و(خوليو) في صمت وترقب بعينين جامدتين بدتا في الظلام كما لو كانتا عينين فقدتا الحياة لروح آتية من أعماق الجحيم. كانت جامدة الملامح كما لو أنها تمثال من الرخام الأسود تحت ظلام الليل وأضواء اللهب المتراقصة من بعيد تنعكس عليها لتبدو أكثر غموضًا وأكثر رعبًا كالأشباح. لم يكن هناك من شك لدى (فرَّاج) أنها كانت (صبح). كيف ومتى أتت وماذا شاهدت لا يعلم (فرَّاج) شيئًا. وبحركة سريعة منه وضع سبَّابته على شفتيه موجهًا أمره الصارم إلى (صبح) أن تصمت وتكتم السر. تأكد من اهتزاز جسدها أن (صبح) قد رأته ووصلتها رسالته، لكن لم يمهله (خوليو) الكثير من الوقت وجذبه ليختفيا في الظلام بعيدًا عن الحي الموريسكي.

(٤)

عندما نام الشيخ (عبد الصمد) مرة أخرى وغاب عن الوعي تركه أربعة الفتية في غرفته. لم تَدَعْ (صبح) هذه الليلة تمر دون أن تنال مبتغاها. استطاعت أن تُوقع أحد الرجال الموريسكيين في شباكها، فبالرغم من أنها لم تحقق مأربها بالنيل من أحد الموريسكيين الميسورين بعد أن طغت رقصة (حمدة) عليها وقللت من حظوظها، إلا أنها تقبلت الأمر وأوقعت أحدهم في شباكها فواعدته أن تلتقيه عند منتصف الليلة في كوخ من القش بين أحد الحقول. وما إن استطاعت أن تتملص من البيت رحلت في خطوات خفيفة متسللة عبر الحقول إلى أن أتت الكوخ فوجدت الرجل في انتظارها سكران. كان يبدو من هيئته أنه قد أفرط في شرب النبيذ حتى سيطر عليه فبدا مهزوزًا زائغ البصر فاقدًا للسيطرة على نفسه. كانت هذه هي الهيئة المثالية للضحية التي تنتقيها (صبح). فبهذه الهيئة تستطيع أن تسيطر وتنال ما تريد ولا ينال هو ما يريد. حاول أن يرتمي عليها بعد أن جلست إلى جواره فنهرته وطلبت منه أن يدفع لها أولًا فرمى لها بعض المرافيدس وبعد أن اطمأنت للنقود بادرت هي وارتمت عليه لِأَلّا تعطيه اليد العليا فبدءا على الفور يتبادلان القُبل. وكعادتها تركت له بعض جسدها ليعبث فيها بعشوائية وشهوانية بينما تعبث هي في أكثر أماكن جسده حساسية بحرفية عالية فما هي إلا بضع دقائق وقضى

الرجل وطره وسال ماؤه بينما هي لم تكشف عن جسدها بعد ولا نالت يداه منها إلا مرور الكرام وما وهبته إلى كرم الضيافة.
مع سكره وانتفاضة جسده ارتمى الرجل غائبًا عن الوعي كجثة هامدة، بينما قامت (صبح) وعدَّلت من ملابسها وهمت بالرحيل والعودة إلى بيتها قبل أن يكتشف أحد غيابها. وبينما هي تعدل من ملابسها شمَّت رائحة الدخان تعبق أنفها. كان أمرًا غريبًا جعلها تخرج من الكوخ تبحث عن مصدر هذا الدخان فلمحت أضواء النيران تأتي من الحي الموريسكي. ذهبت في خطوات سريعة إلى مصدر الدخان وهي تتخفى بين البيوت والشعب والحقول حتى أتت أطراف الحي واستطاعت أن ترى بعينها بيت (طاهر) و(فرَّاج) والنيران تلتهمه والناس يحاولون عبثًا إطفاء النيران. أخذتها الصدمة لدقائق تسارعت فيها دقات قلبها. (طاهر) المسكين وأمه الطيبة و(فرَّاج) بداخل المنزل يحترقون. يا لها من كارثة تحل على الحي!. وقبل أن تسترسل في مشاعرها أتى صوت صارخ من مكان قريب منها:
اذهبوا إلى الجحيم..
التفتت في حدة إلى مصدر الصوت فوجدت (فرَّاج) و(خوليو) وهما يتلصصان على البيت المحترق ويراقبانه مراقبة الجاني لضحيته ليتأكد من نجاح جريمته. لم يكن من الصعب عليها أن تفهم الأمر. (فرَّاج) ليس في البيت المحترق. أكيد أن لـ(فرَّاج) و(خوليو) يدًا في هذا الحريق لسبب ما. ها هما ينسحبان كاللصوص وسط الظلام. لكن (فرَّاج) شاهدها وعرفها ثم أشار لها بإصبعه أن تصمت وتكتم السر. أي سر؟ لا تعلم لكن حتمًا ستعلم وحتى تعلم ستصمت ثم تستغل الأمور لصالحها. لن تقف مكتوفة الأيدي لاحول لها ولا قوة. قوة المعرفة هي ما تملكه الآن ويتبقى لها الحكمة في استخدام هذه المعرفة.
قبيل هذه الأثناء كان (عُمَير) يدَّعي النوم إلى جوار (الغريب) بعد أن غاب الشيخ (عبد الصمد) عن الوعي. لم يكن (الغريب) نائمًا وإن كان مغمض العينين. شعوره باقتراب أجل الشيخ (عبد الصمد) يؤرقه. أما (عُمَير) فاعتدل وهمَّ بالرحيل من الغرفة. شعر (الغريب) بحركته فنادى عليه فأخبره (عُمَير) برحيله. ودَّعه (الغريب) واحتضنه وطلب منه الحرص في رحلته الخطرة وسأله عن مساره فأخبره أنه لن يرحل مباشرة ولكن لديه شيء أخير يفعله قبل الرحيل. وقبل أن يخرج من المنزل، اتجه إلى غرفة جده واقترب من فراشه. تحسس جبهته وتأكد من تردد أنفاسه الضعيفة وطبع على جبهته قبلة حانية ثم خرج من المنزل وأغلق خلفه الباب ومضى في اتجاه الكهف الجبلي للسيد (ناصر)؛ حيث أعد هناك عدة السفر.
كانت خطته أن يقضي بقية الليلة والنهار التالي عند السيد (ناصر) في كهفه الجبلي ثم يرحل في مساء الغد. أتى الكهف الجبلي واستقبله السيد (ناصر) ثم اتخذ موضعًا لينام فيه. وقتٌ قليل مر قبل أن يطل الفجر بأضوائه الفضية واستشعر استعداد الشيخ (ناصر) لصلاة الفجر فقام للاستعداد للصلاة لكنه سمع جلبة ما في محيط الكهف وهمهمة غريبة من فتية الشبيبة فخرج (عُمَير) ليستفسر عن سر هذه الهمهمة. فما إن خرج إلى محيط الكهف؛ حيث يلتقي الفتية للصلاة صمت جميعهم وهم يرمون (عُمَير) بنظرة غريبة مستفسرة أو متحفزة لم يفهم (عُمَير) معناها وهمَّ يسألهم عن الأمر حتى أتى صوت السيد (ناصر) صائحًا في (عُمَير):
ماذا فعلت يا (عُمَير)؟
كان سؤالًا مباغتًا غير مفهوم من السيد (ناصر). ربما يقصد ما حدث في ليلة العرس وشجاره مع (فرَّاج) فهمَّ أن يشرح للسيد (ناصر) الذي باغته بسؤال آخر:

هل أعماك الانتقام لتقتل الأبرياء.. ماذا فعل لك (طاهر) وأمه؟
وقف (عُمَير) كالأبله قبل أن يقول أحد الفتية:
لقد علم الجميع ما صنعته وإحراقك لبيت (فرَّاج) بعد أن هددته في ليلة العرس..
ماذا؟!!!
قالها مصدومًا ثم أتبعها:
ماذا تقولون؟ أي إحراق وأي بيت؟
لقد مات (طاهر) وأمه و(فرَّاج) حرقًا في بيتهم وتواردت الأنباء وتناقل الأشهاد أنك نفذت وعدك في العرس بالانتقام وقتل (فرَّاج).. ودوريات الشرطة كلها تبحث عنك لتقديمك للعدالة.
ثم تبعه السيد (ناصر) بغضب:
ما الداعي لذلك يا (عُمَير).. ما الداعي!
صاح (عُمَير):
(طاهر)!!! أنا لم أفعل شيئًا!!! لقد تشاجرت في العرس مع (فرَّاج) ثم ذهبت وودَّعت جدي ثم قدمت إلى هنا على الفور..
صمت الجميع منكرين أو مستفسرين. فقال (عُمَير) مسترسلًا:
أنا أقتل (طاهر) صديقي الصدوق حرقًا؟! هذا لا يمكن.. حتى ولو وددت قتل ذلك المسخ (فرَّاج) لا يمكن أن أؤذي (طاهر) وأمه أبدًا.
فكر قليلًا ثم رد السيد (ناصر) في تعقل:
لو أني أجهلك لقلت إنك كاذب يا (عُمَير).. لكنك تربيت على يديَّ هاتين ولن تستطيع أن تكذب عليَّ أبدًا.. يبدو أنك وقعت ضحية خدعة محكمة نفذها أحد ما بقصد التخلص منك.. لكن هذا أسوأ توقيت يحدث فيه هذا الأمر.
فردَّ أحد الفتية:
دوريات العسكر تنبش الحي منزلًا منزلًا و(أوليبا) كلها بحثًا عنك ويستحيل أن تهرب اليوم.
حكَّ السيد (ناصر) ذقنه الكثيفة وغمغم قائلًا:
سيكون من المستحيل خروجك من (أوليبا) الآن بل قد يكون مكوثك هنا خطر عليك وعلينا أيضًا. لابد أن نبحث لك عن مكان آمن تختبئ فيه بضعة أيام حتى تهدأ الأمور ثم نهرِّبك بطريقة ما، ولكن ما هو المكان الآمن الذي لا يستطيع العساكر الإسبان أن يفتشوه؟
صاح (سعيد) أحد الفتية وأحد المقربين لـ(عُمَير) قائلًا:
عندنا في مساكن العاملين في بيت الدون (دييجو)..
صمت الجميع يفكرون بينما وقف (عُمَير) تائهًا ولا تزال صدمة المفاجأة بادية على وجهه، فقال السيد (ناصر):
هذه فكرة جيدة. بيت الدون (دييجو) لا تجرؤ دوريات الشرطة أن تفتشه في الوقت الذي يعجُّ بالعمال الموريسكيين وأهاليهم. هل تستطيع أن تدخله دون أن ينتبه إليكما أحد؟
فقال (سعيد) مؤيدًا:
بالطبع.. هناك العديد من المداخل السرية التي نستخدمها بعيدًا عن الحراس. بعد ذلك يمكننا أن نخفيه في مبيت العائلات أو المزرعة الملحقة بالقصر أو حظائر الحيوانات التي لا يتفقدها الحراس أبدًا. يمكنه البقاء معنا بضعة أيام بلا مخاطر حتى يحين وقت رحيله.

فقال الشيخ (ناصر):
حسنًا يا (عُمَير)، لا خيار لدينا إلا هذا. عندما تغرب الشمس تتخفى وترحل مع (سعيد) إلى بيت الدون (دييجو) وتمكث هناك بضعة أيام. (سعيد) سيكون حلقة الوصل بيني وبينك. عندما أتأكد من وجوب الرحيل وأن الظروف قد أصبحت مواتية سأرسل لك (سعيد) بالخبر. هيا استعد.
هز (عُمَير) رأسه موافقًا رغم صدمته في صديقه (طاهر). (طاهر) الطيب يموت حرقًا ويُتهم هو في ذلك! أهو تخطيط شيطاني أم كارثة عشوائية. فليمت (فرَّاج) حرقًا أو سحقًا لا يهتم له أمرًا، لكن (طاهر) أكثر طيبة من أن يموت بهذه الطريقة. صدمته في موت صديقه (طاهر) أنسته أن سنين طويلة من المطاردة والهروب قد بدأت بالفعل. لقد كان مستعدًّا لهذه الحياة على أي حال. ما الفارق أن يعيش مطاردًا من الإسبان بسبب انضمامه إلى المجاهدين أو بسبب تهمة باطلة أخرى تلصق به. لا فرق! نفس النتيجة النصر أو الشهادة. لن يهتم أحد بالبحث والتنقيب عن براءته. لقد صار مُدانًا منذ الوهلة الأولى بل مدانًا قبل أن يحترق المنزل بل مدانًا منذ وُلد موريسكيًّا.

(٥)

في الصباح كانت المفاجأة صادمة لـ(لغريب) و(حمدة). موت (طاهر) صديقهما الطيب حرقًا بهذه الطريقة واتهام (عُمَير) بالجريمة بعد أن اختفى عن الأنظار زاد الصباح قتامة مع موت الشيخ (عبد الصمد) عندما دخلت عليه (صبح) في الفجر ووجدته جثة باردة لا حراك فيها ولا أنفاس. ليلة واحدة مات فيها ربيبهم وقُتل فيها صديقهم (طاهر) واختفى رفيقهم (عُمَير) بعد أن نفذ فعلته كما يؤكد الجميع. وقف (الغريب) يتأمل أنقاض بيت (طاهر) بعين دامعة وقد استطاع أهل الحي أخيرًا أن يطفئوا النيران بعد أن هدم المنزل إذ ظل مستعرًا طوال الليل حتى قُضي على جميع من فيه ولم يستطيعوا أن يُنقذوا أيًّا من ساكنيه. مرت دقائق طويلة وهو يتأمل هذا المشهد الحزين وخيوط الدخان لا تزال تنبعث من بين الأنقاض بينما يتذكر (طاهر) واللحظات الأخيرة لهما معًا في العرس. كم كان حيًّا وحيويًّا يملأ الدنيا طيبة وحبًّا ولطفًا. ما هو شعور الموت حرقًا؟ لابد أنه شيء فظيع. كم دام شعوره بآلام الاحتراق قبل أن يموت ويفقد الإحساس؟ لحظات أم دقائق أم ساعات؟ شعر بقشعريرة باردة تسري في أوصاله عندما واتته هذه الأفكار. فقرر أن يرجع إلى بيت الشيخ (عبد الصمد)؛ حيث الفتاتان (حمدة) و(صبح) تؤنسان جسد الشيخ (عبد الصمد) في رحلته الأخيرة. عندما وصل إلى المنزل ودخل غرفة الشيخ وجد (حمدة) باكية منهارة بجوار الجسد المسجَّى للشيخ المُتوفَّى وقد تغطى بشرشف أبيض كتاني. بينما كانت (صبح) جالسة شاردة في أحداث تلك الليلة تحاول أن تربط خيوطها لتنسج قصة حقيقية يتقبلها عقلها حتى انتبهت لـ(الغريب) فسألته:
هل أخرجوا جثث القتلى؟
سمعتها (حمدة) فازداد نحيبها، فرد (الغريب):
لم تُبق النيران منهم إلا على أشلاء لا معالم لها.. لا أصدق أن يقوم (عُمَير) بهذا الفعل الشنيع.
انحرفت (صبح) برأسها بشدة ناحية (الغريب) سائلة في استنكار:
ماذا؟ (عُمَير)؟
نعم.. الجميع في الخارج يؤكدون أنه (عُمَير) بعد مشاجرته أمس مع (فرَّاج). كان تهديده له واضحًا للجميع ثم اختفاؤه منذ ليلة أمس. دوريات الشرطة تبحث عنه في كل مكان.
قالت (حمدة) بصوت متهجد تقطعه أنَّات البكاء:

يستحيل أن يفعل (عُمَير) مثل هذا الفعل.. (طاهر) كان صديقًا عزيزًا علينا جميعًا حتى لو أراد الانتقام من (فرَّاج).
صمتت (صبح) تفكر في عمق محاولة أن تفهم ما آلت إليه الأمور ومعطياتها لتستنتج الملعوب. (فرَّاج) و(خوليو) كانا موجودين في مكان الحادث متخفيين. (فرَّاج) لم يمت ولكن صار موته حقيقة واقعة يصدقها الجميع. (عُمَير) من الممكن أن يكون هو الفاعل ولكن إن كان هو الفاعل فلماذا يتخفى (فرَّاج) و(خوليو) ولماذا صمتا على فعلته وكانا يراقبان الأمور. أين (عُمَير) من كل هذا؟ ولماذا أمرها (فرَّاج) بالسكوت وكتمان أمره؟ لم يستطع عقلها أن يصدق أن يقوم (فرَّاج) بحرق بيته وقتل أسرته فقط لإلصاق التهمة بـ(عُمَير) والتخلص منه. هل يستحق (عُمَير) كل هذا العناء؟ ولماذا يتخفى (فرَّاج) إن أراد إلصاق التهمة بـ(عُمَير) في موت أخيه وأمه؟ وأين هو وإلى أين يذهب؟
أسئلة كثيرة تراودها لكنَّ سؤالًا واحدًا مهمًّا يلح عليها الآن. هل تكتم ما رأته أم تروي للجميع أنها شاهدت (فرَّاج) و(خوليو) في موقع الحادث يراقبان ويخططان ويهربان؟ إن لم تتحدث ستُلصق التهمة بـ(عُمَير) حتمًا وسيقبض عليه وينتهي أمره. ولكن ماذا يحدث لو تكلمت وكشفت الأمور وفضحت (فرَّاج) وصاحبه؟ هل سيصدقها أحد؟ هل سيصدق أحد أن (خوليو) الإسباني و(فرَّاج) خادم الإسبان المقرب منهم هما المنفذان لتلك الجريمة ويصدقون على براءة (عُمَير) الموريسكي الأرعن المنبوذ؟!
بالطبع لا. وستكون هي الخاسرة الوحيدة. (عُمَير) مفقود لا محالة. كان ينبش قبره منذ سنين ونهايته كانت ستأتي اليوم أو غدًا. ولن تفيده شهادتها بل ستضرها هي. قررت (صبح) أن تصمت وتراقب الأمور لتربط كل الخيوط ثم تحركها كيف تشاء من أجل مصلحتها هي فقط. هي فقط من تستحق التضحية والعناء والجهد. لم يعد لها في هذه الحياة من أحد آخر تهتم به. مات جدها، وأخوها في عداد المفقودين. ولا يجمعها بـ(الغريب) أو(حمدة) إلا هذه الجدران البالية. لم يقطع تفكيرها إلا دخول رجال من الحي إلى غرفة الشيخ (عبد الصمد) وبدؤوا في إعداد جثمانه للدفن فتعالى بكاء (حمدة) ونكَّس (الغريب) رأسه في أسى. أما (صبح) فأخذ عقلها يعمل في سرعة تبحث عن خطوتها القادمة. ويبدو أنها قد وجدتها، ويبدو أن (أوليبا) ليست جزءًا من خطتها بعد الآن.

(٦)

تجنب (سعيد) السير ببغلته في دروب (أوليبا) العمومية لما معه من حمولة خطيرة. كان يحمل فوق البغلة كيسين مفتوحين على جانبي الدابة محمَّلين بكومتين عاليتين من القش كما لو كانا جبلين لا يظهر منها غير رأس البغلة ومؤخرتها، وكان (عُمَير) متخفيًا داخل إحدى الكومتين بحيث لا يظهر منه شيء بينما يسير (سعيد) في دروب مهجورة وعِرة بعيدة عن عيون دوريات الشرطة متجهًا إلى قصر الدون (دييجو) ليخفي (عُمَير) في أحد الحظائر التي يشرف هو وأهله على خدمتها ولا يقصدها الحراس أبدًا. كان (عُمَير) مختنقًا تحت كومة القش من رائحة القش الجاف بينما يجلس القرفصاء في أحد الكيسين ضامًّا رجليه إلى صدره مما آلم قدميه وظهره خاصة مع الطريق الوعر الذي يسلكه (سعيد).
استطاع (سعيد) أن يعبر الطرق الوعرة وتجنب المرور في الحي الموريسكي وقد وصل الآن إلى منطقة قصور النبلاء؛ حيث مروره بين الحراس الإسبان شيء اعتيادي يقوم به يوميًّا لنقل السماد أو القش أو طعام الحيوانات من وإلى قصر الدون (دييجو) وبالتالي لا أحد يشك فيه. لكنه بدلًا من التوجه

إلى البوابة الرئيسة سلك طريقًا فرعيًّا آخَر موازيًا للسور الحجري الجنوبي للقصر وأعماله، ثم مضى في خفة وهدوء ليبعد عن الأماكن المكشوفة من الطريق إلى أن وصل إلى جزء من السور منخفض الارتفاع؛ حيث تغطيه شجرة عظيمة متدلية الأغصان على جانبي السور الداخلي والخارجي فتوقف. ثم نادى على (عُمَير) أن يخرج بعد أن تأكد من عدم وجود عيون تراقبه. اهتزت كومة القش وخرج منها (عُمَير) كما لو كان قد بعث من جديد بعد دفنه وتنفس الصُّعَداء. ساعده (سعيد) على الخروج من الكيس الكبير حتى خرج واعتدل واقفًا متأوهًا بعد عدة ساعات من جلسة القرفصاء. فأشار له (سعيد) بالهدوء ثم أخذ يشرح له أنه هنا في أكثر الأماكن أمانًا لدخوله. وهذه الشجرة كافية لإخفاء تسلله إلى داخل القصر. إذ عليه أن يتسلق أفرع الشجرة وينتقل إلى الجانب الآخر من السور ثم ينتظره تحت تلك الشجرة في الجانب الآخر. ونصحه أن يأخذ حذره ويتخفى جيدًا ولا يُصدر صوتًا. أما (سعيد) سيدخل من الباب الرئيس ويقابله عند الشجرة من الداخل. فهم (عُمَير) الخطة وشرع في تسلق الشجرة و(سعيد) يلتف يمينًا ويسارًا ليتأكد من خلو الطريق حتى اختفى (عُمَير) في الجانب الآخر من السور الحجري. فتحرك (سعيد) تجاه البوابة الرئيسة.

لم يكن صعبًا على (عُمَير) تسلق الشجرة أو عبور السور الحجري المنخفض بعد أن قذف بصُرَّته التي تحوي بعض ملابسه. ثم قفز على أرض مليئة بأوراق الأشجار المتساقطة وأغصان جافة مُحْدثًا صوت سحق أوراق الأشجار وتكسير الأغصان الجافة. وبعد أن اعتدل أراد أن يطمئن أنه لا أحد قد أدركه وكاد يتنفس الصُّعَداء مطمئنًا إلى أن وقع بصره على جواد وفارس يرمقه في صمت من بعيد من بين جذوع أشجار كثيفة. سرت الرجفة في قلبه وقد أيقن أنه مقبوض عليه في هذا الوضع لا محالة فسمَّرته المفاجأة. تقدم الفارس في هدوء غريب ناحية (عُمَير) المتحفز، فأخذ (عُمَير) يتفرس في ملامحه حتى يستطلع نواياه. مع تقدم الفارس بجواده ناحيته في هدوء، بدأت تظهر ملامحه شيئًا فشيئًا. لم يكن فارسًا ولا حارسًا ولا عسكريًّا من الأساس. كان جوادًا أبيض شاهقًا بسرج مذهب ذي نقوش أندلسية جميلة ليست كما يرتادها العساكر والإسبان. وكان الفارس يعتمر عباءة حريرية بيضاء ذات قلنسوة عريضة تبدو أنها نسائية. هذا ليس بفارس ولا حارس إنها سيدة من القصر آتية على فرسها الأبيض بهدوء وثقة ناحية (عُمَير) حتى وقفت أمامه مباشرة. فاعتدل (عُمَير) متفرسًا في ملامحها. إنها (ماديلينا) ابنة الدون (دييجو). تقدمت بجوادها بخطوات بطيئة حذرة تجاهه حتى أصبحت على بعد بضع خطوات منه فتوقفت لبرهة تتفحصه. كان يعرفها (عُمَير) جيدًا.

كانت تأتي مع الدون (دييجو) لزيارة جده وكانت تلعب وتلهو وتتسامر مع (صبح) و(حمدة) و(الغريب). أما (عُمَير) فكان ينسحب من المنزل حال قدوم الدون وابنته، لكن كانا يتقابلان للحظات عند مدخل البيت. وكان (عُمَير) بالرغم من قرب الدون من الشيخ (عبد الصمد) يكره الدون فقط لكونه أحد الأسياد الإسبان الذين يسيطرون على (أوليبا) وعلى مقدرات موريسكيي (أوليبا). وبالتالي كان يتجنب الحديث مع (ماديلينا) أو التقرب منها بالرغم من كونها لطيفة معهم وَدُودة في معاملتها رقيقة في كلامها. كانا يعرفان بعضهما البعض ولا مجال للشك في ذلك.

ظلت (ماديلينا) محملقة في (عُمَير) المتسمِّر في مكانه بتحفز قبل أن تقول:

أنت (أورليانو) حفيد (بينيديكتو) أليس كذلك؟

لم يرد (عُمَير) وظل واقفًا متجمدًا وعيناه مثبتتان على وجه (ماديلينا) في مزيج من الذعر والحذر محاولًا أن يرتب أفكاره لخطوته القادمة فأكملت في هدوء:

لقد مات (بينيديكتو) هذا الصباح.. وأبي حزين عليه.

شعر (عُمَير) بغصة في حلقه عندما سمع خبر وفاة جده. لم تكن مفاجأة له لكن وقع الخبر عليه كان جليًّا إذ سقطت عيناه على الأرض مترقرقة الدمع وارتعد حاجباه في تأثر وهو يبتلع لعابه محاولًا التماسك. رقت (ماديلينا) لحاله فنزلت عن جوادها الأبيض وتقدمت خطوات مقتربة منه ثم سألته في رقة:

ألم تكن تعرف؟! أعتذر إن كنت قد نقلت لك الخبر. لكن ماذا تفعل هنا ولماذا تسللت عبر السور؟

هنا استعاد (عُمَير) حذره مرة أخرى وقد أيقن خطورة الأمر. أراد أن يقول شيئًا لكن لم يسعفه عقله فقال مترددًا:

هل ستأمرين الحراس بالقبض عليَّ؟

قضبت حاجبيها وقالت:

ولماذا أفعل ذلك؟ إلا إذا أردت بي سوءًا. لا أظنك تريد أن تضر بي أو أن تأتي هنا بغرض السرقة مثلًا. أنت ضيفي هنا مثلما استضفتموني في بيتكم أيامًا كثيرة.

وصل (سعيد) مسرعًا قبل أن يتجمد في مكانه عندما وجد (عُمَير) يتبادل الحديث مع (ماديلينا) سيدة القصر وقد ظن أنها مبلِّغة عنه. استطاع عقل (عُمَير) أن يستجمع قواه فقال:

لقد جئت هنا لمقابلة صديقي (سعيد) وسأرحل حالًا.

لكن كانت صرة ملابسه بجواره رأتها (ماديلينا) فقالت:

لا أظنك تنوي الرحيل.. هل جئت لتمكث معه بعد وفاة (بينيديكتو)؟

قال (سعيد) مسرعًا يلتقط خيط النجاة:

نعم يا سيدتي.. سيمكث معي بعض الأيام.. لكن أرجوك لا تخبري الحراس وإلا قبضوا عليه للتسلل إلى القصر. أنت تعرفين أنه غير مسموح لغير العاملين بالمكوث في القصر.

فكرت (ماديلينا) ثم ردت إيجابًا:

نعم.. أنت على حق.. لن أخبر أحدًا.. لكنك ستكرم ضيفي جيدًا أليس كذلك؟

ابتسم (سعيد) واستراح (عُمَير) في وقفته متعجبًا من لطف هذه الفتاة. فهز (سعيد) رأسه موجبًا بينما نمت عن عين (عُمَير) نظرة امتنان وشكر لـ(ماديلينا) الفتاة الرقيقة الجميلة التي امتطت جوادها وألقت نظرة لطف وترحيب بـ(عُمَير) قبل أن تلتفَّ بجوادها وترحل مسرعة تاركة (عُمَير) سارحًا في هذا الجميل من هذه الجميلة. كثيرًا ما سمع (حمدة) و(الغريب) يمتدحان هذه الفتاة وكيف أنها بسيطة رقيقة مجاملة. كانا دائمًا يشعرانه أنهما يتحدثان عن إحدى البنات الموريسكيات من صديقاتهما وليست إحدى بنات النبلاء من الإسبان اللائي يتحاشاهن. ظل (عُمَير) للحظات جامدًا في مكانه يفكر في جميل صنع (ماديلينا) حتى نبهه (سعيد) واستحثه على الإسراع بالتحرك. كان القصر كبيرًا جدًّا بحقوله وأشجاره وكان عليهما أن يقطعانه متخفيين عن العيون حتى يأتيا حظائر الحيوانات؛ حيث أعدَّ (سعيد) مكانًا لـ(عُمَير) بعيدًا عن أعين الجميع لا يعرفه إلا هو بحكم عمله في العناية بالجياد. كان ركنًا في أقصى مكان في الحظيرة يستخدم كمخزن للقش والأعشاب التي تستخدم في غذاء الجياد. وفعلًا وصلا إلى ذلك المكان واستقر (عُمَير) أخيرًا في ركن مخفيٍّ من حظيرة الجياد وقد أعد (سعيد) مخدعًا من الكتان والقش ثم تركه ليأتي له ببعض الطعام. فارتمى (عُمَير) على فراشه المتواضع بين أكوام القش والحشائش ورمى ببصره في سقيفة الحظيرة يفكر.

يا له من يوم طويل قضاه (عُمَير) مضى على غير ما خطط له تمامًا! كان يعتقد أنه كان من المفترض أن يكون في طريقه الآن إلى الجنوب إلى غرناطة. ودون أي مقدمات حدثت كل هذه الأحداث فمات

جده واحترق صديقه (طاهر) واتَهم في قتله وكل دوريات الشرطة الآن في (أوليبا) تبحث عنه بينما هو الآن في آخر مكان كان يتوقع أن يكون فيه. ثم تأتي هذه الفتاة الرقيقة (ماديلينا) وتظهر هكذا بين الأحداث كما لو أنها ملاكٌ أتى من السماء ليبرد عليه من جحيم هذا اليوم البغيض، وما إن أتى ذهنه على ذكر (ماديلينا) حتى فوجئ بها تدخل عليه مكانه بصحبة (سعيد) وهي تحمل في يدها صينية عريضة من المعدن محملة بأطباق مليئة بمختلف الأطعمة وإناء شراب. اعتدل (عُمَير) مندهشًا مما يرى من تلك الحسناء (ماديلينا) بوجهها المبتسم البشوش وهي تتقدم نحوه قائلة:
أعلم أنك مررت بيوم عصيب فأردت أن أشاركك الطعام.
فنظر إلى (سعيد) متسائلًا فقال (سعيد):
لقد جاءتني الآنسة (ماديلينا) وأرادت أن تطمئن عليك وتقدم لك الطعام فأحضرتها إلى هنا.
وضعت (ماديلينا) الوعاء المعدني على الفراش وجلست ثم أشارت لـ(عُمَير) بالجلوس قائلة:
ألا تريد أن تشاركني الطعام مثلما شاركتكم الطعام كثيرًا في بيتكم؟
جلس (عُمَير) مشدوهًا من كرم الفتاة ولطفها معه. أشارت له أن يبدأ بالأكل ولكي تشجعه بدأت هي الأخرى بتناول جزء من فطيرة بينما أدرك (سعيد) أنه لابد له أن يراقب مدخل الحظيرة فخرج تاركًا (عُمَير) و(ماديلينا). كان (عُمَير) جائعًا جدًّا لكن تتابُع الأحداث وتراكمها منذ الصباح الباكر جعله يتناسى جوعه طوال اليوم. أما الآن بعد أن استقر وأمام دعوة الآنسة (ماديلينا) الودودة بدأ يشعر بالجوع الشديد فمد يده على استحياء يتناول بعض اللقيمات دون أن ينزل ببصره عن (ماديلينا). (ماديلينا) نفسها كانت تنظر إليه بود ولطف غير عاديين بالمرة. صداقتها وقربها من بيت الشيخ (عبد الصمد) وقاطنيه قرَّب مسافات بعيدة بينها وبين (عُمَير) لكن مهلًا، هي لا تعلم تهمته بعد. لا تعلم أن كل دوريات الشرطة في (أوليبا) تبحث عنه بتهمة حرق منزل وقتل ساكنيه. هل كانت ستكون بنفس اللطف والود معه إن علمت؟ لا يدري لكنه الآن يجلس في حضرتها يتمتع بودها ووجهها المشرق وبسمتها البشوشة وكرمها الزائد وحمايتها الأمينة. قطعت أفكاره قائلة:
أنت لا تتكلم كثيرًا على غرار أختك (بيليتا).. إنها لا تكف عن الحديث كلما تحدثنا في شأن ما كالدجاجة البيوضة.
استطاعت أن تنتزع منه ابتسامة هادئة مضى عليه زمن طويل لم ينبس بها. لمحت ابتسامته فبادلته ضحكة مرحة رقيقة اهتز لها قلبه. لم تكن هذه بضحكة بشرية أبدًا بهذه الرقة والعذوبة والمرح والطفولة والأنوثة في ذات الوقت. ارتفع حاجباه انذهالًا لجمال ضحكتها وطلاقتها وبراءتها وبديهتها. كانت (ماديلينا) طبيعية تلقائية غير متكلفة. لم تكن تلك فكرته عن أبناء النبلاء أبدًا. كان يظنهم مجموعة من الأطفال البدينين المغرورين أو العدوانيين المتجهمين مثلهم مثل أخيها (بيدرو). لم يستطع إلا أن يقول مشدوهًا:
ما أجمل ضحكتك!
احمرت وجنتاها بسرعة مع ابتسامة خجل مرت على شفاهها. فقامت مسرعة لترحل قبل أن تطل عليه مرة أخيرة وهي تقول:
سأمر عليك كل مساء.. فأنا أستمتع بصحبتك يا (أوريليانو)..
راقبها وهي ترحل بهدوء وتوقفت لقمة في فمه وهو هائم في تلك الروح الملائكية.
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني: الهاربون

لن يحرقوا برُفاتي في ساحاتهم مترنِّمين
لن يُغرقوني حين أهرب سابحًا نحو السَّفين
ولسوف أحيا فوق مجدافٍ يلاصقني سنين
وستنجو رأسي من قطافٍ.. من سيوف الصائدين..
سأعيش من أجل انصهاري باحثًا.. بحرًا وبَرَّا
وأموت بُعدًا.. لا يُهمُّ؛ سأموت حرا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١) رقصة المتحالفين

(١)

بلنسية ١٥٦٦م

بلنسية مدينة حية يمكن للمرء أن يستيقظ بها طوال الليل كله دون أن يَمَلَّ. فبالرغم من وجود الكنيسة الكبرى في بلنسية وملحقاتها ما يضفي على المدينة صبغة دينية، إلا أن المدينة تعج بالمحال وحوانيت الخُمار والخانات مما تجعلها مدينة حية لا تنام، والمسافرون والعابرون بالقرب منها يتخذونها نقطة للملتقى أو مجلسًا للراحة أو المبيت فضلًا عن وجود مقر الأسطول الحربي الشرقي للأرمادا ومرور سفن التجارة القادمة من مختلف الجهات كالبندقية وجِنوا بميناء بلنسية إضافة إلى ثكنات الجيش الإسباني التي يرحَّل إليها الفتية والشباب من مختلف المدن والقرى القريبة للتعلم والتدريب العسكري قبل أن يلتحقوا بالجيش أو الأسطول البحري. كل هذا جعل من بلنسية مدينة نشطة لا تتوقف فيها الحركة طوال اليوم ويأتي إليها كل يوم المزيد من الوجوه الجديدة فضلًا عن الوجوه المعتادة من مفتشي الكنيسة وعساكر دوريات الشرطة ومواكب الأمراء والنبلاء وخدامهم.

داخل إحدى حانات بلنسية أطلَّت (صبح) في فضول من باب جانبي داخلي يطل على صالة الحانة المليئة بالزبائن والراقصات والمغنين فأتتها إحدى النادلات وأشارت لها آمرة بكل امتعاض أن تذهب إلى عملها في الداخل فأطاعتها (صبح) ممتعضة بدورها وهي تتذكر أول يوم لها تطأ فيه هذه الحانة منذ أكثر من عام وكانت هذه النادلة هي نفسها أول من استقبلها بنفس النظرة.

لم يكن مسموحًا لـ(صبح) أو لغيرها أن تتسكع في طرقات (أوليبا) كما فعلت في بلنسية تلك الليلة. وما كانت (أوليبا) إلا قرية صغيرة يمتلكها بعض النبلاء. أما بلنسية بالنسبة إلى (صبح) فهي الجنة التي كانت تتمناها لاختلافها كل الاختلاف عن (أوليبا) والحياة الرتيبة المملة البطيئة فيها. هربت (صبح) من (أوليبا) منذ عام أو يزيد عندما مات جدها واختفى أخوها (عُمَير) هربًا من ملاحقة الشرطة. لم يتبقَّ لها إلا المنزل البالي والعاشقان (حمدة) و(الغريب) فقررت الرحيل؛ حيث لم يعد لها شيء في (أوليبا) بعد هذا لا عائلة ولا مال ولا حبيب. لم يكن القرار سهلًا؛ حيث إن التنقل بين المدن والممالك للموريسكيين جريمة يعاقب عليها القانون خاصة مع تزايد عمليات قطع الطرق والسرقات والاحتكاك بين العصابات والأخويات الموريسكية والمسيحية في كل مكان. لكن (صبح) ليست تلك الشخصية المترددة التي تحسب الأمور وتعد العدة قبل أن تنفذها. هكذا قررت ورحلت فورًا قاصدة بلنسية وقد وعدها أحد معجبيها من العساكر الإسبان أن يجد لها مأوى وعمل في بلنسية إن قصدتها يومًا ما.

وصدق الرجل عندما أتته (صبح) في بلنسية بصُرَّة ملابسها في منتصف الليل في نفس المكان الذي وصفه لها فآواها وأطعمها ولم يَفُتْه أن يستمتع بها قليلًا قبل أن يأخذها في الصباح إلى إحدى السيدات العجائز في بلنسية هربت خادمتها وتركتها وحيدة وهي بحاجة إلى خادمة تقيم معها وتخدمها وترعاها في مقابل إطعامها والإقامة معها كعادة الأسر والسيدات الإسبانيات تلك الأيام. لم يكن لـ(صبح) الخيار أو القرار. كانت خطوتها الأولى الضرورية أن تجد المأوى في بلنسية أيًّا ما كان ثم بعدها تخطط لخطوتها التالية. مكثت (صبح) بعض الوقت عند هذه السيدة ثم لم يعجبها الأمر فهربت إلى عائلة أخرى ثم ثالثة حتى استقرت عند سيدة عجوز وحيدة تعيش بمفردها. الشخصية المستقلة العنيدة لـ(صبح) لم تكن تجعلها تستقر فترة طويلة في حياة الخدمة والعمل المنزلي. لكن أوقعها حظها

هذه المرة مع سيدة عجوز لئيمة سيئة الطباع سبَّابة ولعَّانة تكره الخادمات الموريسكيات وقد مرت عليها أكثر من خادمة رأت منهن اللؤم والتمرد والكذب. فكانت تُكرههن على الصلاة أمامها وتفتشهن وتستجوبهن وكانت تضربهن كذلك من وقت إلى آخر ثم تتركهن للنوم في حظيرة الخنازير لديها.
أخيرًا نامت العجوز المزعجة في هذه الليلة بعد أن ظلت (صبح) تفرك ركبتيها بزيت الزيتون لساعات طويلة حتى تهدئ من آلام مفاصلها ثم أغمضت عينيها وشرعت بالشخير المزعج حينها تأكدت (صبح) أنها نامت وأراحتها من عناء يوم طويل في خدمتها منذ الصباح الباكر حتى أول الليل دون راحة، فتنهدت تنهيدة طويلة في صمت ثم خرجت من غرفة العجوز على أطراف أصابعها حتى تتجنب حدوث جلبة وذهبت إلى ركنها في المنزل بجوار حظيرة الخنازير؛ حيث رائحة الروث والروب والطين، ثم أخرجت من صندوق خشبي قديم ثوبًا أبيض مهندمًا وصُرَّة صغيرة تحتفظ فيها ببعض المرافيدس التي ادَّخرتها منذ كانت في (أوليبا). ثم لبست الثوب المهندم وسوَّت شعرها فبدت على أكمل وجه ثم خرجت من المنزل متجهة إلى وسط المدينة؛ حيث تعج بالحانات والخانات. كانت أمنيتها منذ زمن أن تزور حانة من حانات وسط مدينة بلنسية وتشرب النبيذ وتستشعر حياة الرفاهية. صحيح أن المال بحوزتها لن يكفيها كثيرًا لهذا ولكن لا يهم يكفيها ليلة واحدة تصرف فيها كل مدخراتها في سبيل أن تستشعر حياة الأسياد وتخلع عنها حياة العبودية بكل صورها وكان بعض الرجال الإسبان الذين يأتونها بين حين وآخر يحكون لها عن بلنسية وحياة الحانات فيها مما صنع في خيالها حياة تتمنى أن تعيشها. حياة تناسبها وتستطيع فيها أن تتألق وترتقي.
كان منزل العجوز يقبع في منطقة بعيدة عن وسط بلنسية؛ حيث منازل الطبقة المتوسطة، فكان لزامًا على (صبح) أن تمشي بعض الوقت حتى تصل إلى المربع الكنسي بملحقاته وتعبر إلى جواره ثم تصل بعدها إلى وسط المدينة الذي لا ينام؛ حيث يتقاطع طريقان لم تر مثلهما في حياتها عرضًا وطولًا تعبر خلالهما عربات الأسياد الفارهة تجرها الخيول أو مواكب الأمراء والنبلاء يتقدمها الحراس بجيادهم القوية وملابسهم المزركشة وقبعاتهم العريضة ذات الريش الأسود. وعلى جانبي الطريقين عشرات الحانات والخانات ومحالُّ الخمر مفتوحة الأبواب تتلقف الزبائن والمرتادين عبر نساء الحانات الواقفات على الأبواب اللاتي تستقبلن الزبائن وتجتذبنهم إلى الداخل بالضحك المتكلف والكلمات الخليعة والتلامس والتلاصق حتى يرضخ الزبون ويدخل الحانة بصحبتهن قبل أن تعدن مرة أخرى إلى مدخل الحانة تستهدفن زبونًا جديدًا.
أرادت (صبح) أن تقضي أفضل ليلة لديها وتصرف آخر قطعة مرافيدس في حوزتها في سبيل ذلك فاختارت إحدى الحانات ودخلتها ولم يعبأ أحد بدخولها فيها فعبرت البوابة الكبيرة لترى أمامها عالمًا جديدًا مثيرًا لها. كان بهوًا كبيرًا واسعًا تنتظم فيه طاولات عديدة في اتساق على شكل دائري أو نصف دائري يتوسطه مساحة فارغة تتراقص فيه راقصتان ومن خلفهما فرقة الموسيقى والعزف. وعلى كل طاولة واحد أو أكثر من الرجال يتزينون بالملابس المبهرة وأمامهم زجاجات النبيذ والروم وقبعاتهم الفاخرة المخلوعة بينما يجالس كل واحد منهم فتاة من فتيات الحانة في ملابسها الزاهية والفاضحة وعلى وجوههن مساحيق الزينة وألوان مبالغ فيها بينما يتصايحن مع الغناء والرقص وهن يتمايلن على الرجال في غنج فاضح وضحكات خليعة. كانت (صبح) مبهورة بكل ما تراه وتريد أن تشارك فيه بأي ثمن. وقعت عيناها على طاولة بعيدة خالية فذهبت لتجلس عليها وما إن استقرت عليها حاولت أن تُبدي الثقة كأحد رواد المكان، لكن كان واضحًا عليها أنها غريبة عن المكان وأقل شأنًا من أن تكون زبونة فيه، فاستفزَّ منظرها إحدى النادلات فجاءتها متحفزة حتى وقفت ومالت على

الطاولة في استهانة تسألها ما تشرب؟ ارتبكت (صبح) في البداية قبل أن تستجمع من نفسها وتذكرت بعض المرات القليلة التي تناولت فيها بضع جرعات من النبيذ مع أحد روادها فطلبت نبيذًا. سألتها النادلة إن كان لديها المال فأخرجت (صبح) قطع المرافيدس من جيبها في ثقة ووضعتها على الطاولة الخشبية بقوة صانعة فرقعة واضحة للنادلة. نظرت النادلة إلى القطع الفضية باستهانة قبل أن تأخذهم بلا مبالاة وذهبت وأحضرت قنينة صغيرة من النبيذ ووضعتها أمامها:
لعلك تنهينها بسرعة قبل أن يأتي أعضاء الأخوية فهم لا يحبون أن يشاركوا المكان مع الموريسكيين.
فهمت (صبح) ما تعنيه النادلة. صحيح أن النادلة نفسها موريسكية الأصل كما يبدو من ملامح وجهها إلا أن الأسياد الإسبان عامة والمتشددين منهم خاصة لا يحبون أن يروا الموريسكيين في مواضع الأسياد؛ حيث يُخدمون ويأمرون لكنهم يتقبلونهم كخدم وعبيد ونادلين يقومون على خدمة الأسياد الإسبان ويتقبلون إهاناتهم وأوامرهم بكل ارتياح وشكر. بدأت تتجرع النبيذ بثقة مصطنعة وهي تتلفت حولها يمينًا ويسارًا محاولة أن تألف المكان وتفهم أجزاءه حتى وقع نظرها في الطرف الآخر من الحانة على شخص ما تألفه عيناها. تعرفت على هذا الجسد الجالس على طاولة مع رفيق آخر يتأملان إحدى الراقصات. تلك الرأس وتلك الرقبة وهذا الجسد الضئيل تعرفه جيدًا بالرغم من أن هيئته تبدو مختلفة تمامًا عما كانت تألفه. حتى أيقنته عندما وجدت رقعة سوداء على عينه اليمنى فتأكدت أنه (فرَّاج). بعد كل هذا الوقت وجدته هنا في بلنسية بالرغم من أنها لم تكن تبحث عنه لكنها لم تطوِ الصفحة القديمة كلها بعد فكانت دائمًا تفكر في ليلة العرس في بيت (صفية) وما تلاها من أحداث وهي تدرك أن تلك الليلة علامة مفصلية في حياتها وحيواتهم جميعًا فكان تفكيرها يقودها دائمًا إلى حل اللغز الوحيد (فرَّاج). لكن هيئته تغيرت كثيرًا فبدا كما لو كان متنكرًا. ملابسه الرسمية وشعره القصير حتى الرقعة السوداء على عينه بدت مختلفة عما كان يضعها على عينه في الحي في (أوليبا).
شعر (فرَّاج) بأن هناك من يراقبه من بعيد وكأن شعاعًا حارقًا قد انطلق من عين (صبح) واصطدم به. التفت إلى مصدره فوقعت عيناه على عينَيْ (صبح) وهي ترمقه بثبات وجمود لا يختلفان كثيرًا عنها في ليلة العرس. هذه المرة بدت (صبح) أكثر ثقة وتحفزًا عن تلك الليلة وقد نبت عن شفتيها شبح ابتسامة خبيثة أوقعت الرعب في قلبه. بل إنها أردفت تلك الابتسامة المرعبة بوضع سبابتها على شفتيها تحاكي نفس الطريقة التي فعلها (فرَّاج) في تلك الليلة آمرًا إياها بالصمت وكتمان السر، وبحركة لا إرادية امتدت يده في تردد تتحسس الرقعة السوداء على عينه وكأنه يتأكد من وجودها ثم شرد ببصره لوقت طويل جدًّا كما لو كان قد انتقل بعقله إلى عالم آخر قبل أن يهم بمغادرة المكان مع صاحبه. قبل أن يصلا إلى البوابة لحقته (صبح) مسرعة ثم نادته باسمه (فابريسيو) فشعر كأن سهمًا قد انغرس في ظهره وتسمَّر في مكانه ثم طلب من صاحبه أن يلحقه إلى الخارج حتى يسوِّي أمرًا ثم التفت إلى (صبح) وانطلق نحوها كالسهم حتى أتاها فأمسك بذراعها بكل قوة وجذبها بعنف بعيدًا عن باب الحانة وتيار الزبائن القادمين منهم والراحلين حتى دفعها إلى ركن بعيد عن العيون وحاوطها بذراعيه وهي لا تزال تحمل في عينيها نظرة خبيثة كأنها قد نالت منه لم تنزلها عن وجه (فرَّاج) وقالت:
لم تتغير كثيرًا حتى تتخفي عني.. أو تدفن سرك عني يا (فابريسيو)!
اغتاظ (فابريسيو) من لفظها باسمه الموريسكي أكثر ما يكره في هذه الدنيا وأكثر ما يحاول أن يخفيه فضرب بقبضته الحائط بجوار وجهها تمامًا فبدت صامدة متحدية النظرات قبل أن يقول بغضب:

قد لا تعرفين أنني أستطيع أن أقتلك الآن قبل أن تَنْبِسي بِبِنْتِ شَفَة دون أن يلومني أحد على ذلك.. لا يوجد (فابريسيو) هنا أيتها الموريسكية الهاربة.. أنا الكابتن (خوسيه دي لوخا) من استخبارات الأرمادا الملكية العظيمة ولديَّ الأوراق التي تثبت ذلك.
فامتدت يدها إلى رقعة عينيه تحاول أن تنزعها بسرعة وهي تقول:
وماذا عن تلك..
فأمسك يديها بكل قوة وحزم قبل أن تصل إلى رقعة عينه السوداء صائحًا:
مزيدًا من الحماقات وينفد صبري.. ما الذي أتى بك إلى هنا وماذا تريدين يا (بيليتا)؟
فهمت (صبح) أن (فرَّاج) يمهِّد لتسوية ما حتى يتفادى إفشاء سره وهذه هي اللحظة المناسبة التي تستغل فيها الموقف وتبتزه لتحصل على مكسب مهم هي في أشد الحاجة إليه الآن. فقللت من نظرة التحدي لـ(فرَّاج) وأبدلتها بنظرة تفهُّم وتعقُّل ثم قالت:
أتيت لأبدأ حياة جديدة هنا في بلنسية وفي هذا المكان..
اعتدل (فرَّاج) بنظرة هادئة:
تريدين أن تعملي في الحانات؟ هل تستطيعين أن تتحملي مشقة العمل في مثل هذه الأماكن؟
نعم أستطيع.. بل إنني سأملك هذا المكان يومًا ما..
قالتها بعزم وثقة قويَّين أعجبت (فرَّاج) فأكملت:
ألم نتفق على أن نساعد بعضنا البعض؟
يكاد أن يظهر في الأفق اتفاق ضمني يتشكل بينهما ولم يكن (فرَّاج) ليمانع ذلك. وجودها هنا سيفيده ويقوي من شبكته المعرفية المخابراتية التي يبنيها في مختلف الحانات منذ انتقل للعمل في الأرمادا الملكية خاصة في مكان حيوي كهذا يرتاده جميع كبراء المدينة وقادة الأرمادا والبحَّارين:
و(أورليانو)؟
رحل إلى الأبد وطريقه غير طريقي ومات من كان يربطني به.
فكر قليلًا وهو يحك ذقنه بأطراف أصابعه ثم قال:
حسنًا سأساعدك ولكن سأنتظر منك الكثير لتقدميه في المقابل من هذا المكان الحيوي.. لكن أول شيء تفعلينه أن تنسي (فابريسيو) تمامًا.. (فابريسيو) مات إلى الأبد..
خفضت رأسها إيجابًا وإرضاءً لأمره بشكل مسرحي قبل أن يأمرها بأن تظل في مكانها وذهب مرة أخرى إلى داخل الحانة فتتبعته بعينها. ذهب عبر الطاولات حتى جاء طاولة مميزة يجلس عليها فارس كبير الرتبة فمال على أذنيه وأخبره أمرًا بكل احترام وتبجيل فالتفت الفارس إلى (صبح) بلا اكتراث ثم أشار بيديه فأتته سيدة مليئة الجسد زاهية الملابسً ووقفت منحنية أمامه تتلقى أوامره وتهز رأسها إيجابًا في رعب واحترام قبل أن تتبع (فرَّاج) في اتجاه (صبح) حتى وقفت أمامها وأخذت تتفحصها من أخمَص قدميها حتى ذؤابة شعرها ممتعضة قبل أن تقول:
ليست ذات جسد مبهر.. ولكن لدي استخدام جيد لها.. ما اسمك؟
(بيليتا)
يقول الكابتن (خوسيه) أنك تجيدين الرقص.
شعرت (صبح) بقلبها يرقص فرحًا، ستعمل راقصة بالحانة. الشيء الوحيد الذي تجيده سيكون طريقها للشهرة والمال فقالت فرحًا وهي ترمي بنظرة خاطفة على إحدى الراقصات بالقاعة:
نعم يا سيدتي.. أنا أحسن من يرقص السمـ..

قاطعها (فرَّاج):
ترقص كل شيء يا سيدتي..
هل لديك مكان تبيتين فيه أم تبيتين هنا مع العاملات؟
أبيت هنا.. فقط أذهب الآن وأحضر ملابسي وأعود إليك حالًا يا سيدتي..
حسنًا لا تتأخري.
فنادت السيدة على إحدى النادلات وأخبرتها أمرًا في أذنها ثم تركوا (صبح) لتعود إلى منزل السيدة العجوز لكن قبل أن ترحل رمت بنظرة امتنان إلى (فرَّاج) الذي بادلها نظرة الاتفاق والفريق الواحد ففهمت ما يعنيه وهزت رأسها في سعادة غامرة قبل أن تنطلق بسرعة الريح لتصل إلى بيت السيدة العجوز قبل أن يلوح الفجر. دخلت المنزل وتأكدت من شخير العجوز أنها لا تزال تغط في نوم عميق منذ تركتها، ثم دخلت مكان نومها وأخذت تصرُّ ملابسها وحاجياتها ولم تنس أن تسرق بعضًا من أموال العجوز ولطخت مخدعها بروث الخنازير وبصقت في إناء النبيذ خاصتها ثم رحلت في هدوء كأن شيئًا لم يحدث وأخذت تسابق الريح حتى وصلت الحانة ودخلتها.
اتجهت إلى النادلة- نفس النادلة- فأخذتها من يديها وأدخلتها إحدى الغرف الداخلية وألبستها ملبس الراقصات فطارت (صبح) من الفرحة إنها الآن راقصة محترفة بالفعل، ثم قادتها إلى غرفة أخرى في قسم داخلي في الحانة بعيد عن ضجيجها وزحامها ثم أجلستها بجوار عازف قيثارة شبه نائم في تململ على كرسيه الخشبي وقالت لها أن تبدأ الرقص حين يبدأ العازف بالغناء ولا تتوقف حتى يتوقف هو. لم تفهم (صبح) شيئًا لكنها جلست بجوار المغني منتظرة أن يبدأ بالعزف والغناء لكنه لم يبدأ وظل يتثاءب من وقت لآخر.
كانت (صبح) تشعر بالإثارة كونها ستفعل الشيء الذي تحبه دائمًا وسيكون مصدر دخلها وشهرتها أيضًا. نظرت إلى أرجاء الغرفة ذات الإضاءة الخفيضة لتستطلعها فوجدت سريرًا خشبيًّا مهندمًا ذا شراشف ووسادة حريرة وبجواره منضدة عليها زجاجة نبيذ مع بعض الأكواب الفاخرة وطبق من الفاكهة. حاولت أن تربط بين الأمور لعلها تفهم شيئًا حتى قاطعها صوت الباب يفتح ويدخل منه أحد الفرسان الإسبان يترنح من الخمر وبصحبته إحدى فتيات الحانة بملبسها الخليع وهي تجذبه ناحية المخدع الخشبي.
هنا انتفض المغنِّي واقفًا بكل نشاط وبدأ يعزف القيثارة ويغني نغمًا هادئًا ناعمًا فحاولت (صبح) أن تتفهم منه الأمر فأمرها المغني بنظراته الحادة أن تبدأ الرقص فورًا دون أن يكف عن الغناء والعزف.
هل هذا هو جمهورها؟ مخمور وعاهرة؟! ليس هذا وحسب بل ارتمى الفارس والفتاة على المخدع الخشبي وأخذا يخلعان ملابسهما قطعة قطعة أمام (صبح) والمغني دون حياء ثم ارتمى الفارس المخمور على الفتاة وأخذا يتبادلان القبل والأحضان والتأوهات في كل أرجاء المخدع وبكل الأشكال.
كل هذا و(صبح) ترقص مشدوهة مما تفعل ولم تكن تظن نفسها تفعله يومًا من الأيام. كانت في الماضي ترقص السمرة فخرًا بين أهلها وإخوتها في أفراحهم ومناسباتهم واليوم ترقص للعهر والنجاسة. ربما هي ليست بعيدة عن هذا الجو الموبوء لكنها لم تظن يومًا أن تصير بها الأمور لتكون خادمة لخادمة فراش. مساعدة للعاهرات. هكذا عرفت أن (فرَّاج) لم يمكن ليأتيها بخير أو بحسنة بل سيكسرها ويخضعها ويذلها.
لم يكن هذا هو كل الأمر.. انتهى الرجل والعاهرة من عهرهما بعد خوار ثور نبا عن الفارس المخمور ثم اعتدلا بتثاقل عاريين ثم لبسا ملابسهما وخرجا من الغرفة فتوقف المغني عن الغناء

وتوقفت (صبح) بدورها عن الرقص ولكن قبل أن تغرب العاهرة من الغرفة وقبل حتى أن تستر من جسدها أمرتها بتنظيف الغرفة وتجهيزها للزبون القادم بكل عسف وعنجهية. تفاجأت (صبح) مصدومة. إنها ليست راقصة وحسب بل حقًا خادمة للعاهرات تنظف لهن ساحات عهرهن.
وهكذا استهلت (صبح) حياتها المهنية الجديدة واستمرت فيها ليلة تلو الليلة دون راحة أو فسحة. تنام وسط النادلات والعاملات بعيدًا عن مبيت العاهرات الشهيرات، وفي الصباح تبدأ في تنظيف الحانة بغرفها ومخادعها، ثم بعد غروب الشمس تستل مكانها على كرسي بجوار المغني في إحدى الغرف الحمراء كما يسمونها حتى تأتي إحدى الفتيات بزبون جديد تمارس معه العهر والرزيلة الصاخبة بعض الوقت ثم يرحلان فتتكب هي تنظف الغرفة والمخدع بعدهما من قطع من الأقمشة المبللة أو المجعدة بالسوائل اللزجة من بصاق أو مَنِيٍّ أو ما هو أدنى من ذلك وتغير الشراشف المتسخة بالبقع أو ربما بالدماء بل إنها تفرغ المبولة الخزفية من بول الزبائن وتمسح بصاقهم عن الأرض. المهم أن تتجهز الغرفة للزبون التالي والذي يليه والذي يليه حتى يكاد الفجر أن يطل وتفرغ الحانة من مريديها فتذهب إلى عنبر العاملات لتنام منهكة الجسد والروح، فلو كان حظها سعيدًا لنامت في هدوء وسكينة من فرط التعب إلا أن ليالي كثيرة كان يأتي فيها بعض الرجال العاملين بالحانة ليزنوا مع بعض النادلات قبل النوم واللاتي يقبلن في سعادة كمكافأة نهاية اليوم فينقلب الهدوء والسكينة إلى ضجيج وتأوُّهات ضجت (صبح) منها وملت من سماعها ولا تنقذها الوسادة منها.

(٢)

عندما شعر (فرَّاج) بأن هناك من يراقبه من بعيد وهو جالس في الحانة كعادته شبه اليومية ووجد (صبح) تراقبه امتدت يده المترددة بحركة لا إرادية تتحسس الرقعة السوداء على عينه كأن عقله يستدعي ما مر به خلال أكثر من عام منذ آخر مرة رآها فيها في ليلة العرس في بيت (صفية) حتى هذه الليلة.
تذكر عندما أتى به (خوليو) إلى بلنسية سرًّا ثم أسكنه بل أخفاه في إحدى حظائر الخنازير بعيدًا عن العيون حتى يرتِّب من أموره. لكن أيامًا وأسابيعَ مضت وهو على هذه الهيئة حبيس الحظيرة يقتات على بقايا الطعام كالخنزير ولا يستطيع أن يخرج منها حتى لا ينكشف أمره أو يتعرف عليه أحد من مرتادي (أوليبا) وبلنسية وهم كثيرون. كل أسبوع كان (خوليو) يأتي من (أوليبا) إلى بلنسية مرة واحدة في ليلة السبت ويزوره فيها ويعطيه بعض الطعام الكافي ثم يطلب منه الصبر حتى يرتب أموره مع عمه حتى كان ذلك اليوم الذي فاض به الكيل فتجادل مع (خوليو) رافضًا الاستمرار على هذا الحال فاضطر (خوليو) أن يأخذه إلى قريبه.
كان قريبه السيد (روفينو) يعمل جرَّاحًا لدى الكنيسة. كان أحد هؤلاء الجراحين الماهرين الذين يشرفون على تعذيب ضحايا محاكم التفتيش في أقبية الدواوين مع إبقائهم أحياء أطول فترة ممكنة حتى يكتمل التطهير من الذنوب والآثام بالتعذيب وتصعد الروح خالية من الرجس والكفر والذنوب. وكان من القليلين الذين لديهم السلطة والصلاحية لإصدار ومراجعة كتب الأنساب الخضراء التي تُثبت انحدار أي شخص من أصول إسبانية والتأكيد على أن نَسَبه لا تشوبه أي شائبة مسلمة أو يهودية بناء على خبرته التشريحية لجسد الإنسان ومراجعة سجل بياناته في سجلات الكنيسة،
وكان ممن يستغلون ذلك في استقبال الرشاوي والهدايا في سبيل تزييف كتب الأنساب الخضراء إذا اقتنع أن الشخص المقصود ذو نسب صافٍ أو على أقل تقدير أغلبه إسباني يسهل التغاضي عن

هفواته الجسدية مثبتًا أنه سليل عائلة إسبانية أصيلة للجد السابع مع إمضائه وختم الكنيسة كذلك. ذهب (فرَّاج) و(خوليو) في سرية ودخلا بيت قريبه الجراح السيد (روفينو). كان بيته معملًا للتشريح يبعث على التقيؤ تنبعث منه روائح نفاذة قوية من محاليل كيميائية أو روائح تعفُّن أو تصنُّن، كذلك كان هناك ما يبدو أنه حائط بطولات له معلَّقًا عليه جماجم بشرية عظمية أو رؤوسًا بشرية جافة مختلفة الأشكال والهيئات وقد ذبُل جلدها واسود لونها وتهدلت بقايا الشعر على رأسها وغارت مقلتا العين فأغمض الجفن وقد أعطت بعض الرؤوس ملامح الرعب والهلع وبعضها أعطى ملامح الاستسلام والسكينة، وكان أسفل كل جمجمة بعض الكلمات الدالة على جنسها أو أصلها مع علامات علمية ورقمية مثل (موريسكي- ذكر- ٤٠-٤٥ عامًا- شمال بلنسية- أصل بربري-٢٠\١٥٥٩). كان بيتَ رعبٍ بحق حتى إنهما وجدا بعض القِنان الزجاجية محفوظًا داخلها بعض الأعضاء البشرية في سائل كيميائي شفاف كالأنوف والآذان والعيون. كان معرِضًا للجِزارة البشرية لم يَرَ (فرَّاج) مثله قط. ظل الاثنان متسمِّرين في مكانهما وأقدامهما تتخبط من رَعب ما يرون وهما في انتظار الجراح الجزار. أتى الرجل وهيئته لا تقل عن منزله رعبًا فرحب بـ(خوليو) ابن أخيه وهو يرمق (فرَّاج) بريبة وحذر. أخبره (خوليو) عن (فرَّاج) وكيف أنه ابن رجل إسباني من عاهرة موريسكية وأنه مسيحي متشدد وعضو صالح في أخوية مسيحية، وأنه يريد أن يستصدر له كتاب النسب لإثبات نقاء أصله. تطلع الرجل إلى (فرَّاج) متفحصًا وطلب منه أن يخلع ملابسه كلها. خلع (فرَّاج) ملبسه كله دون أن يخلع رقعة عينه البنية في تردد فأمره الرجل أن يخلعها، وهنا صعق الرجل ورفض أن يقوم بهذا الأمر معللًا ذلك بأن (فرَّاج) لديه عين موريسكية كما أن أيره موريسكي الشكل. لم يفهم (فرَّاج) شيئًا مما قاله الجراح ولكن (خوليو) أخذ يعلل ويفسر ويقنع في (روفينو) فأخذه (روفينو) بعيدًا عن (فرَّاج) وأخذ يشرح له أمرًا ما قبل أن يتركه ويرحل من الغرفة. أتى (خوليو) إلى (فرَّاج) يجر أذيال الخيبة قائلًا:

يقول إن أكثر ما يقلقه عيناك.

وماذا بعينيَّ؟.. أليس كافيًا عيني الخضراء هذه؟

قال إن عينيك المختلفتين لا تثبت قطعًا نقاء أصلك أو حتى وجود دماء إسبانية فيها من الأساس. ولن يقتنع الجميع بنقاء نسبك مما سيُدِرُّ عليه بالمشاكل لو أصدر كتاب نسب لك مذيلًا بتوقيعه.. إلا إذا..!!!

قال (فرَّاج) مندفعًا في رجاء:

إلا إذا ماذا؟!! هيا يا (خوليو) لقد ضحيت بالكثير من أجل هذا الأمر ولا مجال للرجعة.. لقد استمعت إلى نصائحك منذ البداية وها أنا ذا.

استرجع (خوليو) نظرته الخبيثة التي بثَّها في عقل (فرَّاج) في ليلة العرس. ثم قال:

إلا إذا ضحيت بعينك الموريسكية..

تدلى فكُّ (فرَّاج) السفلي في رعب وتحجرت عيناه على وسعهما مع رعدة خفيفة سرت في رموشها قبل أن يكمل الخبيث (خوليو) بأسلوبه المقنع وفحيحه الهادئ:

أنت على حق. لقد ضحيت بالكثير حتى تصل إلى هنا. أنت على بعد لحظات من إصدار كتاب النسب لك وأن تصبح رسميًا إسباني الأصل والنسب. وأنت تعلم ما يعنيه هذا أليس كذلك؟ إن بذلت تضحية أخيرة وخلعت عينك الموريسكية- وهذا عمل قريبي اليومي فلا تقلق منه- سيصدر لك كتاب نسبك ولن يشكَّ أحد فيك بل على العكس تستطيع أن تدَّعي أنك فقدت عينك في عراكك مع الموريسكيين

وسيتقرب إليك الجميع ويعطفون عليك. حينها يستطيع (روفينو) أن يجعلك تعمل معه ولو في الكنيسة نفسها لو أردت وأنت تعلم ما يعينه هذا.
الآن لم تَبْدُ الفكرة مستبعدة تمامًا بعد هذه الحجة القوية لـ(خوليو). أخذ (فرَّاج) يفكر في كلام (خوليو). (خوليو) يريد مساعدته منذ البداية كما رأى. وقد ساعده في التخلص من أمه وبأخيه بالفعل. فإن ضحَّى بعينه البنية الموريسكية ستكون تلك التضحية الأخيرة له والتخلص من آخر ما تبقى من الدماء الموريسكية في جسده. الخيار بسيط أن يعيش إسبانيًّا أعور مكرَّمًا من الجميع، أو يعيش موريسكيًّا مسخًا بعينين تشِي بنجاسة أصله وحقارة نسبه. قاطع (خوليو) حبل أفكاره قائلًا:
إن رفضت ذلك وهذا من حقك فلن أستطيع إخفاءك هنا في بلنسية أكثر من ذلك ويمكنك العودة حتى إلى (أوليبا) أو تفعل ما تشاء.
فزع (فرَّاج) عندما سمع اسم (أوليبا) وما قد ينتظره هناك بعد الأحداث الأخيرة. حزم (فرَّاج) أمره. تضحية أخيرة لن تضر. يستطيع بعينه الخضراء أن يرى ما لا يستطيع أن يراه بكلتا عينيه. لكن ما هو شعور أن تُفقأ عينك؟ ربما لا يختلف كثيرًا عن شعور أن تحرق أمك وأخاك أحياء! وكأن (خوليو) قد سمع أفكاره من داخل أعماق عقله وشعر بحزمه وقراره القريب فقال محفزًا:
السيد (روفينو) يستطيع أن يخلع عينك بدون آلام. لديه ذلك السائل العجيب ذو الرائحة النفاذة ما إن تشمه حتى تغيب عن الوعي ولا تشعر بأي آلام حتى تستيقظ وقد انتهى الأمر تمامًا.
فقاطعه (فرَّاج) في لهفة:
ثم يأخذني لأعمل معه في كنيسة بلنسية. أليس كذلك؟
ابتسم (خوليو) في ثقة وقد أيقن أنه قد نجح في إقناعه ثم قال:
نعم سأطلب منه ذلك فلا يرفض لي عمي طلبًا أبدًا.
شرد (فرَّاج) لثوانٍ قبل أن يهز رأسه في إيجاب مترددًا خائفًا، فابتسم (خوليو) ثم ذهب ليتحدث مع عمه الجراح (روفينو) تاركًا (فرَّاج) في الحجرة حائرًا مفكرًا في المصير الذي ينتظره كشخص أعور لبقية حياته. وما الضير من أن يكون أعور؟ عشرات الفرسان والجنود والعساكر في الجيش والأسطول وقد فقدوا عينًا أو أذنًا أو قدمًا أو تشوهت وجوههم حرقًا أو امتلأت بالندوب العميقة، وما زادهم هذا إلا وقارًا وهيبة وترقية في الجيش. أما في حالته فإضافة إلى كل هذا سيتخلص من نِير العبودية والذل إلى الأبد ولن يدعوه أحد بالموريسكي المسخ بعد الآن. كان مقتنعًا أن هذا هو القرار الصحيح في ظل الظروف الحالية.
أتى (خوليو) ومعه الجراح (روفينو) وقد أقنعه بإتمام الإجراء الجراحي قبل أن ينصح (خوليو) (فرَّاج) أن يحلِق شعره الطويل حتى تختفي ملامحه القديمة تمامًا فوافق (فرَّاج) على الفور. أمره (روفينو) أن يستلقي على سرير معدني مُعد لمثل هذه الجراحات فاستلقى (فرَّاج) كالمسحور، فأحضر الجراح قارورة مغلقة وفتحها ثم بلل منها قطعة قماش ثم قربها في بطء من وجه (فرَّاج) طالبًا منه أن يستنشق قطعة القماش بعمق حتى يأتي مفعوله ويغيب عن الوعي فأوقفه (فرَّاج) وطلب طلبًا أخيرًا من (خوليو) أن يأتيه بمرآة ليرى وجهه المكتمل للمرة الأخيرة فأتي له (خوليو) بمرآة أخذها (فرَّاج) وأخذ يتأمل وجهه فيها للمرة الأخيرة بعينين كاملتين، أخذ يتأمل في عينه البنية فبدت له أكثر جمالًا وصفاء من عينه الخضراء للمرة الأولى في حياته. بدت وكأنها تناديه وتتوسل إليه ألا يخلعها ويرميها في التراب. بدت وكأنها تصرخ تستنجد كما صرخت أمه وصرخ أخوه وهما يحترقان أحياء. ولكن لا حياة لمن تنادي! نحَّى (فرَّاج) المرآة جانبًا وأعطاها إلى (خوليو) ثم أراح ساعديه بجوار

جسده وأسند رأسه إلى الوراء في استسلام إيذانًا ببدء الجراحة. قرب (روفينو) القماش المبلل من أنف وفم (فرَّاج) الذي استنشق الهواء بعمق فتسللت رائحة السائل النفاذة إلى عقله فبهت كل شيء في لحظات وغاب عن الوعي تمامًا.
لم يدرِ كم من الوقت قد مرَّ. فقط شعر بانقشاع الغمامة من على عينيه تدريجيًّا حتى فتح عينه في بطء- عينه الواحدة-. الآن تذكر ما كان يدور. وبحركة لا إرادية منه رفع ساعده في صعوبة ليتحسس مكان عينه. كانت رأسه مربوطة بعصابة من القماش تغطي عينه اليمني- أو موضع ما كان عينه اليمنى-. شعر بصداع وآلام تتصاعد في رأسه من ناحية عينة المخلوعة بل شعر بخواء داخل رأسه ناحيتها كما لو أن إعصارًا عاصفًا يدور بها وينخر في عقله وشعوره. تأوه من الآلام فسمعه (خوليو) من الحجرة المجاورة فأتاه سريعًا ومال عليه مبتسمًا ثم قال:
هل استيقظت أيها البطل؟
تأوه مرة أخرى قبل أن يقول:
ماذا حدث؟ هل تم الأمر؟
ألم أخبرك أنك لن تشعر بشي؟! نعم كل شيء تم على أكمل وجه. ومعي لك هذه الهدية..
ثم رفع (خوليو) قطعة من الورق مطبقة عدة مرات مررها أمام عين (فرَّاج) ففهم فحواها ومن فرط فرحته نسى آلام رأسه وجسده المنهك ومد يده بسرعة يلتقط الورقة ويفردها ويقرأ فحواها فرحًا؛ حيث تثبت أن اسمه (خوسيه دي لوخا) ويرجع نسبه إلى جده السابع أحد المحاربين القدامى في جيش مملكة ليون القديمة ثم شرح تفصيلي لأوصافه التي تؤيد صحة نسبة وشخصه ثم تذييل الورقة بتوقيع الجراح (روفينو) وختم كنيسة بلنسية مع أرقام وحروف دلائل لموضع البيانات في السجل الكنسي البلنسي. أراد (فرَّاج) أن ينهض من على السرير المعدني ويرقص فرحًا لكن آلام رأسه لا تزال تعصف به وتجعله فاقد الاتزان فقال (خوليو):
اهدأ أيها البطل. تحتاج الراحة بعض الوقت قبل النهوض. لقد سمح لك عمي (روفينو) بالمكوث بعض الأيام هنا. لكن لا تنس يا صديقي أنك مَدين لعمي بالمال. لقد تغاضَى عن أمور كثيرة حتى يقوم بهذا الإجراء ولكنه لا يتغاضى عن جائزته المالية أبدًا. لقد سمح لك ببعض الوقت حتى تجمع النقود.
هز (فرَّاج) رأسه بصعوبة موافقًا ثم قال:
لا أحد يعلم بهذا الأمر يا (خوليو) أليس كذلك؟
قهقه (خوليو) قبل أن يقول:
لا تخف يا صديقي.. لا أحد في هذا الكون يعلم غير ثلاثتنا. ولا حتى الأخوية في (أوليبا). الجميع هناك موقنون بموت (فابريسيو) في الحريق. أما الآن فقد ولد من جديد (خوسيه دي لوخا) ولا أحد يعلم العلاقة بين الاثنين إلا ثلاثتنا.
اطمأن (فرَّاج) لكن لم تعجبه كلمة إلا ثلاثتنا التي قالها (خوليو). بدت وكأنه يقولها تهديدًا أو تخويفًا أو ابتزازًا. لكن لا يهم الآن فكل شيء في وقته. لكن شيئًا ما أتى على رأسه الموجوعة فسأل:
أين العين المخلوعة؟
لماذا تسأل؟
أريد أن أراها.
اختفى (خوليو) في إحدى الحجرات قبل أن يعود وفي يده قارورة زجاجية صغيرة على شكل وحجم الكمثرى مليئة بسائل شفاف وفيها عين (فرَّاج) تقبع في قعرها وبعض الشعيرات الدموية وخيوط

الأعصاب لا تزال ملتصقة بها مع هالة من اللون الوردي حولها من بقايا الدماء الملتصقة بها. أمسك بها (فرَّاج) في لهفة ووضعها أمام عينه الخضراء وتنفس الصُّعَداء وهو يتأمل العين التي بدت وكأنها مكسورة حزينة ذابلة قبل أن يتحسس مكانها على العصابة برفق ثم سأل:
هل يمكنني الاحتفاظ بها؟
همس (خوليو) في أذنه:
لا أظن ذلك يا (فابريسيو) إن عمي يحتفظ بهذه الأعضاء المبتورة ويفخر باقتنائها بل وتجميعها
شيءٌ ما في نفس (فرَّاج) أراد الاحتفاظ بعينه المخلوعة. ربما أراد أن يضعها نصب عينه الوحيدة الأخرى ليدرك مدى تضحيته فيسعى حثيثًا إلى أهدافه دون كلل أو ملل أو تعب. سيحصل عليها بالتأكيد وسيضعها نصب عينه- الواحدة- الأخرى لكن ليس الآن.
مضت بضعة أيام و(فرَّاج) يعيش في بيت الجراح يساعده في عمله الليلي بعد أن يعود من الكنيسة في مختلف الأعمال المقززة. في يوم من الأيام ناداه (روفينو) أن يأتيه في معمله الكبير في قبو المنزل ثم أمره أن يأتيه بقارورة ضخمة بها سائل شفاف مصفرٌّ ثم وضع القليل منه في برميل صغير مملوء بالماء وأخذ يقلبه بحذر حتى صدرت منه رائحة مقززة مختلفة، ثم أتى بسبَت صغير مغلق وفتحه وأخرج منه شيئًا ما. كانت رأس بشرية مبتورة لا تزال دامية تحمل ملامح رجل يهودي مفزوع ذي وجه مليء بالندوب والجروح. نظر (روفينو) إلى (فرَّاج) الذي أخرسته الصدمة فابتسم وهو يقول متحسرًا كم كان يحصل على عشرات الرؤوس في الماضي على عكس هذه الأيام. لم يفهم (فرَّاج) ما الذي سيصنعه هذا الجزار بالرأس البشرية. أتى (روفينو) بالرأس البشرية ممسكًا إياها من شعرها ثم وضعها في حذر في البرميل الذي أعده منذ قليل:
الآن سترى معجزة الكيمياء..
نظر (فرَّاج) إلى البرميل فوجد الرأس البشرية وقد تجمعت حولها فقاعات غازية سريعًا كما لو كانت جحافل النمل تجتمع على جرادة ميتة. كان الأمر بالنسبة له معقدًا كي يفهمه فخرج من المعمل وقام ببعض الأشياء لبضع ساعات قبل أن يناديه (روفينو) مرة أخرى فنزل إليه وإذا بالمعمل مليء بروائح كريهة وأبخرة عالقة في سقيفة الغرفة. طلب (روفينو) من (فرَّاج) أن يأتيه بالملقط الكبير فأحضره وأعطاه فأمسكه برفق وتوجه إلى البرميل وقد أصبح السائل بداخله أحمر قانيًا اختفت الرأس البشرية بداخله. أمسك (روفينو) شيئًا ما من البرميل بالملقط وأخذ يرفعه برفق حتى ظهر لـ(فرَّاج) الشيء العجاب. الرأس البشرية لم تعد موجودة. تآكل كل ما بها من شعور وجلود ولحوم وما حوته تمامًا ولم يتبقَّ منها إلا جمجمة عظمية بيضاء ناصعة كما لو لم يكن بها أو عليها شيء ما. ابتسم (روفينو) ابتسامة النصر قائلًا:
لو يعلم هذا التعس أن أجداده هم من اخترعوا هذا الحامض!!!
ثم ضحك ضحكة عالية قصيرة وسط ذهول واشمئزاز (فرَّاج). قام (روفينو) بغسيل الرأس بالماء النظيف ليزيل عنها ما قد يعلق بها قبل أن يضعها على حائط بطولاته تمامًا في المنتصف ثم كتب تحتها بياناتها ووقف أمام الحائط متأملًا في فخر واعتزاز بزفرة نصر ونظرة إعجاب وتشفٍّ غريبين. كانت تلك إحدى التجارب التي ظلت عالقة في ذهن (فرَّاج) خلال تلك الفترة القصيرة التي قضاها في منزل (روفينو) للاستجمام بعد نزعه عينه.
بعد أن استرد عافيته واستعدادًا ليومه الأول ليعمل في الكنيسة كما وعده، أعطاه (روفينو) ثوبًا أسود فضفاضًا وصليبًا خشبيًّا يعلقه في صدره وخلع العصابة عن عينه، فذهب (فرَّاج) إلى المرآة وأخذ

يتأمل منظره الجديد. بدت عينه اليمنى غريبة وهي مغمضة الجفن غائرة في وجهه مع شعره القصير وجسده النحيف مع هذا الملبس كان يبدو مغايرًا تمامًا لمظهره فيما سبق وقد أصبح كغلمان الكنيسة الخادمين. شعر بالفخر يملأ صدره وأنه على أتم الاستعداد لبدء حياة جديدة تمامًا.
خرج (روفينو) و(فرَّاج) يتبعه كظله في الصباح. أخذ (فرَّاج) يتأمل عيون الناس من حوله وهم يرمقون جرَّاح ديوان التفتيش الأكبر بالكنيسة الكبرى في بلنسية مع خادمه الأعور يعبران الطرقات. كانت عيون الناس تمتزج بين الخوف والرعب مع الاحترام والتبجيل. ذلك المزيج الذي كان (فرَّاج) دائمًا يتمنى أن يناله بل كان يتمنى أن يطول الطريق ليستمتع بمرأى عيون الناس وهو يمشي تابعًا لأحد رجالات الكنيسة المبجَّلين. وصل الاثنان إلى بوابة الكنيسة العملاقة فدقَّ (روفينو) الباب الخشبي الكبير حتى انفتحت كوة فيه أطل منها حارس البوابة ثم فتح الباب الجانبي الصغير لهما بعد أن تأكد من شخصية (روفينو) الجراح. دلف الاثنان إلى داخل الباحة الرئيسة للكنيسة فأخذ (فرَّاج) يتنفس رائحة أشجار البرتقال من على الجانبين ثم نافورة كبيرة تنفث بالماء وترش برذاذه بين حين وآخر في منتصف باحة كبيرة ثم ممر كبير على جانبيه الأشجار قبل الوصول إلى مبنى الكنيسة العملاق ثم إلى جواره من الجانبين مبنيان أقل حجمًا وأطول عمقًا وأقل جمالًا ويبدو أنهما مبانٍ إدارية أو سكنية لا تحوي نوافذ أو أبوابًا كثيرة. كان يتمنى أن يتجها إلى الكنيسة العظيمة ليراها من الداخل ويدخلها كمسيحي مبجَّل منعَّم كما كان يتمنى إلا أن (روفينو) توجه إلى أحد المبنيين الآخرين فتبعه (فرَّاج) بطبيعة الحال وعيون الكهنة والقساوسة تتبعه متسائلة عن هذا الوجه الأعور الغريب الجديد.
دق (روفينو) باب المبنى الكبير فانفتحت كوة أخرى تبعها باب جانبي صغير دلف منه الاثنان إلى الداخل ثم اتجها عبر ممرات داخلية من بهو كبير إلى بهو أصغر ثم من غرفة كبيرة إلى غرف أخرى أصغر عبر الدهاليز حتى وصلا إلى غرفة أخيرة أقلهم مساحة وأحقرهم شأنًا وأكثرهم ظلامًا يقبع في منتصفها مكتب خشبي عتيق صغير الحجم يجلس عليه أحد الموظفين الأصاغر الذي انتفض مرعوبًا عندما رأى السيد (روفينو) قبل أن يتبادل النظر في تردد بين (فرَّاج) و(روفينو). فهم (روفينو) تردده فأمره أن يُدخل كليهما إلى السرداب فـ(فرَّاج) هو مساعده الجديد بعد ترقي المساعد السابق. على الفور انطلق الموظف إلى ركن خلف الكرسي الخشبي وانحنى إلى الأرض ممسكًا بحلقة معدنية خفية ليرفعها عن الأرض كاشفًا عن فجوة كبيرة ظهرت من خلالها درجات سلمية حجرية تتجه إلى القاع في حدة كما لو كانت متجهة إلى قاع بئر سحيق. خطا (روفينو) أولًا في ثقة على الدرجات السلمية فتبعه (فرَّاج) في تردد قبل أن يغلق الموظف البوابة الخشبية ليعود الأمر في الغرفة كما لو لم يكن هناك شيء.
بدت الدرجات السلمية مظلمة في بدايتها قبل أن تظهر بعض المشاعل النارية الجدارية على الجانبين لتظهر بعض الضوء للعابرين؛ حيث نفق صخري طويل ضيق تهبُّ منه ريح حارة نتنة تزداد نتانتها كلما أوغلا في التعمق فيه حتى عرف (فرَّاج) مصدر هذه الرائحة العفنة عندما انتهى النفق الضيق مفضيًا إلى غرفة طولية مفرغة الجدران بصورة منتظمة في كوات مستطيلة الشكل ضيقة منخفضة الارتفاع مرصوصة بانتظام في كل جدار ويقبع في كل كوة جثة بشرية هامدة مكبَّلة أو هيكل عظمي بشري لا حراك فيه. كانت تبدو لـ(فرَّاج) قبور جماعية مكشوفة تنبعث منها روائح الرِّمم.
شعر ببعض الخوف في أعماقه وهو يتحرك بين هذه المجموعة من الجثث والهياكل العظمية قبل أن يتغلب على خوفه وكاد يُظهر بعض الشكيمة على وجهه حتى يكتسب ثقة (روفينو) لكن انطلقت صرخة هستيرية بجواره فصرخ هلَعًا بدوره وارتمى إلى الناحية المقابلة لمصدر الصرخة يتساءل

مرعوبًا عن مصدرها فضحك (روفينو) بوقار قبل أن يساعد (فرَّاج) على النهوض وهو يخبره أن هناك على الأقل ثلاثة من الكفرة لا يزالون في طور التطهر الرُّوحي من الذنوب إذ يتبقى لهم بضعة أيام حتى تفيض الروح مطهرة من دنس الكفر والهرطقة ثم أشار إلى إحدى الكوَّات فإذا بجثة رجل عجوز يكاد يكون هيكلًا عظميًّا وقد ظهرت عظامه تحت جلده العاري وغارت عيناه المغمضتان وهو يتحرك بهستيرية في كوته مكبلًا بالحديد والسلاسل. عرف بعد ذلك أن هذه الكوات ما هي إلى إحدى وسائل عقاب الموريسكيين واليهود؛ حيث يُوضعون فيها مكبلين بالأغلال دون طعام أو شراب يبولون ويتبرزون ويتنفسون في نفس الكوة لأيام طويلة يموتون فيها ببطء وتتسلل أرواحهم من أجسادهم حتى تفيض ويُتركون شهورًا بل سنين على هذه الحالة حتى يتكدس المكان بالجثث المتعفنة فيتخلصون من رفاتهم بعيدًا ليُعِدُّوه لغيرهم من الكفرة.

تمالك (فرَّاج) نفسه وأكمل المسير خلف (روفينو) حتى وصلا إلى غرفة المحاكمات الرئيسة. كانت غرفة تبعث على الخوف في الصدور وهي شبه خالية من الأثاث إلا من مكتب خشبي كبير يقبع خلفه كرسي كنسي وثير وأمامه كرسي آخر بينما هناك حبالٌ معلقة عبر بكرة حديدية مثبتة في منتصف سقيفة الغرفة. كان واضحًا أنها غرفة الاستجواب وهي مُعدة لاستقبال ضحية جديدة ويبدو أنهم لم يبدؤوا يومهم بعد. أخذ (روفينو) يشرح لـ(فرَّاج) طبيعة عمله كمساعد الجراح. في هذه الغرفة يتم استجواب المتهم لإثبات التهم الموجهة إليه بالكفر أو الهرطقة أو السحر ويتم تعليقه من ذراعيه المربوطتين خلف ظهره وهي أول وأبسط وأسهل وسيلة للتعذيب للإجبار على الاعتراف. أثناء ذلك على مساعد الجراح أن ينظف الغرفة من بول أو براز المتهم الذي يفقد السيطرة على أعضائه من فرط الألم والرعب. لكن هذا ليس كل عمل مساعد الجراح بل يمتد إلى ما بعد الحكم على المتهم بعد إثبات تهمته فيتم اختيار الوسيلة المناسبة لتعذيبه لتطهير روحه من الآثام، والوسائل كثيرة ومختلفة وبعضها معقَّد ويحتاج مهارة وحرفة وهنا يأتي دور الجراح ومساعده؛ حيث يحرص الجراح على متابعة ومباشرة عملية التعذيب ليتأكد أنها ستستمر أطول وقت ممكن دون أن تزهق روح المذنب ليزداد معها الألم وبالتالي تزداد فترة الغفران والذنوب المستتابة فيبتعد عن إصابة الأعضاء الحيوية والأوردة الرئيسة ويدعم الحياة في الجسد المعذب بالسوائل والمحاليل المختلفة. أما مساعد الجراح فيقوم بتنظيف الدماء والسوائل الإخراجية من بول أو براز أو تقيُّؤ أو يساعد الجراح في إمساك الأعضاء أو شد الجلود أو تنظيف قطع اللحم المتناثرة أو الجلود المقطعة أو الأعضاء المبتورة.

بينما كان (فرَّاج) يتخيل العمل المقزز الذي ينتظره، دخل الغرفة قسيسان مبجلان بملابسهما البيضاء والحمراء وخلفهما أحد الجلادين العاملين بالديوان متشحًا بالسواد من رأسه إلى قدميه فلا يظهر منه إلا عينان تطلان من ثقبين في غطاء الوجه وفي يده سوط ذو أطراف حديدية مسننة وفي يده الأخرى ملف جلدي أحمر يحوي بعض الوريقات. جلس كبير القسيسين على رأس المكتب فوق الكرسي الوثير بينما جلس الآخر أمامه في روتينية رتيبة. أعطى الجلاد الملف الجلدي إلى رئيس المجلس الذي همَّ بفتح الملف وقراءة الوريقات قبل أن يلحظ بطرف عينيه (فرَّاج) بجوار الجراح (روفينو) الذي وقف معتدلًا برأس نصف محنية تواضعًا واحترامًا لرئيس الديوان. دون أن يفتح فاه ببنت شفه رمى بنظرة متسائلة إلى (روفينو) فسارع (روفينو) بالتوضيح أنه مساعده الجديد وقد تأكد بنفسه من نقاء نسبه الإسباني. تململ القسيس بمط شفتيه متجاهلًا قبل أن يبدأ في قراءة الوريقات وطلب من الجلاد الأسود بإدخال المتهم الأول فسارع الجلاد بالخروج من الغرفة ثم دخل بعدها ببضع دقائق وهو يجر أحد الموريسكيين من رقبته المقيدة بسوار من الحديد يربط يديه ورجليه أيضًا. كان نصفه

الأعلى عاريًا فظهرت معالم التعذيب على ظهره ووجهه. ما إن وصل الموريسكي أمام مكتب الديوان في بطء ناتج من الضعف والقيود حتى عاجله الجلاد بضربة من قدمه خلف ساقيه جعلته يتألم صارخًا وهو يسقط راكعًا على ركبتيه في شدة أمام القسيسين اللذين لم يباليا حتى للنظر إلى وجه المتهم الذي بدا مذعورًا من الموقف وقد ارتعدت شفتاه ودمعت عيناه في صمت. قال مساعد الرئيس في رتابة:

أنت متهم بأنك استحممت يوم الجمعة في الصباح كعادة الكفرة ما ردك على الاتهام؟ هل تقر بذنبك أم يتم استجوابك المقدس؟

استعد الرجل للرد على الاتهام وهمَّ بشرح موقفه قائلًا:

لقد أمرني سيدي بتنظيف حظيرة الخنازير في صباح يوم الجمعة وما إن انتهيت حتى شرعت بتنظيف جسدي من الروث والطين ففوجئت بمفتشي الديوان يقبضون علي..

قاطعه القسيس آمرًا:

استجوبوه!!

فزع الرجل عندما سمع الجلاد ينادي على زميله ثم شرع الاثنان بربط خطاف حديدي في القيد المعدني الذي يقيد ذراعيه من الخلف. حاول المتهم أن يتكلم ويدافع عن نفسه لكنَّ الحارسين لم يعطياه الفرصة وقام الاثنان بشد الطرف الآخر من الحبل بشِدَّة إلى أسفل فارتفع جسد الرجل الضئيل عن الأرض فاختلط صوت صراخه مع صوت عظام يديه وهي تتقلص وتتحطم كلما ارتفع عن الأرض مع صوت صرير البكرة المعدنية المثبتة في السقيفة وهو لا يكاد يتنفس من فرط الألم. سرَت الرعدة في جسد (فرَّاج) عندما سمع صوت الصراخ والألم ولكن بالرغم من ذلك شعر بنشوة غريبة وهو يشهد ويشارك في تعذيب من يحتقرهم ويحتقرونه.

أخذ الرجل يصرخ والجلادان الأسودان يستجوبانه.. هل أنت مسلم كافر؟.. هل كنت تتطهر لصلاة الجمعة مع الكفرة؟.. من هم المسلمون الآخرون؟.. أعطنا أسماءهم ونتركك.. مَن مِن الموريسكيين يتعاون مع القراصنة الترك أو المغاربة أو الهوكونيين؟.. والرجل يصرخ وينفي علمه بأيٍّ من هذه الأشياء ويستنجد دون أي استجابة منهم. وحين تململ الجميع من الموقف أشاح كبيرهم رأسه وأخذ يدون شيئًا في الملف الورقي قائلًا في تململ وروتينية:

الحكم عليه بالتطهير بالمخلعة حتى الموت..

ثم أغلق الملف وخرج يتبعه مساعده بصرامة وتجهم وروتينية بينما أنزل الجلادان الرجل المسكين المتألم وتأبطاه متجهين لباب آخر. مال (روفينو) على أذن (فرَّاج) قائلًا في همس:

أتريد أن ترى مشهدًا رائعًا لا يراه إلا الصفوة؟!

هز رأسه موجبًا فأخذه (روفينو) من يديه وتبعا الحارسين والمذنب عبر باب خشبي عتيق ثم دهليز طويل نسبيًّا على جانبيه أربعة أبواب خشبية موزعة بالتساوي على الجانبين قبل أن يصلا إلى بوابة خشبية كبيرة طرق عليها أحد الحارسين وما كاد ينتهي حتى دوَّت صرخة ألم أنثوية من الداخل قبل أن ينفتح الباب ويطل منه رجلٌ ذو معطف أبيض ملطخ بالدماء قبل أن تتهلل أساريره حين وجد (روفينو) فشكر الرب أنه قد جاء في الوقت المناسب ثم فتح الباب وأدخلهما. وجد (فرَّاج) نفسه في عُقْر مقر تنفيذ أحكام ديوان التفتيش أو غرفة الجحيم كما يسميها الموريسكيون.

كانت غرفة كبيرة واسعة الأرجاء مخصصة لتعذيب المذنبين المحكوم عليهم من ديوان التفتيش فكان هناك بضعة رجال ونساء مُعلقين من سواعدهم فمنهم المصلوب الغائب عن الوعي ينزف الدماء من

عنقه أو امرأة تنزف من صدرها العاري، أو المستلقي على منضدة رخامية مقيد الأطراف، أو المقيد على بكرة خشبية كبيرة تسحق عظامه وتشدها أو مَنْ تُشوى قدماه فوق كومة من الأحجار المشتعلة، وكان صوت الصراخ لا ينقطع أنثويًّا كان أو ذكوريًّا في كل مكان. قاد الرجل (روفينو) من يديه إلى منضدة رخامية يرقد عليها أحد الموريسكيين مربوط الأطراف مغشيًّا عليه لا يتحرك شبه ميت وقد سُلخت إحدى قدميه من الجلد تمامًا فظهر اللحم ورديًّا ممزوجًا بالدماء اللزجة وبعض العظام الظاهرة. طلب الرجل النصيحة من (روفينو)؛ حيث إنه أثناء سلخ جلد الرِّجْل اليُمنى وصولًا إلى الفخذ حدث نزيف هائل من فخذ المذنب حتى غاب عن الوعي وتوقف عن الصراخ:
غفر لك الرب يا ولدي.. لقد قطعت وريده الفخذي وهو يكاد يهلك نزفًا.. ويُرفع إلى السماء بذنوبه دون تطهير. سامحك الرب!
امتُقع وجه الرجل بعد كلمات (روفينو) الذي أمره أن يأتيه بكاوية مشتعلة بسرعة، فذهب الرجل مسرعًا وأحضر ذراعًا حديدية كاوية ذات رأس مدببة حمراء متقدة يتطاير الشرر منها وأعطاها إلى (روفينو) الذي أخذ يغرس أطراف أصابعه في الجرح الفخذي النازف بعناية يتحسس الوريد المقطوع بأطراف أصابعه باحترافية وسيل الدماء ينزف منه إلى الطاولة الرخامية ثم يتجمع في ثقب في مؤخرة الطاولة فيسيل إلى دلو يكاد يفيض من دماء المذنب أسفلها. أمسك (روفينو) الذراع الحديدية الكاوية وهمَّ بشيء ما قبل أن يتراجع ويلتفت إلى (فرَّاج) الذي جمع وجهه بين علامات الامتعاض والفضول:
حسنًا هذا هو درسك الأول.. اِكْوِ جرح الوريد الفخذي النازف حتى يلتحم الوريد ويتوقف عن النزيف وإلا هلك ومات في التو..
أمسك (فرَّاج) بالذراع الحديدية في تردد ثم اقترب من القدم المسلوخة فأحس بالإعياء في جوفه لكنه تماسك حتى أصبحت الكاوية أمام الجرح مباشرة ثم أغمض عينيه وأخذ نفسًا عميقًا ودفع بالذراع الكاوية على فخذ الرجل الدامية صانعةً صوتًا ورائحة شواء امتزج بصوت صراخ هستيري من المذنب الذي أفاق من غيبوبته على آلام الكَيِّ. ظل (فرَّاج) متيبسًا على هذا الوضع لبعض الوقت وهو مغمض العين بالرغم من استمتاعه بصراخ الرجل حتى جذب (روفينو) يده ورفعها عن الجرح ثم سرَت ضحكة منه ومن الجلاد:
حسنًا ربما تكون قد نجحت في اختبارك الأول في التماسك ولم تُصب بالغثيان أو تفقد الوعي كالآخرين لكنك لم تُصِب الجرح المنشود.
نظر (فرَّاج) فوجد أنه قد كوى على بعد مسافة صغيرة من الجرح ربما حين أغمض عينيه، فقام (روفينو) بإكمال عملية الكيِّ بنفسه فأكمل المذنب الصراخ وأكمل الجلاد و(روفينو) الضحك فانضم إليهم (فرَّاج) في ضحك مفتعل لكن شعر بداخله بنوع من الرضا والسكينة الداخلية مع صراخ الموريسكي المسكين وكأنها موسيقى عذبة الإيقاع على مسمعه تُرضي روح الانتقام والكره بداخله على كل ما هو موريسكي.
هكذا استهل (فرَّاج) حياته المهنية الجديدة كمساعد جراح فتعلم العديد من الحيل الجراحية التي تطيل من عمر المعذَّب وصار كل يوم يأتي ويعمل بغرفة الجحيم بمزيد من الهمة والنشاط وكأنه يستمد من صراخ المساكين سلامه النفسي ورضاءه الداخلي. وتعلم الكثير من عمليات التعذيب الجراحية الرهيبة التي لا تخطر على بال الشيطان نفسه والتي يستعمل فيها (روفينو) الأحماض والمحاليل والمساحيق الكيميائية على المعذبين الأحياء للتجارب التي قد تنجح أو تفشل. لكن لم يكن هذا كل

شيء، بل كان على (فرَّاج) أن ينظف غرفة الجحيم من آن إلى آخر من الدماء والصديد والتقيؤ والبول والبراز المفرَز من المساكين المعذبين الذين لا يتحكمون في أنفسهم وهم بين الموت والحياة.
مع مرور الوقت كان نجم (فرَّاج) يسطع في ديوان التفتيش كجرَّاح واعد وقد بدأ يعتمد على نفسه فترك له (روفينو) الإشراف على العديد من عمليات التعذيب حتى يتفرغ هو لتجاربه الشيطانية. وعندما بدأ (فرَّاج) يمتلك مالًا من أجره ككل العاملين في الديوان طالبه (روفينو) بدَينه القديم فتماطل (فرَّاج)؛ حيث إنه كان يريد أن يحتفظ بمزيد من المال أكثر مما يستطيع خاصة وأن دينه لـ(روفينو) كبير لا يستطيع أن يدفعه مرة واحدة. عندما وجد (روفينو) من (فرَّاج) مماطلة هدَّده بفضح أمره إن ماطل أكثر من ذلك فوعده (فرَّاج) أن يدفع له المال عند زيارة (خوليو) القادمة ممنيًا نفسه بخصم أو إعفاء كلي أو جزئي. وفي الليلة الموعودة التي وعد فيها (فرَّاج) (روفينو) بسداد دينه مع (خوليو) كان (فرَّاج) في معمل القبو في منزل (روفينو) يخرج جمجمة من الحامض وينظفها حتى أصبحت بيضاء لامعة ثم وضعها على المنضدة بجوار جمجمة عظمية حديثة أخرى وجلس أمامهما مبتسمًا:
ها قد نِلْتُما أجركما بالتساوي يا رفاق..
ثم نقر بأصبعيه على إحدى الجمجمتين:
كنت أعلم أن رأسك أجوف يا (خوليو)..
ثم ضحك ضحكة مجلجلة وهو يرفع الجمجمتين ويعلقهما على حائط بطولات (روفينو) لا فرق بينها وبين جماجم الموريسكيين واليهود. ثم أمسك القنينة الصغيرة التي تحتوي على عينه البنية المخلوعة التي يعرفها تمام المعرفة وأمسك بها بحرص قبل أن يتأملها بارتياح ثم يضعها في لفافة من القماش وضعها داخل ملابسه بعناية بجوار قلبه مباشرة.
كان قد سمعهما يتهامسان حين همَّ بتحضير بعض الطعام والنبيذ بينما هما بقيا في المختبر بالقبو ونسيا أن هناك بين القبو وبين غرفة تحضير الطعام فجوة جدارية تنقل الصوت بوضوح. عرف خلالها (فرَّاج) أن (خوليو) لم يكن يساعده أبدًا كصديق ولكن ليقتسم المال مع عمِّه كما اتفقا، بل سمع (خوليو) وهو يهدد إن هو ماطل أكثر من ذلك فإنه سيبلغ الأخوية في (أوليبا) عنه وسيفضح أمره أمام الجميع. كان سهلًا عليه أن يدُسَّ لهما السم في النبيذ أثناء العشاء ثم يتخلص من جثتيهما بالحامض كما علمه (روفينو). لم يكن من الممكن على (فرَّاج) أن يترك مصيره معلقًا بين يدَيْ (خوليو) و(روفينو) وكلٌ منهما يهدده بفضح أمره. حتى وإن دفع لهما المال ما كانا أبدًا يكتفيان أو يتركانه في سبيله بل سيزداد الضغط عليه كلما علا شأنه كقميص حديدي يخنقه كلما نما جسده وسيظل طوال الوقت مهددًا منهما. عملية القضاء على (فابريسيو) لابد أن تكون كاملة متكاملة لا ثغرة فيها. وهو الآن الوحيد الذي يحتفظ بالسر.
حين ذهب إلى الديوان في اليوم التالي أبلغهم أن (روفينو) قد ذهب في رحلة عائلية إلى قشتالة القديمة وسيعود بعد شهور قليلة ولم يشتكِ أحد من غيابه بعد أن ملأ (فرَّاج) مكانه وأدى مهامه على أكمل وجه.
بلغت سعادته السماء عندما جيء بخاله (جميل) تحت يديه بعد أن حُكِم عليه بالموت تطهيرًا بالعذراء؛ حيث يوضع داخل تمثال معدني للعذراء مليء بالمسامير من الداخل تغلق ضفتيه عليه فتنغرس عشرات المسامير في كل جزء من جسده دون أن تنفذ إلى أعضائه الحيوية فيظل يتعذب وينزف لأيام طويلة قبل أن يهلك. كان قد أوصى أخوية (بيدرو) سابقًا أن يتربصوا بخاله ويدسُّوا له في متاعه شيئًا من الممنوعات ثم يبلغوا عنه انتقامًا لضربه وتعنيفه له طوال الوقت في (أوليبا) وها قد صدقوا

وعدهم. أمر بعزله وحده في غرفة منفردة للتحقيق معه دون أن يتعرف عليه خاله وهو في حالة يرثى لها، وعندما انفردا سويًّا كشف عن نفسه وتهكَّم عليه وأخبره أنه هو من أحرق المنزل بأمه وأخيه وأنه الذي رتب للقبض عليه والزج به في الديوان المقدس، فهاج (جميل) وماج وبصق عليه ودعاه بالمسخ وهدده بفضح أمره. فقام (فرَّاج) بمنتهى البرود بتثبيت رأسه بحزام جلدي في مؤخرة الكرسي الذي كان (جميل) مقيَّدا به ثم استخدم آلات حديدية مفصلية ومِقصية لإجباره على فتح فمه ثم قصَّ لسانه بكل برود حتى سالت الدماء من فمه كالنافورة وهو يصرخ في هستيرية بكلام غير مفهوم فقال (فرَّاج) شامتًا وهو يلوح باللسان الدامي المقطوع بين أصابعه:
أهذا الذي كان يُذيقني أقذع الشتائم؟.. ماذا؟ ألن ترد؟ ألن تتحدث لتكشف أمري؟!
نادى (فرَّاج) على الجلادين ليأخذوه للعذراء بعد أن أتم استجوابه ففكوا قيده وهو لا يزال يصرخ ويشير إلى (فرَّاج) ويتكلم بأصوات غير مفهومة، ثم وضعوه في العذراء وأطبقوا عليه جانبي التمثال المعدني فصرخ من انغراس عشرات المسامير في كل جزء من جسده فازداد صراخه وهمهماته غير المفهومة ثم خفتت شيئًا فشيئًا حتى صمتت.
دخل فارس إسباني رفيع الشأن عالي الرتبة مع كبير ديوان التفتيش على (فرَّاج) وهو لا يزال يمسك بلسان (جميل) الدامي. فعرَّف به القس إلى الفارس الذي اتضح أنه كاردينال كبير في البحرية الملكية. كان كلام القس عن (فرَّاج) إيجابيًّا أنه شاب شجاع وجراح ماهر يعتمد عليه الديوان اعتمادًا كليًّا. رحب به الكاردينال ثم شرع في شرح مدى أهمية استجواب المذنبين قبل قتلهم للحصول على معلومات مهمة تفيد الجيش في تعقب المارقين أو تفيد البحرية في تعقب القراصنة الترك المتصلين بالموريسكيين.
هنا وجد (فرَّاج) فرصة سانحة ليستغلها فأخبر الكاردينال أنه استجوب آخرَ مذنب بنفسه واستخدم معه أشنع الأساليب في استجوابه حتى حصل على معلومات قيّمة عن المارقين في (أوليبا) وأخبره بمعلومات كان يعلمها سلفًا عن المجاهدين في (أوليبا). أثنى الكاردينال على الشاب (خوسيه) والمعلومات القيمة التي أتى بها وأمر بمكافأته ثم همَّ بالرحيل عن مبنى ديوان التفتيش لكن (فرَّاج) لحقه في سرعة قبل مغادرة المجمع الكنسي ثم طلب مساعدة الكاردينال في الالتحاق بالبحرية الملكية كجندي وأنه يستطيع أن يفيدها بمعلوماته عن الموريسكيين واستجوابهم وما إلى ذلك وإنه لديه طاقات كبيرة تُهدر في هذا القبو ويستطيع خدمة الملك من خلال البحرية أكثر منها في الكنيسة. أعجب الكاردينال بحماس (فرَّاج) ووافق على طلبه وأمره أن يأتيه بثكنات الأرمادا الشمالية حتى يدرجه في قائمة المتدربين؛ حيث يبدأ برنامجه التدريبي العسكري والبحري.
شعر (فرَّاج) أنه قد خطا خطوة مهمة في الوقت المناسب. لقد أيقن أن وجوده في الديوان وإشرافه على عمليات تعذيب الموريسكيين فيه من الخطورة أن يتعرف عليه أحدهم كما حدث مع (جميل). (أوليبا) أحد أعمال بلنسية ومن الوارد أن يصادف أحدًا من موريسكي (أوليبا) في غرفة التعذيب ويتعرف عليه فيعرف الجلادون بأمره ويبلغون عنه ولهذا كان لابد له أن يجد مخرجًا من هذا المكان إلى أفضل منه. ليس هذا وحسب بل وجوده في هذا المكان لربما يربط بينه وبين اختفاء (روفينو) الجراح ويكثر السؤال وربما يطاله التحقيق. إذن فخطوته القادمة هي الأرمادا؛ حيث الطريق مفتوح للمجد والسطوة والانتقام. ومنذ ذلك الحين انضم (فرَّاج) إلى الأرمادا. تدرب ثم انضم إلى فرع التخابر وجمع المعلومات التي تفتح له الكثير من الأبواب وتعطيه مزيدًا من السلطة علها تشبع نهمه ولو قليلًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(٢) رقصة (ماديلينا)
(١)

حدود غرناطة الشمالية شتاء ١٥٦٦م.
لم يشعر (عُمَير) أن الجواد قد أنهكه العدو في هذه الأرض الصخرية بل تكاد أقدامه تتعثر من التعب. فها هو الآن في يومه السابع ناشدًا الجنوب منذ ترك (أوليبا) ونجاحه في الفرار منها والبعد عن الأعين المتربصة به، ثم سلوكه الطريق الوعر إلى الجنوب؛ حيث غرناطة وهو بين حالتين؛ إما الهروب متخفيًا من دوريات الشرطة الباحثة عنه أو عساكر الجيش المتجولين بين المدن والقرى، وإما أنه هائم شارد في حبيبته التي اضطر لتركها مؤخرًا بعد نحو عام قضاه هائمًا في حبها بدلًا من أن يكون هاربًا لاجئًا في بيتها. أخذ (عُمَير) يتحسس صدره وعليه قلادة (ماديلينا) الفضية التي ألبستها إياه طالبة منه ألا يخلعها أبدًا.
القلب الفضي هو قلبك يا (ماديلينا).
بل قلبي من زجاج يا (عُمَير) ومصيره للتهشم يوم أفقدك.
إذن لن تفقديني أبدًا يا حبيبتي.
قضى (عُمَير) ما يربو على العام في بيت الدون (دييجو). كان من المفترض أن يلتجئ به بضعة أيام خائفًا طريدًا متخفيًا بعيدًا عن العيون استعدادًا للهرب، لكن في بعض الأحيان تسير الرياح بأفضل مما تشتهي السفن، فمنذ الوهلة الأولى حين وطئت أقدامه حديقة القصر رأى ما لم يكن ينتظره. (ماديلينا) الجميلة الهادئة اللطيفة بنت الدون (دييجو) استقبلته بحفاوة غير متوقعة، وساعدت (سعيد) في إخفائه وإيوائه وأمدته بالغذاء والكساء. وأجمل ما أمدته به هو الصحبة والعطف والحنان فالحب.
لم يكن (عُمَير) يتخيل أن يتحول وهو (عُمَير) الغاضب الحانق على الإسبان ونبلائهم وأبنائهم إلى ذلك الحمل الوديع أمام جمال (ماديلينا) ورقتها وعذوبتها. نظرة واحدة من عينيها كانت كفيلة بتحويله من أسد جريح غاضب إلى قط وديع حنون. كانت تأتيه كل يوم مع غروب الشمس فتأتي له بألذ أنواع الطعام ثم تأكل معه لقمة بلقمة فيستسيغ الطعام لا لطعمه ولكن لأنه يقتسمه معها. لم تفارقه يومًا بالرغم من سكنه في حظيرة الخيول. وحين مرض بالحمى طببته وداوته وأطعمته. وحين سرحت همومه في أحزان الماضي وخطورة الحاضر وإظلام المستقبل رفعت عن كاهله الآلام والأحزان وأسعدته وأراحته بحنان أم رَقوب وعطف أخت وحيدة وخفة ابنة مدللة. شيئًا فشيئًا تحول كل هذا إلى انجذاب فمودة فهوى فصبابة فعشق فوله فهيام. صار لا يطيق بعادها وينتظر قدومها بفارغ الصبر. صار لا يستسيغ الطعام أو الحديث إلا معها. حتى (سعيد) صاحبه لم يستطع أن يملأ عليه يومًا أو ساعة. ملأت عليه حياته بل صارت (ماديلينا) هي كل حياته. لا ينسى أبدًا عندما كانت تأخذه إلى مكان أمين في الحديقة بعيدًا عن العيون يتنفس الهواء البكر في مرأى غروب الشمس بصحبتها ثم يتحدثان لساعات طويلة حتى يطيل الليل فتأخذه إلى مأمنه وتطمئن عليه كما لو كان عصفورها الأليف قبل عودتها إلى غرفتها التي لا يجرؤ هو على الاقتراب منها. لا ينسى أبدًا تلك الليلة التي سهرا فيها طويلًا وقد نسيا الوقت بل نالهما نوبة من الضحك تبعها نظرة حنونة منها لم تنهها قبل أن ترمي برأسها على صدره رويدًا رويدًا مع عدم ممانعته حتى نامت في حضنه آمنة مطمئنة فلم يجد

من نفسه إلا أن حاوطها بذراعيه بتردد ثم بثقة فثبات. هو يريدها أن تكون جزءًا من جسده لكنه كان مترددًا في ذلك لغرابة الموقف وخطورة الظروف المحيطة به.
أما (ماديلينا) فوجدت ضالتها في (عُمَير). لقد أصبح (عُمَير) قضيتها الوحيدة فصارت حمايته واجبًا عليها ومساعدته أمرًا لا جدال فيه. لقد سئمت أن تكون هي محطَّ رعاية وعطف الجميع منذ الصغر والآن آن لها أن تكون هي الراعي والحامي والعطوف. لم يكن فقط لأن (عُمَير) حفيد أحب الأصحاب لأبيها السيد (بينيديكتو)، بل لأنها وجدت في عينيه عبر غابات الغضب والحنق حزنًا تألفه وتعرفه جيدًا. همومًا وأحزانًا أكبر من سنه يتحملها هذا الفتى جعلت من نفسها جنديًّا لحمايته وإراحته والتخفيف عنه. زالت عنها نوباتها القلبية، لم تشعر معه بضعف أو وهن أو مرض بل تستمد من رعايتها له قوة غريبة تجعلها تقاوم المرض وتعضد قلبها الضعيف من أجله. حتى أبوها لاحظ تحسن صحتها وازدياد همَّتها ونشاطها فسعد كثيرًا لذلك ولم يرد حتى أن يسألها أو أن يقطع عليها تلك الحالة أيًّا كان سببها مخافة انتكاسة تلمُّ بها أو همٍّ يتلبسها. لم تكن بمعزل عن محيطها فسمعت بالاتهامات المنسوبة إليه من حرق وقتل لكنها لم ترد أن تسأله خوفًا من أن تفقده فبادرها هو باعترافه المفاجئ بما يُخبِّئ عنها من اتهامات نسبها الجميع إليه وأقسم لها بكل الأيمان أنه لم يفعل تلك الموبقات. صدَّقته على الفور ولم تحتج إلى دليل أو إثبات. فقط النظرة إلى عينيه تكفيها لتشهد على صدقه.
بعد أن لمَّحا بحبهما بالنظرات والتلامس الدافئ جاء التصريح به فكان في غروب أحد الأيام الخريفية تحت شجرة بلوط عالية عملاقة متشابكة الأغصان أمام مرأى شفق خريفي جميل مع نسمة هواء باردة ورائحة أشجار النارنج والبرتقال تملأ المكان. أسند (عُمَير) ظهره إلى جذع الشجرة جالسًا نصف مستلقٍ ورمت (ماديلينا) برأسها على صدره بعد أن أصبحت عادة محببة لها وله، وبعد أن انتهيا للتو من حديث رقيق مطوَّل ساد الصمت للحظات حتى فوجئ (عُمَير) بـ(ماديلينا) تعتدل أمام وجهه ورمته بنظرة راغبة ووجنة وردية وشفة رطبة مرتعدة ثم أحس باحترار أنفاسها على وجهه، ودون سابق إنذار ارتمت بشفتيها على شفتيه في رقة ودفء جعلا (عُمَير) يسبح في عالم آخر تنفس له الصُّعَداء بأنفاسٍ تأتي من الجنة ودفء يسري في عروقهما. توقفت أنفاسهما وهما يتبادلان تلك القبلة البريئة. قبلة متلهفة لقلبين ضائعين من عالمين متضادين التقيا في محيط شفتين ومداد روحين.
ثم نظرت إليه نظرة منهكة المشاعر قائلة في تضرع:
تعلم أني أحبك أليس كذلك؟
لم يخيب (عُمَير) ظنها ورد مسرعًا:
وأنا أيضًا يا حبيبتي.
ثم ارتمى بشفتيه يلتهم شفتيها في رغبة ورجفة.
لم تفلح معه تنبيهات السيد (ناصر) بوجوب الرحيل من القصر في أسرع وقت. الخطورة تحدق به من جميع الجهات. و(بيدرو) بالرغم من عدم إقامته الدائمة في القصر إلا أن فرصة اكتشافه لأمر (عُمَير) متخفيًا في بيت أبيه كبيرة. سوَّف (عُمَير) كثيرًا وتجاهل أحيانًا فلا يمكنه أن يترك (ماديلينا) إكسير الحياة بالنسبة له. جاءه (سعيد) بالرسائل العديدة من السيد (ناصر) بحتمية الرحيل بعد أن هدأت الأمور وعادت الحياة إلى طبيعتها وتناسى الجميع أمر الحريق والضحايا والتحقيقات الشكلية التي تمت لكنه تجاهل ذلك كله وادَّعى في قرارة نفسه أنه محميٌّ بهذا الحب وملاكه الحارس. لكن كان هذا غير حقيقي بالمرة فهناك من العيون من تربص به وعرف بأمره وأخبر سيده.

كان الحبيبان في مجلسهما في حظيرة الخيول؛ حيث كانت ليلة ممطرة باردة في الخارج وارتمت (ماديلينا) بجسدها بين ذراعي (عُمَير) الذي أخذ يمرر بكفه على ذراعيها الرقيقتين حين فوجئ بأقدام ثابتة تقف أمامهما تمامًا. رفع برأسه فإذا بـ(بيدرو) ابن الدون (دييجو) وأخي (ماديلينا) يرمقهما بعين غاضبة يتطاير منها الشرر وخلفه يقف الواشي أحد العاملين بمزارع القصر. ثوانٍ سريعة مضت ليستوعب الحبيبان الموقف. كان الأمر جليًّا لـ(عُمَير) أنها ربما تكون النهاية حين يقبض (بيدرو) وحراس القصر عليه، بينما (ماديلينا) شعرت في البداية بقلبها يكاد ينفجر بدقاته المتسارعة والدم الحار يندفع إلى عروقها ورأسها وكادت تسقط على الأرض مغشيًّا عليها لكنها استمدت من حبها لـ(عُمَير) وخوفها عليه القوة فاعتدلت واقفة هي و(عُمَير) مواجهين (بيدرو) الذي وقف متسمِّرًا محاولًا أن يفهم الموقف قبل أن يشير بسبابته إلى (عُمَير) بازدراء وهو يوجه كلامه الغاضب جازًّا على أسنانه:

ترمين بنفسك في أحضان كافر موريسكي وتأوين قاتلًا هاربًا؟! هل جننت؟ ألا تعرفينه وما فعل؟

وقف (عُمَير) مبهوتًا متجمدًا بينما استجمعت (ماديلينا) شجاعتها قائلة بصوت مرتعد:

نعم أعلم كل شيء ولكنه لم يفعل أيًّا مما تدعون.. ونحن نحب بعضنا البعض أيضًا.

اتسعت حدقتا (بيدرو) وتدلى فكه السفلي مصدومًا مما يسمع وامتدت يده ليقبض على مقبض خنجر معلق في خاصرته لكن (ماديلينا) لم تسعفه وصاحت فيه بعد أن وقفت حائلًا بينه وبين (عُمَير):

حاول أن تناله بأذى وأقسم بالرب أن يكون هذا آخر يوم لك في الإقطاعية. إن مسسته بسوء ستكون أنت السبب في موتي وأنت تعلم ما يعني هذا لأبي.

كان (بيدرو) يعلم بجنون أبيه وحبه الطاغي لابنته- أخته- (ماديلينا) وأنها على حق فأبوه لن يتورع عن قتله أو التخلص منه إن مسَّ (ماديلينا) بسوء.. أي سوء. وهو يعلم أن قلب (ماديلينا) الضعيف لن يتحمل مثل هذه النكسات وستنهار على الفور. أحس (بيدرو) بعجزه أن يمس (عُمَير) على الأقل في الوقت الراهن فوجه تهديده لـ(عُمَير) وهو يغادر الحظيرة:

مجيئك هنا واختباؤك كل هذا الوقت في بيتي يحمل من الجرأة الكثير لكن فلتعلم أنك لن تغادر هذا المكان حيًّا.. أقسم بالرب.

ثم غادر مسرعًا هو والعامل وهو يتوعد ويُزبِد ويغمغم. بينما وقف الحبيبان للحظات لا يصدقان ما حدث قبل أن تنهار (ماديلينا) على الأرض فقلبها لم يحتمل تلك الإثارة والخوف والرعب. ارتمى عليها (عُمَير) هلعًا:

حبيبتي ما بك؟!!

قالت في ضعف ووهن بصوت ضعيف:

لا يهم يا حبيبي.. لابد أن ترحل الآن فورًا.. (بيدرو) لن يقبل الهزيمة وسيخطط للقبض عليك في أسرع وقت.

كان يعلم أنها على حق وأن ساعة الهروب قد حانت لكنه لا يستطيع أن يتركها على هذه الحالة. فهمت (ماديلينا) خوفه عليها فأكملت:

لا تخف عليَّ.. لا (بيدرو) ولا أبي يستطيعان أن يُلحقا الأذى بي.. أما أنت فأخاف ألا أستطيع أن أحميك إذا تدخلت الكنيسة أو الشرطة. اهرب يا (أوريليانو).. اهرب ثم عُد لي مرة أخرى.. سأنتظرك..

ثم اعتدلت متألمة وأخذت تلملم حاجياته وأمسكت بيديه فسلم نفسه لها وماذا بيده أن يفعل غير ذلك.
أخذا يتحركان في خفة وسرعة واحتراز خارج الحظيرة يتخفيان بين زخات المطر والأشجار العملاقة وأشجار البرتقال حتى وصلا إلى مكان لقائهما الأول عند الشجرة الكبيرة التي تسلل خلالها (عُمَير) أول الأمر. توقفا تحت الشجرة وزخات المطر تنهال على رأسيهما. تطلعا لبعضهما البعض وجهًا لوجه. رمقته بعين منهكة ولكن غلبها الحزن والوله لقرب فقدان الحبيب. ثم خلعت قلادتها ذات القلب الفضي الصغير المتدلي منها وألبستها إياه قائلة:
هذا القلب الفضي هو عهدك لي أن ترجع مرة أخرى.
القلب الفضي هو قلبك يا (ماديلينا).
بل قلبي من زجاج سيتهشم يوم أفقدك يا حبيبي.
إذن لن تفقديني أبدًا يا حبيبتي أبدًا.
ثم ارتمى على شفتيها بقبلة وداع طويلة تمنت لو استمرت إلى لأبد ثم تسلق الشجرة وقفز إلى الجانب الآخر من السور ثم اختفى عن العيون في الظلام.
أنت؟! من هناك؟؟؟
أفاق (عُمَير) من غفلته وقد أيقن أن شروده جعله لم يلحظ الجوادين القادمين من بعيد والفارسين الراكبين المتجهين إليه. ارتعد (عُمَير) للحظة وفكر في الهروب لكن قد فات أوان ذلك، لكن الفارسين لم يكونا إسبانيين ولا من العساكر أو الشرطة، بل يبدوان موريسكيين فبادره أحدهما بسؤاله:
أهلا يا أخي.. هل أنت مسافر قادم من الشمال؟ هل تعرضت لمضايقات العساكر أو قطاع الطرق؟
استراح (عُمَير) ثم قال:
كل شيء مر على ما يرام.. أين أنا الآن؟
أنت على مشارف غرناطة ألا ترى تلال الحمراء في الأفق؟ الشرطة الإسبانية تتغاضى عن قطاع الطرق وتتركهم يعيثون فسادًا ويتحرشون بالموريسكيين الهاربين بين المدن فكوَّنَّا بمجهوداتنا الذاتية فرقًا لحماية المسافرين.
ثم أشار إلى الأفق فإذا بتلال الحمراء تظهر من بعيد بقصورها وحقولها فتنفس الصُّعَداء قبل أن يسأل:
هل لكما أن تدلاني إلى الحسنين القزازين؟
هل تعرف التجار حسن وحسان القزازين؟
نعم.. أنا قريب لهما قادم من بعيد.
أهلا بك.. إنهما من كبار صناع وتجار الحرير في غرناطة.. هيا سنأخذك إليهما.
شعر (عُمَير) أن رحلته قد أتت ثمارها حين وصل إلى بيت أخواله (القزازين) واستقبلاه بالترحاب وضمَّاه بين أبنائهم- الذين غلب عليهم الإناث- وتجارتهم وأعطياه اسمًا ولقبًا جديدًا حتى يستطيع أن يقيم في غرناطة بطريقة رسمية بعيدًا عن مضايقات الشرطة والمفتشين. كان (القزازين) من التجار الميسورين في غرناطة؛ حيث يمتلكون العديد من المشاغل ويعمل لديهما العشرات من الموريسكيين.
مرت الأيام الأولى لـ(عُمَير) في غرناطة تحت كنف أخواله وهو يسترد أنفاسه من الرحلة الشاقة واستقر بسرعة لم يكن يتوقعها. لكن لم يكن يقضُّ مضجعه من حين إلى آخر إلا سيرة (ماديلينا). ترى ماذا حدث لها بعد أن رحل؟ كم هو أناني حتى يهرب ناجيًا بنفسه ويتركها تجابه أخاها الذي لابد وأنه قد أقام الدنيا عليها. ولكن ماذا كان يستطيع أن يفعل وهو الحلقة الأضعف وحياته لا تساوي لديهم ثمن

طلقة بارود واحدة وقد أهدر الجميع دمه؟ ثم لا يلبث يتحسس صدره والقلادة الفضية كما لو كان يتراسل مع (ماديلينا) من خلالها.
ما لبث أن أتاه اتصال من أخوية موريسكية بمنطقة (البشرات) وهي منطقة جبلية وعرة بها العديد من القرى الجبلية النائية يعيش فيها آلاف من الموريسكيين الذين فروا أو ارتحلوا من المدن والقرى الكبرى بعيدًا عن أعين وأذرع الإسبان الذين يعلمون بأمرهم لكنهم يتجاهلونهم ولا يجرؤون على الاحتكاك بهم مما ساعد بعض الرجال والشباب المتحمسين في تكوين أخويات مسلحة وتطويرها في العدة والعتاد. جاءه أحد الشباب يدعوه إلى مقابلة السيد (فرج بن فرج) بإيعاز من السيد (ناصر). فذهب معه (عُمَير) بعد أن قضى يومًا كاملًا في التنقل بين الطرق الجبلية الوعرة حتى وصل إلى قرية (وادي لكرين الخضراء) ذات الجداول المتدفقة. أخذه الشاب بين البيوت المتناثرة حتى وصل إلى بيت كبير يبدو كقلعة صغيرة ما إن دخله حتى أيقن بأهمية هذا المنزل وصاحبه، ففي ساحة المنزل الداخلية ترتفع راية حمراء عليها نقوش عربية وعلى كل جدار معلق أثر غرناطي كسيف أو بندقية أو جراب مجلي بالذهب أو بقايا أعلام أندلسية قديمة مهترئة. وكانت هناك صناديق خشبية كثيرة مرصوصة بكل أجناب المنزل فاستنبط أنها صناديق أسلحة. أخذه الشاب وأجلسه في غرفة مبهرة عالية الحوائط ويزينها العقود الأندلسية بخطوطها القرمزية. كانت أقرب ما تكون لبلاط عرش مصغر لا غرفة استقبال؛ حيث كان هناك كرسي خشبي مزركش مرتفعًا عن الأرض أعلى من بقية الغرفة.
أخذ (عُمَير) يتأمل الغرفة ومحتوياتها الفاخرة حتى دخل عليه رجل بهيُّ الطلعة له هيبة الملوك بملابس الأمراء الأندلسيين العربية ورائحة العطر تفوح منه ومن ذقنه الكبيرة السوداء وعمامته الناصعة البياض، وكان هناك تابع يسير خلف الرجل ويتتبع خطواته منتظرًا أوامره أو إشاراته. دخل الرجل في همة وسلم على (عُمَير) في سرعة ثم جلس على الكرسي قائلًا:
راسلنا أخي (ناصر) وأخبرنا عن همتك ونشاطك في (أوليبا) ونواحي بلنسية وهو يستبشر خيرًا بانضمامك إلينا هنا بعد أن هربت من أنياب ومخالب الإسبان هناك.
سارع (عُمَير) بالسؤال:
وماذا لديكم هنا يا سيدي إذا سمحت لي بالسؤال؟
أخذ السيد (فرج) نفسًا عميقًا ثم قال:
نحن هنا نواة الثورة الأندلسية الإسلامية يا ولدي. بعيدًا عن أعين الإسبان استطعنا أن نتواصل مع إخواننا في المغرب والترك وهم يدعموننا الآن ماليًّا وعسكريًّا بالسلاح والذخيرة على قدر الإمكان وسيدعموننا قريبًا بجنود وعساكر أيضًا. أما نحن هنا فنستقطب السواعد الفتية مثلك واستطعنا تكوين نواة جيشنا المسلح. نحن نستعد جديًّا لإعلان العصيان المسلح عندما يأتي الوقت المناسب.
أحس (عُمَير) بنيران الثورة تستعر من جديد في صدره بعد أن طغت عليها وبردتها أمواج الحب وهو يسمع ما كان يتمناه يومًا يتحقق أمامه فسارع قائلًا:
فلماذا لا نهاجمهم الآن؟
أعجب السيد (فرج) بحماسه فقال:
العجلة ليست في صالحنا يا ولدي. إننا الآن بضعة آلاف قلائل لا نستطيع أن نجابه جيوش الإسبان المدججة بالمدافع والبنادق. الوقت في صالحنا لأننا نزداد في العدد والعتاد والمساعدات الخارجية. كل ما نريده الآن أن نتدرب جيدًا ونستعد لثورتنا لأنها قد تكون الوقفة الأخيرة لاستعادة الأندلس

فيجب علينا أن نستغلها جيدًا وإلا ضاعت الفرصة إلى الأبد.. كل ما نحتاجه منك الآن يا ولدي أن تأتي إلينا مرتين أو ثلاث مرات أسبوعيًّا لتتدرب مع الشبيبة والفرسان ثم اترك لنا اختيار الميعاد المناسب للـ..
قاطعه صوت جَهْوَرِي من خلفه:
إننا مستعدون يا سيد (فرج)..
التفت إليه السيد (فرج) ثم التفت مرة أخرى إلى (عُمَير) مبتسمًا قائلًا:
يبدو أن حماسك قد جاء بك في الوقت المناسب يا ولدي.. خذه يا (محمد) وضمه في مجموعات التدريب من اليوم.
كانت مفاجأة سارة لـ(عُمَير) جعلته يقوم بهمة ونشاط ويتجه مع (محمد) عبر باب خلفي من البيت إلى ساحة واسعة بها بضع عشرات من الشباب يصطفون باستقامة يواجهون حائطًا يبعد عنهم أمتارًا كثيرة وبه علامات شاخصة فأوقفه (محمد) بجوار الشباب في صف واحد ثم غاب عنهم للحظات قبل أن يأتي مرة أخرى ومعه شاب آخر يحملان صندوقًا خشبيًّا بينهما قبل أن يضعاه ويفتحاه ثم يناولان كل شاب بندقية معدنية جديدة ذات يد خشبية وفوهة طويلة. كانت أول مرة لـ(عُمَير) يمسك فيها بندقية بين يديه فأخذ يتحسس مقبضها الخشبي ويتشمم رائحتها الجديدة وملمس فُوهتها المعدني في شبَق. كان دائمًا يتساءل عن ملمس البندقية عندما يراها في أيدي الجنود الإسبان بينما كان محرمًا عليهم كموريسكيين أن يلمسوها. شاهده المدرب (محمد) ولاحظ إعجابه بالبندقية فأقبل يهمس في أذنه:
جميلة أليس كذلك؟!
ابتسم (عُمَير) في نشوة انتصار قائلًا:
هي ثاني أجمل شيء على الإطلاق..
عقد (محمد) حاجبيه متسائلًا:
وما الأولى إذن؟
شرد ببصره وهو يتحسس القلادة على صدره تحت قميصه وهو يتذكر أجمل شيء حدث له في حياته على الإطلاق.. حبيبته (ماديلينا).. ثم بدأ في التدريب على إطلاق النار على الشواخص المعلقة على الحائط البعيد.
بينما كان اسم (ماديلينا) يتردد في قلبه وعقله ووجدانه، كان اسمه يتردد بغضب وحنق في جنبات قصر الدون (دييجو). جلس الدون (دييجو) محطمًا مكسورًا على كرسي وثير في الرواق منتظرًا الطبيب الذي استدعاه الدون بعد انهيار ابنته في تلك الليلة. لن يسامح نفسه على ما اقترفه في حق حبيبته وقرة عينه (ماديلينا). عندما دخل عليه ذلك الشيطان (بيدرو) معربدًا حانقًا ليخبره أن (ماديلينا) تأوي (أوريليانو) الموريسكي القاتل الهارب الذي تبحث عنه الشرطة منذ شهور طويلة. كانت تأويه كل تلك الفترة في حظيرة الجياد وترعاه وتهتم به. كانت المفاجأة تُلجم الدون (دييجو) عن الكلام لكن المصيبة الكبرى عندما أخبره (بيدرو) أنها تحبه وتعشقه بل ربما أكثر من ذلك باعترافها أمامه. هنا اسودت الدنيا في عيني الدون (دييجو). استطاع (بيدرو) أن يوقظ الشيطان الكامن في نفس الدون فرسم له ما ينتظره من مصير إذا عرف عنه أنه يأوي موريسكيًّا قاتلًا هاربًا بل إن ابنته سلَّمت نفسها له وارتمت في أحضانه. أي مصير ينتظره في الديوان الملكي والكنيسة وهو أشهر وأغنى النبلاء في المنطقة. أي ذل وعار ستُلحقه (ماديلينا) به. وبينما الشيطان يتلاعب برأسه دخلت (ماديلينا) عليهما قادمة من الخارج بعد أن ودَّعت (عُمَير) ونالها التعب والهزال مع البلل والطين فاستندت على

الأشجار والحوائط حتى دخلت القصر لتَفاجأ بأبيها الدون (دييجو) مع (بيدرو) والشرر يتطاير من أعينهما. للمرة الأولى لا يرقُّ الدون (دييجو) لمرأى ابنته المتعبة وقد أعماه الغضب، فسألها حانقًا إن كان ما يقوله (بيدرو) صحيحًا وأنها تأوي بل تحب الموريسكي الكافر القاتل الهارب.
شعرت (ماديلينا) بخنجر يعتصر قلبها الضعيف وهي ترى أباها الحنون والإنسان الوحيد الذي يهتم بأمرها ويرعاها دون قيد أو شرط وقد تحول إلى شيطان آخر غير ما عهدته. شعرت أن الأرض تدور بها لكن استجمعت شجاعتها وأكدت على كلام (بيدرو) أنها تحبه وتعشقه وكانت ترعاه بعيدًا عن أعين الشرطة المتربصة به وأنه مظلوم ولم يرتكب تلك الجريمة وهو حفيد أحب الأصحاب إليه.
أخذ الغضب يتملك الدون في حين كان (بيدرو) يتأمل صنيعة عمله راضيًا منتظرًا النتيجة. انطلقت يدا الدون ككلّابتين اعتصرتا كتفي (ماديلينا) الصغيرين وأخذ يهزها في قوة يعنفها بينما وقفت هي مستسلمة متجمدة بين يديه لا تصدق ما تسمع أو ترى وقد فقدت الشعور بآلام كتفيها. كان يصيح بها أنها تلطخ اسم الدون وبيته في الطين لمجرد إيواء موريسكي هارب.. وهل تعرف تبعات ذلك الأمر لو عرفت الكنيسة ما تحكيه. كان يهزها بعنف وغضب شديدين حتى انهارت (ماديلينا) على الأرض مغشيًّا عليها؛ حيث لم يتحمل قلبها الضعيف كل شحنات الغضب مع صدمتها في أبيها إضافةً إلى خوفها على (عُمَير) كل هذا في ليلة واحدة. وقف الدون مبهوتًا مصدومًا مما يرى. ماذا فعل؟ وكأنه قد أفاق الآن من غفلته وذهب عنه شيطانه بعد أن أوقعه في أحب الناس إليه ويكاد أن يفقده إياها. انكب الدون على ابنته متلهفًا يحاول أن ينجدها لكنها كانت مغشية عليها ضعيفة الأنفاس والنبض مزرقَّة الوجه وكأنها على شفا الموت، فحملها بين ذراعيه وانطلق إلى غرفتها وهو يصيح بالخدم أن يأتوه بالطبيب بأقصى سرعة.
ها هو الآن يجلس محطمًا لا يستطيع أن يرى ابنته بين يدي الطبيب جثة هامدة بينها وبين الموت لحظات وهو السبب فيما حدث لها. نعم هو السبب. لقد فقدت الثقة في حبه وعطفه ورعايته وصدقه وحلمه. لقد سقط من قلبها وعقلها إلى الأبد كما تسقط التماثيل الرخامية فتتحطم إلى أشلاء متناثرة على الأرض تمامًا كما حدث مع أمها. أليس هو من أخذها من يديها وعرفها ببيت (بينيديكتو) ومن فيه؟ أليس هو من روى لديها شجرة العطف والطيبة مع كل البشر مهما كان عرقهم أو دينهم حتى كبرت الشجرة ونمت ثمارها؟ أليس هو من كان يثني على إنسانيتها؟ أليس هو من عزلها عن الكنيسة وجنَّبها إرضاع الكنيسة تابعيها الكره لكل ما هو غير كاثوليكي؟ أليست دماء الموريسكيين تسري في عروقها وقد نبتت في رحمهم فلماذا يتفاجأ اليوم؟ الآن فقط فهم سبب هذا التحول الكبير في روحها وصحتها خلال العام المنصرم. كيف صارت ضحكتها تتردد كل وقت. كيف صارت نشيطة منطلقة حيوية كما لو لم يكن فيها مرض يومًا من الأيام. إنه انتقام الرب جاء حينه الآن. كما فعل في الماضي يُفعل فيه الآن بنفس الصورة مع اختلاف الأسماء (ماديلينا) هي (زيدية) و(عُمَير) هو (خوان) و(الوزيري) هو (الدون). خيانته لـ(الوزيري) تتجسد اليوم في (عُمَير) الذي يدق أول مسمار في نعشه بعد أن ينتزع منه ابنته انتزاعًا كما فعل. لكن لا يهم أي شيء آخر، مهما حدث لابد أن ينجِّي ابنته من براثن الموت مهما كلفه الأمر. دخل مسرعًا إلى غرفتها فوجدها جثة تكاد الحياة تتسلل منها كالرمال الناعمة من بين الأصابع. كان الطبيب يحاول أن يسقيها بعض الدواء لكنها أبت مغمضة العين في عالم آخر لا تعي ما حولها فأرقدها الطبيب والتفت إلى الدون (دييجو) الذي وقف ساكنًا وهمَّ أن يتكلم معه عندما سمع صوت ابنته تغمغم بصوت ضعيف فانكب عليها بأذنه في لهفة قائلًا:
ماذا تريدين يا قرة عيني؟

لكن (ماديلينا) لم تعبأ بكلامه للمرة الأولى في حياته كما لو لم تسمعه، ثم غمغمت وهي في عالم آخر لا تعي ما حولها بصوت خفيض ونبرة ضعيفة:
قلبي من زجاج.. سيتهشم يوم أفقدك يا (أوريليانو)..
ألهذا الحد صار حبها لذلك الفتى الموريسكي؟ لم يَدُرْ ذلك في مخيلته أبدًا. لكن إن كان هذا هو علاجها فليكن إذن وسيحققه لها مهما كلفه الأمر. حتى وإن كان هذا هو آخر أمل لها في هذه الحياة فسيحققه لها.
صاح بأعلى صوته إلى مساعده الأمين طالبًا إياه أن يأتيه بالفارس (ماوريسيو). ارتعد المساعد عندما سمع الاسم بينما ابتسم (بيدرو) وملأ النصر شدقيه. لم يدم وقت طويل حتى جاء فارس ضخم الجثة جامد الملامح مدجج بالأسلحة وانتظر في بهو القصر فأتى الدون في خطوات ثابتة ثم أمر الفارس (ماوريسيو) أمرًا جعل (بيدرو) يشتاط غضبًا. طلب الدون من (ماوريسيو) أن يبحث عن (أوريليانو) في كل مكان في المملكة الإسبانية ويأتي به حيًّا دون أذى ويستخدم كل سلطته وأمواله في سبيل حمايته والإتيان به من غير ضرر.
تعجب الفارس (ماوريسيو) في بادئ الأمر؛ حيث إن وظيفته غالبًا ما تكون على العكس من ذلك. اصطياد الموريسكيين الهاربين وقتلهم إحدى المهام التي عادة ما تُوكل إليه فتأكد من الطلب ثم سلمه الدون صرَّة من الذهب وورقة ممهورة بإمضائه وأمره أن يسرع في تنفيذ الطلب وكلما أسرع في تنفيذه ستكون له مكافأة أكبر. هز (ماوريسيو) رأسه وهو يتسلم صرة الذهب وكأن الأمر لا يعنيه ثم التفَّ ورحل استعدادًا لبدء التحقيقات والبحث عن الموريسكي الهارب. خرج (بيدرو) لاعنًا وساخطًا على أبيه المجنون الذي أمره بالغروب عن وجهه في حنق. بينما ظل الدون واقفًا وعقله وقلبه في غرفة (ماديلينا) العلوية: سامحيني يا ابنتي.. تماسكي حتى آتيك بالنجدة يا حبيبتي ولو في هذا نهايتي.

(٢)

أوليبا ١٥٦٧م.
لم يعد اللقاء بين الحبيبين (الغريب) و(حمدة) سهلًا بعد أن انتقلا للعيش في عنابر العاملين بالإقطاعية بعد موت الشيخ (عبد الصمد) وفُرِّقا بين عنابر الرجال وعنابر النساء وبينهما مسافات كبيرة وأسوار فاصلة، فصار اللقاء إما عابرًا في مشغل الحرير تحت تهديد المشرفين والحراس أو يتلاقيان بعد تمهيد وترتيب معقد ربما مرة كل شهر أو أكثر بعد أن يتسللا خارج العنابر بعيدًا عن أعين الجميع فينجحان مرة ويفشلان مرات فعزَّ اللقاء و استشاط (الغريب) شوقًا لحبيبته التي لم يفارقها منذ وعيا على الحياة وكانا يقيمان في نفس البيت ويلعبان ويسمران ويبكيان سويًّا كنفس واحدة في جسدين. كل هذه الأيام قد ولّت حين مات الشيخ ولم يظنا أنها ستولي يومًا من الأيام. وأحست (حمدة) بمزيد من الضعف وقلة الحيلة بعد أن فقدت داعمها وحاميها الأول والأخير. ذلك الذي لازمها منذ الصغر يحميها ويزود عنها: "لن يصيبك أحد بسوء وأنا حي أرزق يا حبيبتي.. ".
لكن لم تكن هذه هي المشكلة الوحيدة التي يواجهها الحبيبان، فبعد ليلة العرس صارت (حمدة) محطّ أنظار كل رجال (أوليبا)، من شاهد رقصها بالسمرة جن جنونه وهو يستعيد بين حين وآخر كل حركة والتفاتة واهتزازة لجسدها، ومن سمع برقصها وحكايا الحكّائين ومبالغاتهم استشاط شبقًا لها وقد صورت مخيلته أجمل رقصة لأجمل جسد لأجمل أنثى في (أوليبا). (أوليبا) القرية الصغيرة يسهل أن يحدث فيها مثل هذه الأمور وتتناقل الأحاديث والحكايات لتصل إلى حد الأساطير. فصارت (حمدة)

بين ليلة وضحاها نجمة (أوليبا) ومحط أنظار رجالها وحسد بناتها أكثر من أي وقت سبق. المصيبة الكبرى أنها لم تجذب انتباه الموريسكيين فقط، بل الإسبان بل فرسانهم وجنودهم حتى (بيدرو) ابن الدون (دييجو) أيضًا اتضح أنه وأخويته كانوا يراقبون العرس من بعيد وكان طبيعيًّا أن تلتقط عينا (بيدرو) جسد (حمدة) في ليلة كانت هي نجمتها الأولى. وزاد من رغبته فيها حديث شباب الأخوية المثير أو الساخر عنها وعن جسدها وحركاتها. حتى واقعة (فرَّاج) وأحداث شجاره مع (عُمَير) وحديثه عن رغبته في (حمدة) زاده تصميمًا أن ينالها:

قبل عيد الميلاد المقبل ستكون (حمدة) تلك مستلقية غنجًا بين فخذاي هذين.. أعدكم!

ومنذ ذلك الحين بدأ يتقصَّى أخبارها بل بدأ يتحكم في أمورها من بعيد عبر عملائه وتابعيه من الرجال والنساء في الإقطاعية، فأوصد بيت الشيخ (عبد الصمد) وباعد بينها وبين (الغريب)، ووضع العوائق أمام لقاءاتهما فكانت مشرفة المشغل التي تعمل به (حمدة) تأتيه بأخبارها وتستقبل الأوامر منه. وهكذا أخذ (بيدرو) يحول (حمدة) تدريجيًّا إلى فريسة سهلة يحكم الفخ من حولها بهدوء في انتظار اللحظة المناسبة لإطباقه عليها.

أخيرًا استطاع الحبيبان أن يلتقيا خارج أسوار المشغل وعنابره بعد مساعدات وترتيبات كثيرة. لم يعد اللقاء أمام البحيرة الصخرية تحت أنظار غروب الشمس ونسمات الهواء الصيفية، بل التقيا خلف أحد مباني المشغل في منطقة مهجورة فاصلة بينه وبين مبنى آخر؛ حيث يصعب رؤيتهما ويسهل اختباؤهما. ارتمت (حمدة) بين ساعدَيْ (الغريب) ورمت برأسها على صدره كالطفلة الصغيرة تتهنه شوقًا وضمها (الغريب) إلى صدره بقوة شديدة كما لو أنه يضم قطعة من جسده عادت إليه بعد غربة طويلة. ظلا يتأبط كل منهما الآخر في شوق حتى تطلعا إلى عينيهما الآخر والشوق والوله ينزف من مقلتيهما:

اشتقت إليكِ يا حبيبتي..

قالها (الغريب) برعدة عاشق تائه:

ضمني يا حبيبي إلى صدرك.. لماذا تركتني وحيدة.. ألم تعدني ألا تتركني أبدًا..

ضمها أكثر:

ما بيدي حيلة يا (حمدة).. كل الظروف تدفعنا بعيدًا وأنا أصارعها وحدي..

ولكن الخطر يحدق بي من كل جانب.. أنا خائفة!

نظر إلى عينيها في تساؤل:

ماذا بك يا مقلة العين.. أي خطر يهددك؟!

نظرت إلى الأرض منكسرة قبل أن تقول:

لاحظت مؤخرًا أن العيون تتربص بي من كل جانب.. ثم صارت المشرفات الإسبانيات تترصدنني وتراقبنني في كل مكان.. حتى أتتني إحداهن في خلوة من الجميع وبدأت تُغريني أن أسلِّم نفسي لابن الدون (دييجو) وأنه يستحسنني ويريدني أن أكون أنيسة وخليلة له على وعد منه أن يجزل لي العطاء وينقلني بعيدًا عن مشقة العمل.

وضع (الغريب) يده على رأسه من وقع المصيبة وأخذ يصب اللعنات على الحظ والظروف:

هذا أمر خطير. لن يتورع ذلك الـ(بيدرو) عن فعل أي شيء من أجل الحصول عليك.. إنه ولد فاسد في حياة فاسدة.. لديه كل الأدوات في يديه السلطة والمال والقوة حتى أخويته من الأشقياء تحت تصرفه.

سرت قشعريرة الخوف في جسد (حمدة) وهي تتخيل ذلك اليوم الذي يمتلكها فيه ذلك الإسباني الوقح وما قد يفعله بها. بينما أخذ (الغريب) يجيء ويذهب ويدور ويفكر فيما يفعله. ترتيب لقاء من وراء عيون الحراس كان شيئًا صعبًا فماذا يفعل الآن وهو ضعيف مراقب قليل الحيلة:
إذن لم يعد البقاء في (أوليبا) ممكنًا.
تدلى فكها السفلي وارتفع حاجباها دهشة:
ماذا! هل نترك وطننا نحن كالآخرين.. بيتنا الذي تربينا فيه.. طفولتنا وشبابنا محفورون في هذه القرية يا (الغريب).
الوطن؛ حيث السلامة يا حبيبتي.. الوطن؛ حيث نظل سويًّا.. لم تعد (أوليبا) وطننا منذ مات راعينا وحامينا الشيخ (عبد الصمد).. رحل إخواننا شرقًا وغربًا ولم يتبق منهم إلا القليل.. لقد رفضت فكرة الفرار مرارًا وتكرارًا رغم إلحاحها.. لكن الآن وهنا في (أوليبا) لا أستطيع حمايتك.. وأنت الشيء الوحيد الذي أعيش من أجله..
أخذت (حمدة) تصك خديها بيديها مولولة:
ليتني ما رقصت السمرة الأخيرة.. جعلتني مطمعًا لكل الذئاب..
لا تلومي السمرة يا حبيبتي.. حتى ولو لم ترقصيها تلك الليلة لكان أقصى ما يمكن أن يحدث أن يتأجل هذا الصراع بعض الوقت.. لكنه لم يكن لينتهي.. لم تُمِت السمرة الأخيرة الشيخ (عبد الصمد).. ولم تحرق بيت آل (طاهر) وتقتله.. ولم تدفع التهم إلى (عُمَير) أو تدفعه إلى مصير الهروب والمطاردة.. ولم تدفع (صبح) للهروب.. لقد كان (عُمَير) على حق!
إذن ماذا نحن فاعلون؟
قالتها بقلق. فرد بحزم:
لابد أن نرحل عن (أوليبا) في أسرع وقت. كل دقيقة نقضيها هنا فيها من الخطورة ما لا نطيق.. لنرحل في الغد ليلًا.. لنتقابل هنا في نفس المكان وفي نفس الوقت وسأقوم بعمل الترتيبات حتى نهرب من المقاطعة..
إلى أين؟
رمت سؤالها كقنبلة في ذهنه. كان كل همّه أن يهرب من هذا الجحيم. أي مكان يجتمع فيه مع (حمدة) هو جنة غناء وإن كان صحراء قاحلة.
بلنسية..
قالها ثم سكت. لماذا بلنسية لا يعرف. هي أقرب مدينة كبيرة لـ(أوليبا)؛ حيث يستطيع أي أحد أن يختبئ. لهذا كانت دائمًا مقصد الموريسكيين الهاربين، فرغمًا عن المخاطر المحدقة للموريسكيين الهاربين إلا أن سبل النجاة في هذه المدينة الكبيرة كثيرة ومتنوعة. فلم تعلّق (حمدة) ونكّست رأسها إلى الأرض فرفعها (الغريب) بأطراف أصابعه برفق وألقى إليها بعين حانية قائلًا:
لا تخافي شيئًا يا حبيبتي.. سأظل معكِ حتى آخر نبض في عروقي ولن يمسك أحد بسوء.
تعانقا واتفقا على اللقاء في اليوم التالي ثم رحلا متخفيين.
ظل (الغريب) يراقب (حمدة) وهي في طريقها إلى مبيت العاملات بالإقطاعية وما كادت تصل إلى مدخل المبيت حتى أمسكت يد حديدية بذراعها فانطلقت منها شهقة مكتومة وهي تُجذب في الظلام ناحية غرفة الحراسة ثم دفعت إلى الأرض فتأوهت قبل أن تعتدل وتبحث بعينيها عن صاحب هذه اليد الحديدية في رعب وخوف. وجدت نفسها محاطة بمشرفة العاملات الغاضبة القسمات وأحد حراس

الإقطاعية ينظر إليها بحزم وشكيمة لكن الأهم من هؤلاء كان (بيدرو) ابن الدون (دييجو) يجلس على مكتب كبير الحراس واضعًا قدميه على المكتب الخشبي وهو ينظر إليها في تشفٍ ورغبة فاضحين.
مضت ثوان صمت مطبق خشت (حمدة) أن تقطعها لتسأل لماذا هي في هذا المكان في هذا الوقت؟:
كانا يتقابلان منذ قليل خلف المبنى الكبير للمشغل يا سيدي.
قالتها المشرفة الحانقة. فاعتدل (بيدرو) في جلسته وعيونه تفضح رغباته الشيطانية:
نستطيع أن نلقي القبض عليكما والزجّ بذلك التعس في السجن وربما نقتله أيضًا..
شهقت (حمدة) هلعة فابتسم الخبيث (بيدرو):
وأنت أيضًا يا (حمدة) لقد خالفت القانون ونستطيع أن نبلغ عنك ديوان التحقيق.. ألا تعرفين أن رقص السمرة أصبح من الجرائم التي تعاقب عليها الكنيسة الآن؟ وأظنك تعرفين ما يحدث هناك في ديوان التفتيش.
ترقرقت الدموع المقهورة في عيني (حمدة) وهي تقف عاجزة عن النطق والحركة وشلت عن التفكير. أين (الغريب) لينقذها كعادته؟ أين هو لينجيها من مصير لا تستحقه؟ هي تخشى عليه هو أيضًا. حبه لها وضعه هدفًا سهلًا للذئاب. انتظر (بيدرو) أن تنطق (حمدة) أو ينبس عنها أي شيء إلا أنها تسمّرت في مكانها كتمثال من الشمع يحترق من الداخل فتذوب الروح ويرتعد الجسد:
ماذا.. تريد.. ؟
لم تتحمل نظراته الثاقبة في عينيها كمسمارين يخترقان مقلتيها إلى قاع روحها فتجنبتها. ابتسم ابتسامة هادئة ثم تحسس شعرها نزولًا حتى عنقها:
أريدك!
كلمة واحدة قالها (بيدرو) كفيلة بحمل كل أعباء العالم على كاهلها، فلم تجد له ردًّا وهي مقيدة الروح والجسد محاطة بقطيع من الذئاب الدنسة وهي من هي (حمدة) المكسورة الضعيفة المسكينة منذ وعت على هذه الدنيا لا حول لها ولا قوة إلا من حبيبها (الغريب). أين هو (الغريب)؟
أراك تصمتين؟ تعرفين أنني أستطيع أن أنالك وقتما أشاء ولن يحول بيني وبينك حائل. ولكني أريدك خليلة تسرين علي فأعطيك وأجزل لك العطاء، ولا أريد أسيرة جسدًا بلا روح هل تفهمين؟
ظلت (حمدة) صامتة كالثليج تترقرق الدموع في عينيها وبعض الشهقات المبتورة تخرج مع ارتعاد أنفاسها. لكن (بيدرو) لم يكن ليتحمل منها كل هذا الصمت والجمود فانحنى على الأرض وأمسك بكلتا كتفيها وهزهما بعنف صائحًا بها:
هل خرست؟ تكلمي..
لكن الرهبة والرعب كانا كافيين لعقد لسانها وشل عقلها. جوابها بالرفض واضح جليٌّ من قسمات وجهها وارتعادة جفنيها. فاعتدل (بيدرو) في غضب وصاح آمرًا للحارس:
خذها بعيدًا عن هنا في الحال.. اذهب بها إلى القصر واحتجزها في غرفة منفصلة عن الموريسكيين الآخرين.. أما هذا الـ(أنخيليتو) التعس فسيكون له شأن آخر معي..
استسلمت (حمدة) مقهورة ليدَيْ الحارس وهو يصحبها خارج المبنى ويهيئ لها ركوبة للرحيل من المشغل ومبانيه وساكنيه. فظلت تبحث حولها عن (الغريب) لينجدها. أين أنت يا (الغريب)؟
في هذه الأثناء استطاع (الغريب) أن يتسلل عائدًا إلى مبيت العاملين دون أن يلحظه الحراس ثم اتجه برشاقة إلى مخدعه المحاط بالعديد من الأسرَّة للعاملين وقد نام الجميع وغطوا في ثبات عميق تخلله سلسلة متواصلة من الشخير على مختلف أشكاله. وضع رأسه على الوسادة وتوسد بالدثار وأغمض

عينيه حتى بدا كأنه نائم لم يغادر سريره قط بينما كان عقله يعمل كخلية من النحل لا تنام ولا تستريح. أخذ عقله يخطط ويبني ويرسم ويتخيل. الغد ليس ببعيد وعليه أن يجهز نفسه لرحلة الهروب. لابد أن تنجح خطته في الهروب بـ(حمدة) من ذلك السجن الكبير. لابد أن يسابق الزمن ويسبق (بيدرو) ابن الدون المشاغب الذي لن يتورع عن فعل أي شيء في سبيل الحصول على (حمدة). اصمدي يا حبيبتي.. لن يستسلم حبيبك رغم القيود ورغم الجدران. سيأتي إلى نجدتك كعادته دائمًا. أنت إكسير الحياة وهو الإناء الذي يحتويه ويحميه وسأحميك حتى آخر شظية في جسدي.

هل نجحت في رؤيتها يا ولدي؟

قالها العم (سعد) أكبر العاملين سنًا وأكثرهم طيبة ومساعدة للجميع. كان على علم بالعاطفة المتقدة بين (الغريب) و(حمدة) وكان يُسدي النصح لـ(الغريب) بين الحين والآخر، ولأنه لا ولد له فقد اعتبر (الغريب) ولده فلم يتورع عن مساعدته للقائها وتحمل عنه الصعاب والمشاق من أجل أن يهيئ له ميعادًا أو ما سوى ذلك. وخلال الوقت الطويل الذي قضاه (الغريب) في عنابر مبيت العاملين من بين عشرات العاملين كان العم (سعد) الداعم الرئيس والأب الروحي لـ(الغريب) يحمل همه ويتقاسم معه نصيبه فقد كان العم (سعد) زاهدًا في الحياة ويبدو أنه يحمل في ذاكرته أسرارًا وحكايات لا يشاركها مع أحد أيًّا كان.

رأيتها وياليتني لم أرها اليوم يا عم (سعد)؟

لماذا يا ولدي ماذا حدث؟

قالها العم (سعد) متعجبًا، فـ(الغريب) كان على غير عادته حين يعود من لقاء (حمدة) مشحونًا بالسعادة والأمل، لكنه الآن محملًا بالهموم أكثر مما يتحمله.

الذئاب تتربص بـ(حمدة).. ابن الدون (دييجو) يترصدها ويرغب فيها خليلة لياليه وأنت تعرف أنها لا حول لها ولا قوة وأنا مقيد مشلول الحركة، ولا سبيل للنجاة هنا في (أوليبا).

تراجع العم (سعد) منزعجًا:

وماذا ستفعل يا ولدي؟ هذا أمر جِدُّ خطير.

سنهرب غدًا.

ابتلع العم (سعد) لعابه ثم ربَّت على كتف (الغريب) الذي اعتدل جالسًا:

وأين ستذهب يا ولدي.. ابن الدون ليس من السهل الاختباء أو الهروب منه فلديه من العيون الكثير داخل (أوليبا) وخارجها من الشرطة والكنيسة وبين العاملين أيضًا.

ازدادت حيرة (الغريب) بعد أن أشعل العم (سعد) النيران في كل مخططاته وأفشل كل حساباته.

لا أدري يا عمي.. ليس لنا في هذه الأرض إلا الله.. ربما إلى بلنسية نتخفى بين زحامها وطرقاتها وأعمالها.

ثم دفن رأسه بين ركبتيه مستسلمًا بائسًا تائهًا فرقّ العم (سعد) لأمره وهو يربت على كتفه مواسيًا إياه في أسى قبل أن تلمع عيناه فجأة فانتابه نشاط غريب وهو يرفع رأس (الغريب) لمواجهته قائلًا:

(الغريب).. أنت ولدي الذي لم أنجبه.. أستطيع أن أساعدك ولكن أستحلفك بالله ألا تكشف السر لأحد أيًّا كان.

عقد (الغريب) حاجبيه مستفسرًا فاسترسل العم (سعد):

لنا في هذه الأرض من يساعدنا يا ولدي.. قراصنة الترك.

تعجب (الغريب) فتساءل:

أسمع عنهم كالأساطير وحكايات المردة والعماليق ليس إلا.. لكن ماذا يدور بذهنك يا عمي؟
أسند العم (سعد) ظهره للحائط ثم أكمل هامسًا وكأنه يهم بتلاوة حكاية طويلة:
قراصنة آل عثمان يغيرون على السواحل من كل صوب دون سابق إنذار فيعيثون في سواحل وحصون الإسبان فسادًا وتخريبًا ويقتلون ويأسرون منهم الكثير ويجيرون من يلتجئ إليهم من الموريسكيين ويحملونهم معهم في قوادسهم العظيمة إلى شواطئ الجزائر وطرابلس الغرب ويوفرون لهم حياة كريمة. لقد جُنَّ جنون الإسبان من هجماتهم العديدة التي لم تتوقف على مر السنين.
هل تقصد أن ألجأ إلى القراصنة الترك؟
وضع العم (سعد) يده على شفتي (الغريب) هامسًا:
اصمت يا ولدي؟ لو علم أحد بنيتك هذه لتكون في أقبية ديوان التفتيش قبل الصباح. الإسبان على استعداد لدفع الثمين والغالي في سبيل معلومات عن ميعاد وأماكن هجمات القراصنة التي تكبدهم الكثير من الخسائر الفادحة. إنهم على استعداد لحرق ألف موريسكي كل يوم من أجل خبر واحد كهذا. وجندوا عشرات الجنود والعساكر والجواسيس من أجل ذلك فلا أستبعد أن يكون بيننا هنا من يتجسس علينا.
ولكن هل تعرف أنت يا عمي؟
صمت العم (سعد) قليلًا ورفع رأسه إلى سقيفة العنبر قائلًا:
لي أخ من المجاهدين المارقين وهو على اتصال بالقراصنة. منذ وفاة زوجتي وهو ينصحني بالهروب إليهم ويخبرني بميعاد ومواقع هجماتهم لكنني كبرت يا ولدي ولا مستقبل لي أنشده بل أريد أن أموت بسلام وأدفن بجوار زوجتي. أما أنت فلا أمان لك في هذه الأرض وحبك لن يعيش فيها وسيموت وحيدًا إلا إذا هربت من هنا وأنقذت حبيبتك لتبدأ حياة جديدة بعيدة عن كل هذا الظلم.
بارقة أمل ظهرت وسط الظلام لكن العم (سعد) لم يشأ لها أن تسطع كشمس باهرة في خيال (الغريب) فتعطيه أملًا زائفًا فقال:
الغارة القادمة بعد ثلاث ليال عند الحد الأقصى للشاطئ الشمالي لمرفأ بلنسية عند شاطئ (السبلايا). ولكن يا ولدي لتعلم أن هذه الرحلة أكثر خطورة مما تعتقد. بل ربما أكثر خطورة من بقائك هنا. هروبك من (أوليبا) إلى بلنسية ثم اختباؤك هناك لليلة أو أكثر بعيدًا عن أعين الشرطة المتربصين بالموريسكيين الهاربين، ثم تسللك في جنح الليل من بلنسية إلى (السبلايا) كلها محفوفة بالمخاطر ومليئة بعساكر الشرطة وقوارب البحرية المراقبة للسواحل. الأخطر من كل هذا أن تجد مكانًا لكما على أحد قوارب البحّارة المهرِّبين والإبحار مع موريسكيين آخرين إلى عرض البحر؛ حيث تنتظر قوادس القراصنة فتلتقط من تلتقط ويفقد من يفقد وسط أمواج من الهرج والمرج.
أخذ (الغريب) يسرح ببصره متخيلًا نفسه و(حمدة) في خضم هذه الرحلة الطويلة المحفوفة بالمخاطر:
هل هناك من نجح في الهروب عبر هذه الطريقة يا عم؟
لا أحد يدري يا ولدي.. هناك العديد من الموريسكيين ممن نجحوا في الهروب من قراهم وبلدانهم ولكن لا أحد يعرف مصيرهم بعد ذلك.. إما أنهم نجحوا في الوصول إلى قوادس القراصنة، وإما أنهم قُتلوا خلال رحلتهم الخطيرة، أو أنهم قد قُبض عليهم ولك أن تتخيل ما هو مصيرهم.
أيقظه العم (سعد) من شروده قائلًا:

فكر للغد يا ولدي ولكن لابد لك أن تتخذ قرارك قبل الصباح فليس لديك المزيد من الوقت. إما الاستسلام هنا في (أوليبا) وإما الهروب والمقاومة. لو ارتحلت في الغد لوصلت بلنسية وقضيت فيها ليلة واحدة ترتب أمورك وتتفق مع أحد البحّارة المهربين وفي الليلة التالية تتسللان إلى القراصنة عبر البحر. لكن بالله عليك لا تذكر هذا الكلام لأيٍّ مَن كان سلامة لك ولي.
نعم قرر (الغريب) أن يفكر حتى الصباح فليس لديه المزيد من الوقت. الاستسلام ليس أمرًا مقبولًا له قطعًا ولكن أكيد سيكون الهروب عبر القراصنة الترك أحد خياراته. ربما ليس الأفضل فتلك الرحلة المحفوفة بالمخاطر لمثله، قد تكون مهلكة لـ(حمدة) تلك النفس الرقيقة الهشة.
لم ينم دقيقة واحدة مفكرًا فيما قاله العم (سعد). أيًّا كانت الطريقة والوجهة فقراره للهروب من (أوليبا) لا رجعة فيه. في الصباح أعد عدته في سرية للهروب ليلًا كما اتفق مع (حمدة)، ثم ذهب إلى المشغل لبدء مناوبته في العمل. أخذ يبحث بعينيه عن (حمدة) في مكانها المعتاد فلم يجدها. أخذ يبحث في كل أرجاء المشغل فلم يجدها، وقبل أن يقوم من مكانه ليبحث عنها اقتربت منه إحدى زميلاتها وتصنَّعت عملها بجواره ثم هامسته في أذنه بخفوت أن الحارس قد أخذها بالأمس إلى قصر الدون (دييجو). لقد سبقهم (بيدرو) بخطوة قبل أن يعاجلوه بخطتهم للهروب. اندفع الدم الحار إلى رأسه وشعر باحترار وجهه غضبًا. سبقه (بيدرو) بخطوته. يبدو أنه لا مناص من المواجهة فخرج مسرعًا من المشغل يعلم جيدًا وجهته.
وجدت (حمدة) نفسها محبوسة في غرفة منعزلة عن غرف العاملين بمزارع القصر الفسيحة. غرفة صغيرة ذات نافذة صغيرة عالية تكاد تُدخل بعضًا من هواء المزرعة البارد في الليل. انكمشت على نفسها في ركن من أركان الغرفة دون أن تجف دموعها. لقد شلّت عن التفكير لقد اعتادت أن يفكر (الغريب) لكليهما. أين هو (الغريب)؟ هل علم بما أصابها؟ هل يبحث عنها؟ ظلت طوال الليل منكمشة في ركن الغرفة مستسلمة لقدرها دون أن يغمض لها جفنٌ أو يرتاح لها بال. أتى الصباح وتسلل شعاع الشمس الدافئ من النافذة الصغيرة ولا شيء تغير. انفتح الباب وأطلت منه إحدى الفلاحات الإسبانيات بفضول قبل أن تضع طبقًا من الطعام ثم أغلقت الباب مرة أخرى ليعود كل شيء إلى سابق عهده. مر الوقت بطيئًا وهي على هذا الحال حتى سمعت صوت مفاتيح تنقر الباب فاعتدلت في جلستها تتمنى لو كان (الغريب) أو أحد ما يخلصها من أسرها ويعيدها إلى المبيت مع العاملات، لكن الباب فتح ودخل أحد الحراس الإسبان تبعه (بيدرو) بعين شامتة منتصرة:
هل رأيتِ أنني أستطيع أن أنالك وقتما أريد وأينما أريد؟ أنت هنا الآن ملك يدي ولن يستطيع أحد أيًّا كان أن يخلصك من يدي هاتين فاخضعي لي.
كان هذا أكثر مما يتحمله قلبها الرقيق فانفجرت في البكاء لا تدري ما تفعل أو تقول. هي وحيدة في قفص ضيق ومعها ذلك الذئب الشره فماذا تفعل؟ ماذا تفعل لو تعدَّى عليها هنا الآن؟ ما يمنعه عن ذلك؟ لم تعتد أن تفعل بل كان دائمًا (الغريب) هو الذي يفكر ويقرر ويقود وينفذ فتتبعه واثقة دون سؤال أو تردد. أما الآن هي بدونه كسمكة أخرجت من مائها تنتفض اختناقًا وصائدها يخيرها في طريقة طهوها وأكلها. يا رب النجدة من عندك يا رب. وقبل أن تتلاشى مناجاتها من مخيلتها وإذا بصوت رقيق تألفه يصيح من خلف (بيدرو):
هل بلغت بك الوقاحة أن تأسر صاحبتي وتنوي بها شرًّا؟
التفتت الأعين كلها إلى مصدر الصوت وإذا بـ(ماديلينا) المريضة المجهدة تستند على خادمتها بضعف وهي بملابس النوم ووجهها الشاحب وشعرها يفصحان عما بها من مرض وألم. شعرت

(حمدة) بالدماء تعود إلى وجهها والحياة تعود إليها من جديد حين رأت (ماديلينا) صاحبتها ورفيقتها اللطيفة القديمة. لقد نسيتها في خضم الأحداث، حتى (ماديلينا) نفسها كانت قد انشغلت بـ(عُمَير) عنها لبعض الوقت أما الآن فقد جاءت في وقتها:
ما الذي أتى بك الآن يا (ماديلينا)؟.. اذهبي إلى مضجعك واتركيني أدير شؤوننا بعيدًا عنك وعن عواطفك السمجة.
تجاهلته (ماديلينا) فصاحت بأقصى ما يتحمله جسدها المنهك:
أقسم بالرب إن لم تتركها الآن ليكون لك مع والدي شأن آخر.
استعد (بيدرو) للاعتراض والصياح على أخته بل وسبها ولعنها ولا يزال موقف (عُمَير) حديث العهد لكن جاءه صوت أبيه العالي من خلف (ماديلينا):
ما الذي يحدث هنا؟ لماذا أنت هنا يا حبيبتي؟
جاء الدون (دييجو) ودخل الغرفة مسرعًا يبحث عن ابنته فأمسك بذراعها بلهفة أب مكلوم ويحتضن وجهها الشاحب بين كفيه محاولًا أن يفهم الأمر فعاجلته (ماديلينا) قائلة:
إن (بيدرو) يأسر صاحبتي (حمدة) إحدى بنات صاحبك الراحل (بينيديكتو) وينوي بها شرًّا يا أبي.. إنها (إيلينا) صاحبتي ورفيقتي التي كنت أتسامر وألعب معها منذ الصغر..
ثم أتبعت ذلك ببكاء شبه مصطنع أجادته (ماديلينا) فوقع في قلب أبيها الذي احتضنها مسرعًا قبل أن يصيح في (بيدرو):
ألا يكفيك مشاغباتك ومغامراتك هنا وفي حانات بلنسية لتتعدى على البنات البريئات أيها الوغد؟ ليسوا بريئات يا أبي.. إنهن موريسكيات مِلكٌ لنا ولن يمنعني أحدٌ منها.. وهن يعربدن مع بني ملتهن على أي حال.. لا تتركها إلى مُحِبَّة الموريسكيين هذه فتهرِّبها كما فعلت سابقًا..
قالها وهو يشير إلى (ماديلينا) في حنق فصاح فيه أبوه:
صه أيها الوغد.. من اليوم تلك الفتاة ستكون رفيقة أختك في القصر محرَّم عليك أن تتتبعها أو تتعرض لها بالقول أو الفعل.
حاول (بيدرو) أن يعترض لكن الدون صاح بصوته للحارس:
سأعدم أي أحد يساعده في ذلك.. هيا يا (إيلينا) من الآن سترافقين (ماديلينا) في غرفتها تحت حمايتي الشخصية.
لم تصدق (حمدة) ما تسمع لقد أُنقذت من ضيقها ولبَّى الله نداءها. فانطلقت على الفور وأمسكت الذراع الآخر لـ(ماديلينا) تسندها وتساعدها في نشاط وحيوية ليتحركا سويًّا عائدتين إلى القصر تاركتين (بيدرو) ودخان الغضب ينطلق من منخاره كالثور الغاضب ثم لم يلبث أن رحل في خطوات حانقة.
عندما تأكدت (ماديلينا) أنها بعدت بالقدر الكافي عن (بيدرو) وعن أبيها قالت هامسة:
أشكر الرب أنني جئت في الوقت المناسب قبل أن يتعرض لك أخي بسوء إنه أحمق مما تخيلين.
تنفست (حمدة) الصُّعَداء مع تدفق هواء المزرعة المنعش إلى صدرها وشعورها بالحرية مرة أخرى. أرادت أن تسأل (ماديلينا) كيف علمت بأمرها لكن (ماديلينا) طلبت منها الصمت حتى يصلن إلى غرفتها وهناك ستفهم كل شيء. وبالفعل وصلتا إلى الغرفة فارتمت (ماديلينا) منهكة على المخدع وقد نالها التعب وقبل أن تفعل (حمدة) أي شيء انفتح باب الغرفة الجانبي المفضي إلى غرفة الخادمة ودخل (الغريب) منه مسرعًا فانطلقت (حمدة) إلى صدره على الفور واحتضنها بشدة.

لم يكن (الغريب) ليقف مكتوف الأيدي وهو يعلم أن (بيدرو) قد نال (حمدة) الآن بين أصابعه وما هي إلا سويعات ويمزقها بين أنيابه، فانطلق من المشغل لا يدرك شيئًا من حوله ولا يدري كيف خرج منه دون أن ينتبه إليه أحد لكنه بدأ في إخفاء خطواته حتى لا يتبعه أحد ويعلم وجهته. فتخطى السور الحجري وأخذ يعدو بعيدًا عن العيون. لم يدرِ كم من الوقت أو الجهد الذي استنفذه حتى وصل إلى قصر الدون. أخذ يدور حول أسواره في حذَر يبحث عن نقطة يعبر من خلالها فاهتدى إلى تلك الشجرة العالية المطلة على السور الحجري فتسلقها وعبر من خلالها. كان حبه ولهفته على (حمدة) تنسيه الأخطار التي تحدق به فهو الآن يتسلق سور قصر الدون في وضح النهار ويستطيع أن يلاحظه المارة أو الحراس، لكن الحظ كان إلى جانبه حين عبر السور من خلال أفرع الشجرة في خفة ورشاقة فوجد نفسه في الحديقة الواسعة للقصر. ماذا يفعل؟ أين يذهب؟ القصر وملحقاته ربما أكبر من الحي الموريسكي نفسه فلو تاهت خطواته سيقبض عليه ولن يفيد (حمدة) بعدها. نظر إلى الأفق البعيد؛ حيث القصر العالي بنوافذه الكبيرة يفكر فقارعت الفكرة باله.

(ماديلينا) الصديقة اللطيفة الرفيقة الحانية لا يمكن أن تتخلى عن صاحبتها الصدوقة وتوأمها في الرقة والحنان والعطف. على الفور ودون أن يضيع أي وقت أخذ ينتقل بين الأشجار متخفيًا حتى وصل إلى مبنى القصر الرئيس واستطاع أن يميز نافذة غرفة (ماديلينا) فاتخذ موضعًا استطاع فيه أن يتسلق الجدران دون أن يلحظه أحد حتى دخل من نافذة الغرفة بصعوبة. كانت الغرفة مظلمة إلا من نور الصباح الآتي من النافذة فدخل على أطراف أصابعه واستطاع أن يجد طريقه إلى مخدع (ماديلينا)؛ حيث كانت راقدة وحيدة مريضة مرهقة مع أنفاس ضعيفة لا تكاد تلحظ. اقترب كثيرًا من وجهها حتى أحست (ماديلينا) بوجود أحد في الغرفة ففتحت عينيها بصعوبة ثم لمحت ذلك الشبح الجاثم أمام وجهها فارتعدت للحظة وكادت تصرخ من الرعب لولا ضعفها حتى أظهر (الغريب) وجهه فتعرفت عليه على الفور. حكى لها ملهوفًا وبكى لها عاجزًا وطلب مساعدتها. على الفور نهضت (ماديلينا) بكل عزم وهمَّة بالرغم من ضعفها وطلبت منه أن يظل مختبئًا في غرفتها وهي ستقوم باللازم. وها هي فعلت ما وعدت.

وما الحل يا حبيبي؟ أرانا قد وقعنا في الفخ وما من نجاة.

نظر إليها (الغريب) نظرة مشتاق لم يرَ معشوقه منذ سنوات قائلًا:

لا تخافي يا حبيبتي لقد عرفت سبيل النجاة..

الآن لا مفر من الهروب ولا من سبيل إلا القراصنة الترك، لكنه لن يخيف (حمدة) بذكر خطته والأهوال التي تنتظرهما حتى لا تجزع أو تتراجع. هو يعرفها كما تعرف الأم أبناءها ويعرف قلبها الهش وروحها الرقيقة.

أولًا لابد أن نخرج من (أوليبا) اليوم على الفور..

ثم نظر ناحية (ماديلينا) وقد أيقن أنهما قد نسياها فيما يتحاوران، فإذا بـ(ماديلينا) مستلقية على مخدعها مغشيًّا عليها بعدما أرهقتها الأحداث السالفة. دَنَيا منها مسرعين متسائلين ماذا حل بالفراشة الرقيقة (ماديلينا) لتصير هكذا شبحًا شاحبًا هزيلًا. لم يعرفا أنها صارت تعيش بين عالمين. حين تستيقظ تعيش بين تفاصيل الحقيقة والواقع بين خوف أبيها ورعاية الخدم والأطباء والألم وقطرات الدواء برائحته النفاذة وقلبها الموجوع. وعالم الخيال حين يُغشى عليها فتجد نفسها بين أحضان حبيبها (أوريليانو) يلهوان ويهيمان في حبهما بعيدًا عن الألم والمرض والأحقاد. فكانت تسعى دائمًا للهروب

من الواقع المؤلم لتعيش مع حبيبها ولو في الخيال. لكنها استيقظت الآن على يدَيْ (حمدة) الحانية فقالت بضعف:
ماذا تنويان أن تفعلاه الآن يا (إيلينا)؟ لَكَمْ أتمنى أن تظلي هنا تحت حمايتي لكن (بيدرو) لن يقف مكتوف الأيدي وأنت هنا في القصر.. وأنا كما ترين..
لابد أن نهرب من هنا الآن..
قالها (الغريب) بحزم:
إلى أين يا (أنخيليتو)؟
إلى بلنسية.. لن نغامر بالمكوث هنا دقيقة واحدة حتى يحكم (بيدرو) قبضته عليها مرة أخرى. ساعدينا (ماديلينا)!
فكرت (ماديلينا) قليلًا ثم قالت:
يعز عليَّ فراقكما لكن لو كان هذا قراركما فعندي الطريقة.
نجحت (ماديلينا) في تهريبهما من القصر عن طريق (سعيد)- صديق (عُمَير)- وبغلته تجر عربة خشبية يستخدمونها في نقل المخلفات الزراعية والأسمدة. بالرغم من تدقيق الحراس لكن (سعيد) كان جاهزًا بطبقة من مخلفات الحيوانات التي تستخدم كسماد زراعي ووضعها أعلى العربة الخشبية جعلت الحراس ينفرون منها ويبتعدون عنها، بينما يكاد (الغريب) و(حمدة) يختنقان من هول الرائحة وهما مختبئان في قاع العربة وعليهما طبقات من التبن والأغصان الجافة والسماد. ودعتهما (ماديلينا) وأمدتهما ببعض المال والطعام وطلبت منهما إن يومًا رأيا (أوريليانو) أن يخبراه أنها في انتظاره أن ينفذ وعده. لم يفهما معنى كلامها ولم يُتِح لهما الوقت أن يستفسرا ورحلا مع (سعيد). عبر بهما (سعيد) بوابة القصر بنجاح ثم اتخذ طريقًا فرعيًّا وعرًا بعيدًا عن العيون والشرطة. طوال الطريق كان (سعيد) يحدثهما كما لو كان يحدث نفسه ليسليهما خلال الطريق ويقلل من خوفهما.
فحدثهما عن (عُمَير) وأنه كان يختبئ طوال هذا الوقت في القصر تحت رعاية (ماديلينا)، وأنهما تحابًّا طوال هذه الفترة حتى اكتشف أمره فهرَّبته (ماديلينا) بعيدًا عن بطش أخيها وأبيها لكنها انتكست صحيًّا حزنًا على فراقه حتى الآن. تعجب (الغريب) و(حمدة) مما سمعا وكأن (سعيد) يحدثهما عن شخص آخر غير (عُمَير) الغاضب الحانق المندفع الذي يعرفانه. ثم أكمل (سعيد) حديثه عن أخبار الهاربين الموريسكيين الذين يعرفهم لعلهما يقابلانهم فيساعدونهما ومن هؤلاء ذكر (صبح). نظر كل منهما إلى الآخر حين نطق اسم (صبح) رفيقتهم وصاحبة طفولتهم. أخبرهم (سعيد) أنها اختفت فترة طويلة بعد أن هربت من (أوليبا) إلا أن بعض الناس والحراس صادفوها مؤخرًا في إحدى حانات وسط بلنسية تعمل نادلة هناك لكن لا أحد يعبأ بها أو بإرجاعها إلى (أوليبا) ولم يبق لها فيها أحد.
شعر (الغريب) و(حمدة) أن (صبح) هي طوق النجاة الذي رمته الظروف إليهما في وقته. لقد كان (الغريب) مشغولًا بالبحث عن وسيلة أو مكان آمن يقضون به ليلتهم الأخيرة في بلنسية وهي المرحلة الأخطر على الإطلاق والحلقة المفقودة في خطة (الغريب) خاصة وأن بلنسية تعج بعيون الشرطة وجواسيسهم. أما (حمدة) فظنت من قرارة نفسها أن (صبح) ربما تكون هي المقر الأخير والاستقرار الدائم في خطة (الغريب) فهو لم يخبرها بخطته كاملة بعد. أيًّا كان الأمر فقد كان خبر (صبح) مفتاحًا مهمًّا لخطة هروب الحبيبين.
مضى (سعيد) بهما مسافة كافية خارج (أوليبا) حتى اطمأن أنهما بعدا عن الخطر فتوقف ثم أخرجهما من تحت المخلفات. أخبرهما أنه لا يستطيع أن يكمل معهما الطريق لكنه سيترك البغلة والعربة

الخشبية لهما لرحلتهما الطويلة إلى بلنسية ونصحهما أن يتوخيا الحذر في الطريق. شكره (الغريب) وودَّعهما (سعيد) وودَّع بغلته الأثيرة ثم اتخذ سبيل عودته إلى القصر. أما هما فقد أعدَّ (الغريب) لـ(حمدة) في العربة الخشبية مجلسًا أكثر راحة مما كان ثم اتخذ مقعد قائد العربة وأمسك بلجام البغلة فحركها إلى الأمام بكل نشاط وهو يفكر في كل تفصيل قد يقابله في رحلته وإن كان قد أعد له الأمور أم لا. أما (حمدة) فرغم الخطر الذي يحدق بها من كل صوب وبعد تلك الأحداث الأخيرة الصعبة، نامت في مكانها آمنة مطمئنة ولم لا؟ وهي تعلم أنها بين يدي حبيبها وراعيها وحاميها.
لم يكن من الممكن أن يستكملا الرحلة بالعربة الخشبية بعد أن صار الطريق أكثر وعورة. فتخلص (الغريب) من العربة الخشبية واستراحا قليلًا قبل أن يكملا رحلتهما على ظهر البغلة. لقد قضيا جلّ النهار يسيرون بالعربة الخشبية والآن عليهما أن يسيرا قطعًا من الليل على ظهر البغلة حتى وصلا إلى مشارف بلنسية وكان الليل قد انتصف. اضطر (الغريب) أن يتخلص من البغلة أيضًا فمَنْ يدخل إلى قلب مدينة بلنسية ويمشي بين أبنيتها وكنائسها العملاقة على ظهرِ بغلةِ حَقْلٍ؟!
استطاعا أن ينتقلا بين الأبنية ومن طريق إلى آخر دون أن يلاحظهما أفراد الشرطة حتى وصلا إلى ذلك الطريق الكبير الذي تتوزع فيه الحانات الكبيرة على ضفتيه. كانت أول مرة يزوران فيها بلنسية بل أول مرة يخرجان من (أوليبا) وكانت عالمهما وكونهما الوحيد. فشعرا بمدى ضآلتهما في عالم بلنسية. أبنية عظيمة وكنائس مهولة كالصروح وميادين واسعة وطرق مزدحمة بعربات النبلاء وجياد الفرسان والجنود مع طريق آخر ضيق مزدحم من الراجلين في أقصى الأطراف على الجانبين.
ترك (الغريب) (حمدة) في مكان آمن بعيدًا عن نهر الطريق وبدأ في رحلة البحث عن (صبح) كما وصف (سعيد) في إحدى الحانات الكبرى في الطريقين الكبيرين المتقاطعين عند الكنيسة الكبرى لبلنسية. لم يكن البحث عن الكنيسة الكبرى في بلنسية صعبًا على الإطلاق بمبانيها الشاهقة وصليبها الذهبي العالي الكبير. وصل إلى مفترق الطريقين الكبيرين وأخذ ينتقل خفيفًا بين حانة وأخرى فينجح في دخول إحداها ويفشل في أخرى فيسأل من يطمئن له عن فتاة شابة ذات جسد متوسط تعمل كنادلة في إحدى الحانات واسمها (بيليتا). لم تكن (صبح) ذائعة الصيت كفتيات الليل أو نجمة كالراقصات فكان من الصعب التعرف عليها أو الإرشاد عنها حتى كاد (الغريب) أن يفقد الأمل في إيجادها وبدأ يشعر بالقلق والخوف على (حمدة) التي تركها منذ وقت ليس بالقليل في هذا الوقت المتأخر من الليل حتى دلته على (صبح) إحدى النادلات كانت تعبر الطريق سألها فعرفتها وهي تعمل معها في نفس الحانة. قادته للحانة ثم أمرته بالبقاء خارجها حتى تناديها من الداخل ولا يقلق إن تأخرت عليه فربما تكون نوبة عملها الآن.
شعر (الغريب) بارتياح كبير بعد أن وجد ضالته. (صبح) بالرغم من نفسها المتذبذبة وروحها غير المستقرة هي أخت لهما بالعشرة والمعيشة تحت سقف بيت الشيخ (عبد الصمد) منذ نعومة أظافرهم وحتى اختفت هربًا من (أوليبا) ولن تتورع عن مساعدتهما بل سترحب بذلك- أو هكذا كان يتمنى-. العمل نادلة في حانة يليق بـ(صبح) وشخصيتها المتمردة المتهورة في اتخاذ قراراتها. ظل (الغريب) واقفًا في جانب من مدخل الحانة بعيدًا عن المارين وزبائن الحانة في مكان يستطيع فيه أن يرى (صبح) حين تخرج من البوابة. ظل واقفًا لوقت طويل كمن يقف على جمر متَّقد ما بين خوفه على (حمدة) وأمله في (صبح) ورعبه من الشرطة. أخيرًا خرجت (صبح) بل أطلت من بوابة الحانة برأسها تتطلع إلى من يسأل عنها فاقترب (الغريب) منها بسرعة شاهرًا نفسه حتى رأته (صبح) فتسمرت في مكانها مبهوتة. أتاها مسرعًا وتوقف أمامها ثم مد يديه إليها يتلمس كتفيها:

كيف حالك يا أختاه؟
ظلت (صبح) متسمرة في مكانها تتطلع إلى وجه (الغريب) وكأنها تراه للمرة الأولى. مرت شهور طويلة لم تره فيها منذ كانا في عزاء جدها في المنزل الذي تربيا فيه. رباه.. لقد نسيت كم كانت تهيم به في الماضي والآن عادت الرعدة داخلها حين وجدته أمامها أكثر جمالًا ورجولة مما كان. سنة وبضعة أشهر ليست بالفترة الكبيرة التي تتغير فيها الوجوه لكنها أحسته أجمل مما تركته وقد نضجت في قسماته ملامح الرجولة مع مسحة من الهم والحزن. هل جاء بحثًا عنها؟ تراه كان يبحث عنها كل هذا الوقت؟ أم قادته الخطوب والظروف ليأتي إليها بقدمه ويصبح لها وحدها بعد أن فقدت الأمل في حبه لها فأخلصت في حب نفسها عوضًا عن ذلك؟ كل ذلك كان يدور في مخيلتها للحظات وهي تتأمل في وجهه بدون أن تبدي أي ردة فعل. أما (الغريب) فقد وجد أمامه (صبح) متجمدة الملامح ولكن على هيئة مختلفة تمامًا عما كانت عليه في السابق. كانت أكثر أنوثة وأبهج ألوانًا في وجهها وشعرها وملبسها، فكانت تلبس كالراقصات فستانًا أحمر فاضحًا فلا عجب أنها لم تخرج بكل جسدها إلى عرض الطريق بل أبقت بمعظمه مستورًا بباب الحانة الخشبي الكبير لكنها لم تستطع أن تخبئ نفسها منه وهو واقف أمامها مباشرة يتلمس كتفيها ويتفرس فيها بعينيه.
كيف حالك يا (الغريب)؟
أخيرًا نطقت (صبح) بصوت جامد.
ما الذي أتى بك إلى هنا؟ وكيف عرفت طريقي؟
لا يهم يا أختاه. المهم أنني هنا الآن وأحتاج إلى مساعدتك يا (صبح).
هو حقًا لم يكن يبحث عنها من أجلها بل من أجل أن تساعده. لا يهم طالما أنه هنا وحده الآن بعيدًا عن (حمدة).. اللعنة سيرة (حمدة) دائمًا تعكر صفوها وصفاء ذهنها. هل تركها (الغريب) أخيرًا وصار بين يديها وحدها الآن؟ اللعنة لقد عادت ذكرياتها ومشاعرها وغيرتها القديمة كلها الآن كما لو أنها لا تزال في (أوليبا) فتاة غرَّة ساذجة:
أنا و(حمدة) نحتاج مكانًا آمنًا نبيت فيه هذه الليلة فقط فهل تساعدينا في هذا الأمر؟
خان؟!! أتيت تقصدني كخان تبيت فيه ليلتك أنت و(حمدة) يا (الغريب)؟ هل هذا ما جاء بك من (أوليبا) إلى هنا؟ لم تأتِ إلى عتبتي من أجلي أو سعيًا لوصالي أو حتى طمأنةً عليَّ وعلى أخباري؟ هل أنا حقيرة إلى هذه الدرجة:
لماذا أنتما هنا يا (الغريب)؟
كما فعلتِ نفعل الآن يا (صبح). عندما صار الهروب هو سبيلنا الوحيد.. الموضوع شرحه يطول فهلَّا تساعدينا وأنا أشرح لك في الطريق؟.
كم تتمنى أن ترفض أو تتخلى عنهما. لكن شيئًا ما بداخلها دفعها للموافقة على الأقل حتى تفهم الأمر. طلبت منه أن ينتظرها في مكانه حتى تبدل ملابسها ثم دخلت في خطوات ثابتة وآلاف الأسئلة تدور في رأسها، ثم طلبت من راقصة زميلة لها أن تستبدلها في مكان عملها ثم استبدلت ملابسها وخرجت إلى (الغريب) ومشيا جنبًا إلى جنب. كان (الغريب) يسرع الخطى خوفًا على (حمدة) التي تركها وحيدة منذ وقت طويل فكانت (صبح) تجدُّ في اللحاق به:
ما الذي جاء بك إلى بلنسية يا (الغريب)؟ هذا ليس طبعك. لقد عهدتك راضخًا راضيًا رافضًا للهروب قانعًا بالتدجين بالرغم من صحبتك مع (عُمَير).
سكت قليلًا ثم قال:

الخطر في (أوليبا) صار يحدق بنا أنا و(حمدة) وصار المكوث في (أوليبا) هو الموت لنا وقد حدث صدام بيننا وبين ابن الدون (دييجو) وهو الآن يبحث عنا في كل مكان.
وهل تعتقد أن بلنسية أكثر أمنًا لكما عن (أوليبا)؟
سأخبرك بكل شيء يا (صبح) في حينها.
كان يعلم أن الحديث عن خطته وما يحتويها من الخطورة إذا تحدثا في عرض الطريق.
لكن.. ما الذي جاء بكِ إلى العمل في الحانات يا (صبح)؟
أخيرًا يسأل عنها وعن أخبارها! ظنت أنه لا يهمه أمرها بالمرة:
وماذا كنت تظنني أعمل يا (الغريب)؟ أميرة أم سيدة قصر؟ لقد سئمت (أوليبا) ولم يعد لي فيها أحد فصارت كسجن كبير لي، وعندما أتيتُ هنا لم آلف الخدمة في منازل الإسبان وهم يعاملوننا كالدواب بل أدنى من ذلك. هنا في الحانة أنا أفعل الشيء الوحيد الذي أجيده وأحبه منذ الصغر.. أنا أرقص وأرقص حتى أسقط من التعب.
ترقصين فقط؟
كان سؤالًا يحمل العديد من الاتهامات بعضها صحيح بالتأكيد فتنحنحت قبل أن تقول:
أي شيء آخر لا أشارك فيه ولا يهمني أمره..
تعلم أنها تكذب. قاطعها (الغريب) كما لو لم تكن تتحدث حين وجد (حمدة) تجلس متململة في نفس المكان الذي تركها فيه فانطلق إليها واعتدلت تستقبله بأذرع مفتوحة قبل أن تنتبه إلى (صبح) فأخذتها بين ذراعيها تحتضنها وتقبلها و(صبح) تصطنع الفرحة بمقابلتها وتجمُّع شملهم، ثم قادت (صبح) الجمع عبر شوارع وأزقة بلنسية حتى وصلوا إلى زقاق ضيق ففتحت بابًا ضيقًا أدخلها إلى منزل صغير متواضع أغلبه غارق تحت مستوى الأرض إلا من نافذة صغيرة في مستوى آجُر الطريق فأدخلتهما غرفة ضيقة بها مخدع واحد وطاولة واحدة. أشعلت قنديلًا يتدلى من سقف الغرفة فظهر مدى تواضعها وصغر حجمها ونافذتها العلوية الصغيرة. لم تتحمل (صبح) المبيت بين النادلات في الحانة طويلًا واستأجرت هذا المنزل الصغير مع زميلة لها يأتون إليه مع خيوط الفجر ويبيتون فيه حتى الظهيرة حين يستعدون للذهاب إلى الحانة.
قامت (صبح) وأحضرت بعض الطعام فجلسا على الطاولة الوحيدة يتناولان الطعام فقد كانا جائعين مرهقين من الرحلة الطويلة من (أوليبا) إلى بلنسية وجلست (صبح) تتأملهما:
إذن هل تبقيان في بلنسية بعيدًا عن الخطر؟
توقف (الغريب) عن مضغ بعض لقيمات كانت في فمه ثم نظر إلى (صبح) و(حمدة) وقال بصوت أراد له أن يكون حازمًا لكن غلب عليه القلق:
سنهرب بحرًا عبر القراصنة الترك.
ساد صمت مفاجئ وتوقفت (حمدة) عن الأكل واتسعت حدقتاها من الصدمة والرعب بينما صمتت (صبح) من هول المفاجأة ثم قالت:
القراصنة! هل تعتقد أن هذا الأمر هيِّن كقوله يا (الغريب)؟!.. نرى العديد من الموريسكيين الهاربين يقبض عليهم على أطراف السواحل وهم ينتظرون القراصنة أو المهربين. المهربون يستغلونهم بقواربهم على السواحل ويأخذون أموالهم وقد لا يأتون أو لا يأتي القراصنة فلا ميعاد ثابتًا لهم. حتى وإن وصل القراصنة فقوادس الإسبان تلاحقهم على الشواطئ وقد يتراشقون بالمدافع والضحايا من الهاربين كثر.. أنت لا تعلم شيئًا يا (الغريب)..

بل أعلم الزمان والمكان.. أعلم أن القراصنة سيهاجمون غدًا عند منتصف الليل شمال المرفأ عند ساحل (السبلايا).
سكتت (صبح) وهي تعلم أن معرفة تلك المعلومة لو كانت أكيدة لميعاد ومكان هجوم القراصنة هي نصف الطريق إلى النجاح في الهروب وستزيد من حظوظهم إلى درجة ما. أما (حمدة) فقد بهتت من هول ما تسمع:
نهرب عبر البحر والساحل؟ (الغريب) أنت تعلم أنني لا أستطيع..
قاطعها (الغريب) مطمئنًا:
سأكون معك يا حبيبتي فلن يمسك سوء أعدك بذلك. هذا هو طريق الخلاص الوحيد أمامنا.
أخذت ترتعد أطرافها وتشعر ببرد البحر يسري على جلدها من الآن والماء المالح يندفع إلى رئتيها فامتقع وجهها. أحس (الغريب) بخوفها فاقترب منها واحتضنها ليهبها الأمن والطمأنينة بينما أحست (صبح) بمزيد من النيران تشتعل بداخلها غيرة وحقدًا. اللعنة؛ لماذا عاد الماضي بمشاعره وأحاسيسه البغيضة. تصنعت أنها تلملم الأطباق لتخرج من الغرفة بعيدًا عن هذا المشهد الذي يجعلها تتآكل من داخلها كما لو أن غيرتها جحافل من النمل تأكلها من أحشائها.
تركتهما في الغرفة يحتضن كل منهما الآخر بدفء لا تعرفه وهوَى لم تنعم به يومًا من الأيام. دخلت غرفة أكثر صِغرًا من الأخرى وأغلقت عليها بابها ثم ذهبت إلى ركن قصي في الغرفة تكومت بين جداريه جالسة على الأرض وحيدة ترافقها برودة الجدران ومخدع وحيد. اللعنة لماذا أتيت يا (الغريب)؟ لماذا أشعلت نيرانًا ظننت أنها انطفأت منذ زمن؟ لماذا (حمدة) دائمًا؟ كل طريق أسلكه أجد (حمدة) عائقًا فيه؟ اللعنة على (حمدة). ماذا عساها تفعل؟ إنهما ينطلقان إلى حتفيهما لا محالة. لتتركهما لمصيريهما أيًّا كان. لكنهما إن نجحا سيعيشان سويًّا سعادة سرمدية أبدية. وإن فشلا يموتان سويًّا على حبهما وعهدهما. حتى في الموت تفوز(حمدة)! لم تستطع أن تمكث وحدها في الغرفة المظلمة يأكلها حقدها على الحبيبين بينما ينعمان بالأحضان الدافئة في الجوار. خرجت من الغرفة مسرعة لتدخل إلى الأولى فوجدت الحبيبين وقد ناما من فرط التعب والإرهاق. تكوّرت (حمدة) كالرضيع واحتضنها (الغريب) محيطًا إياها بذراعيه كالأم ملتصقًا بجسدها بدفء وبراءة دون إثارة أو غنج.
كان منظرهما كفيلًا أن تغرس (صبح) سكينًا في أحشائها حسدًا وغيرة. لقد اختارت أن تعيش وسط النجاسات وتخدم أسرَّة العاهرات وترقص للزناة وتمسح نجاساتهم وتتخلص من بولهم وبصاقهم. لقد قررت واختارت ذلك بل سعت إليه برغبتها دون إجبار أو اضطرار. في المقابل (الغريب) و(حمدة) لم يختارا في حياتيهما أي شيء وتقذفهما الدنيا من بؤس إلى بؤس ومع ذلك يلفهما الحب الطاهر وبراءة لا يشوبها دنس. ربما لو خلقها الله ضعيفة مكسورة مثل (حمدة) لاستجذب ذلك عطف وشفقة (الغريب) وربما حبه أيضًا. ربما لو كانت يتيمة تائهة وُجدت في شوارع (أوليبا) لصار لها راعيًا وحاميًا. اللعنة على هذه الحياة الظالمة. لكن (صبح) لم تكن لتقف ساكنة عاجزة. يريدان مساعدتها وسينالان ما يستحقان. قررت (صبح) ما ستفعل. رمت بنظرة جامدة أخيرة عليهما ثم غربت عنهما.
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(٣) رقصة القلوب الغارقة
(١)

غرناطة ١٥٦٧م

لم يكن (عُمَير) يتصور أن يتبدل الحال بأخواله في غرناطة بهذه السرعة. أو يبدو أن مكوثه في بيتهم وعمله في مشاغلهم وتدخُّله في أدق تفاصيل أعمالهم سمحت له أن يشاهد كيف يسيِّر أخواله (القزازين) أعمالهم في غرناطة. كانت غرناطة لا تزال تحمل آخر سمات الأندلسيين فيها شكلًا وموضوعًا على عكس مدن وممالك كثيرة فقدت هذه الميزة منذ عشرات السنين. ولهذا كان التجار الموريسكيون لا يزالون يحفظون أموالهم وتجاراتهم ومَحالَّهم وبعضًا من تقاليدهم وعاداتهم التي تخلت عنها المدن الأخرى. ظن الموريسكيون أن هذا الهدوء قد يستمر إلى الأبد منذ انطفاء ثورة البَيَّازين. لكن مؤخرًا بدأ التضييق الممنهج يتم بهدوء وبالتدريج للنيل من الموريسكيين مع امتصاص غضبهم. ازدادت الضرائب الباهظة على صناعة الحرير الغرناطي فازداد سعره وقل الطلب عليه مع توافر واردات من المصنوعات الحريرية من مدن وممالك أخرى فانهارت صناعة الحرير وانقلب الحال على كل من عمل فيه أو امتلك مشغلًا أو تجارة للحرير.

وبالطبع كان (القزازين) أكثر من تأثروا بهذا التغير فاضطروا أن يقللوا من حجم أعمالهم فباعوا أجزاء كثيرة منها إلى تجار إسبان ورغم هذا ظلوا يدفعون الأموال بأرقام مضاعفة للضرائب كما يدفعون معها رشاوَى كبيرة للقضاة والشرطة حتى يمدوا فترات سداد ديونهم التي تراكمت. سرَّح (القزازين) كل عمالهم وصاروا يديرون أعمالهم بأيديهم وأيدي أبنائهم. وباعوا دوابهم إلا قليلًا منها. لم يكن الأمر خاصًّا بصناعة الحرير فقط بل بكل الصناعات والمهن التي يحتكرها الموريسكيون ويتقنونها وكأن الهدف إنهاء تواجدهم في غرناطة عن طريق تجويعهم. ثم كانت الضربة القاصمة للغرناطيين عندما صدر مرسوم الملك (فيليب الثاني) بإمضاء الكاردينال (إسبينوزا) وبحثٍّ من رئيس الأساقفة (غيريرو) بحظر كل العادات الأندلسية والرقص والملابس والأغاني العربية وازداد التفتيش على الكتب والحمامات العربية ثم انطلقت حملات جديدة من أحكام جائرة لدواوين التفتيش وموجات اعتقالات ظالمة وأحكام بالحرق والموت خنقًا وغيرها، والأسوأ من ذلك بداية مجموعة من الاتهامات بالتعامل والتخابر مع الترك أو المغاربة أو الهوكونيين مع ازدياد أخطار القرصنة وأعمال العنف والعصابات المسلحة هنا أو هناك.

وزاد الطين بلة عندما قُبض على مجموعة من الموريسكيين يتنكرون في أشكال شحاذين أو تجار جائلين فيندمجون مع الموريسكيين في القرى والمدن يحثونهم على الثورة بل ويسجلون أسماء الراغبين منهم في الانضمام إلى الثوار. ثم سرت شائعات باقتراب الترك من هجوم بحري وبري شامل مع حث الموريسكيين على الاستعداد ليوم الخلاص. مع كل هذه الشائعات أصبح القتل على الظن سهلًا وأصبحت الاتهامات جاهزة والأحكام سريعة والظلم واقعًا. كان كل شيء يسير من سيِّئ لأسوأ والغرناطيون يستيقظون كل يوم على قوانين وأحكام جديدة. فصار الشارع الغرناطي يغلي في صمت ويبدو أن الانفجار سيكون قريبًا.

أحس (عُمَير) بمدى الوضع الصعب الذي يعيشه أخواله الآن وقد صارت بهم الضيقة إلى حد محزن فكان لزامًا عليه أن يفعل شيئًا ما. كان مواظبًا على الزيارات الأسبوعية لقرية (وادي لوكرين)

والتدريب مع الثوار بكل عزم ونشاط حتى صار له شأن كبير بين شباب الثوار وصار مقربًا من السيد (فرج بن فرج) كبير الثوار وأميرهم. كان (عُمَير) يعيش بين عالمين متضادين فأخواله يعيشون تحت وطأة الإسبان في غرناطة يتحملون ظلمهم ويتعايشون مع ذلهم لهم ويصير بهم الحال من سيِّئ إلى أسوأ بالرغم من أصلهم كتجار من المفترض أن يكونوا ميسوري الحال.
أما العالم الثاني فهو عالم الثوار في (وادي لوكرين) الخضراء حياة حرة لمجموعة من الرجال والعائلات الأحرار لا يرضون بضيم أو ذل ولا يتجرأ الإسبان على الاحتكاك بهم وحافظوا على عاداتهم وتقاليدهم ويعيشون مجتمعًا مصغرًا للأندلس الكبيرة كمسلمين يقيمون الشعائر والصلوات ويحتفلون بالأعياد، والشباب والرجال تزداد أعدادهم في معسكرات التدريب وهم يتدربون على أحدث البنادق والمدافع التي تُهرَّب إليهم من الترك والمغاربة. لم يكن هذا هو الوضع في وادي لوكرين الخضراء فقط بل في العديد من قري (البشرات) الجبلية. وجوده في هذين العالمين جعله يوقن أن الوضع في غرناطة لا أمل فيه وأن المستقبل هناك في قرى (البشرات) الجبلية. وتذكر دروس السيد (ناصر) في (أوليبا) أن الأمل الحقيقي للأندلسيين الآن هو الاستقلال ببعض المناطق النائية بعيدًا عن سيطرة الإسبان حتى ولو كانت مناطق نائية صغيرة قليلة الموارد ستكون هي النواة لمجتمع جديد يكبر وينمو ويقوى ويستعيد مجد الأجداد.
أدرك (عُمَير) أن خطوة (القزازين) المقبلة بعائلاتهم وما تبقى من أموالهم لابد أن تكون نحو (البشرات). مئات العائلات ترتحل نحو القرى الجبلية وتنشئ حياة جديدة تحت كنف الثوار. تردد (عُمَير) كثيرًا في الحديث مع أخواله في هذا الشأن. حتى كان هذا اليوم الذي علم فيه من أحد أصحابه في الحي أن هناك فارسًا إسبانيًّا من صائدي المكافئات على رؤوس الموريسكيين الهاربين قد أتى من نواحي بلنسية باحثًا عن موريسكيٍّ هرب حديثًا من قرى بلنسية ويقلِّب الأرض بحثًا عنه. شعر (عُمَير) بالخطر يحوم حوله. أيعقل أن يبعث (بيدرو) والدون (دييجو) وراءه من يقتله انتقامًا لشرفه الذي دنسه موريسكي هارب؟ أيعقل أن يكون من الأهمية للشرطة أن تبحث عنه عبر الممالك والمدن بعد اتهامه بحرق بيت موريسكيين وقتل من فيه؟ لم يكن (عُمَير) يتخيل أن يكون من الأهمية أن تخصص الدولة من يبحث عنه شرقًا وغربًا وهناك آلاف من الهاربين والآبقين والقتلة والعصابات المسلحة منتشرين في بقاعها شرقًا وغربًا.
ناهيك عن الحرب في الأرض الواطئة التي تستنزف كل موارد المملكة. لكن وجود هذا الفارس هنا في غرناطة شيء خطير يستوجب اتخاذ القرار. ذهب إلى أخواله في المساء وكانوا يجلسون يتناقشون باحثين في يأس عن مخرج للمشاكل التي تحيط بهم. تكلم معهم (عُمَير) وأخبرهم أن الخروج من غرناطة هو أفضل حل للتخلص من هذه المشاكل، ثم أخبرهم عن قرى (البشرات) والمجتمع الجديد الذي ينمو هناك تحت حماية قوة مسلمة. أخبرهم أنه على اتصال بهم وهم على أتم الاستعداد لمساعدتهم لبدء حياة جديدة وكذلك لاستعادة صناعتهم وتجارتهم أيضًا. كان الوقت لحسن الحظ مناسبًا جدًّا لهذا الطرح ففي نهاية ذلك الأسبوع كان من المفترض عليهم أن يدفعوا قسطًا كبيرًا من الديون لا يملكون ما يكفي لدفعها ولا لدفع الرشوة لتمديد فترة سدادها. كما أن (القزازين) أصبحوا لا يملكون شيئًا يُبكى عليه في غرناطة ولا يستطيعون حمله إلا ذكرياتهم.
اتخذوا القرار وبدؤوا في ترتيب حمولاتهم في المساء على البغال والعربات الخشبية مع نسائهم وأولادهم وبناتهم حتى كان الفجر فتحركوا في صمت وهمّة تجاه القرى الجبلية يقودهم (عُمَير) الذي أصبح على أتم المعرفة بممرات ودروب الجبال المؤديةٍ إلى (البشرات). لم يكن لدى(عُمَير) ما يبكيه

في غرناطة. هروب وراء هروب. لكن لا يزال قلبه معلقًا بـ(أوليبا) موجوعًا بفراق (ماديلينا) والتركة الثقيلة التي تركها من الأحزان والآلام أيضًا. لم يستطع أن ينساها بالرغم من محاولة بنات خاله التقرب منه مع ترحيب الآباء بنيَّة المصاهرة لكنه اعتذر بهدوء ورقة.
كان محقًا في خوفه على (ماديلينا) فقد انطفأ وجهها وبلغ المرض منها مبلغه. فعندما عرف (بيدرو) أنها هرَّبت (حمدة) و(الغريب) إلى خارج (أوليبا) هاج وماج وصاح فيها سبابًا ولعانًا وأخبرها أنه سيرسل في أثره من يقتله أيًّا كان حتى نهره أبوه وطرده من القصر إلى الأبد، لكن (ماديلينا) كان قلبها أضعف من أن يتحمل كل هذه الأحداث والصياح والجدال. وما كان يزيد عليها المرض خوفها على (عُمَير) وشوقها إليه وجهلها إن كانا سيلتقيان مجددًا في هذه الحياة فيجتمع قلباهما أم سينال المرض من قلبها أو تنال الأخطار من حبيبها. صارت (ماديلينا) غائبة عن الوعي طوال اليوم إلا من دقائق قليلة يطعمونها فيها ثم يغشى عليها مرة أخرى. صارت لا يخرج منها صوت ولا كلام إلا قليلًا في غشيتها ونومها حين تنادي على (عُمَير) أن يأتي وينقذها. ووقف الدون (دييجو) عاجزًا لا يكاد يبرح من غرفة ابنته وهو يراها تموت ببطء ولا يستطيع أن ينقذها. وأصبح يعد الأيام حتى يأتي الفارس (ماوريسيو) بـ(عُمَير) حيًّا فتستعيد ابنته ضحكتها وحياتها وقلبها الزجاجي قبل أن ينكسر.

(٢)

بلنسية صيف ١٥٦٧م
عندما استيقظ (الغريب) وجد أشعة شمس الظهيرة تتسلل عبر النافذة وتسقط بجواره؛ حيث (حمدة) لا تزال نائمة كما كانت متقوقعة على نفسها كالرضيع. يبدو أنهما ناما منذ الليلة السابقة حتى الظهيرة بعد تعبهما من السفر طوال يوم كامل بين (أوليبا) وبلنسية. أحست (حمدة) بحركة (الغريب) ففتحت عينيها لتجد نفسها نائمة ملتصقة بحبيبها فابتسمت وهي تمدد ذراعيها في أمان وغنج كما لو كانا عروسين بعد ليلة زفاف قبل أن يستعيد عقلها حوار (الغريب) بالأمس قبل أن يناما من فرط الإرهاق والتعب. فاعتدلت بحركة حادة ونظرت في عيني (الغريب) نظرة متسائلة:
قل لي إن كلامك بالأمس لم يحدث.. (الغريب) هذا جد خطير. لن أستطيع أن أصمد في بحر أو قارب أو ساحل.
تأملها بعطف وشفقة قبل أن يقول:
حبيبتي لا تخافي.. سأكون معك في كل خطوة وفي كل مكان بحرًا وبرًا فلن يَمَسَّك سوء. لا بديل لنا سوى ذلك الطريق. (بيدرو) سيفتش عنا في كل مكان ولن نسلَم منه هنا في بلنسية. اليوم فرصتنا الوحيدة للنجاة فهو لم يطرق أبواب بلنسية بعد، أما لو مكثنا فيها يومًا آخَر سيبعث برجاله وجواسيسه إلى هنا كأول مكان بعد (أوليبا).
فلنهرب خارج بلنسية.. لنذهب إلى غرناطة أو بلد الوليد.
نكّس رأسه:
التنقل بين الممالك والمدن ليس بالسهولة التي تظنينها. انتقالنا من (أوليبا) إلى بلنسية كان محفوفًا بالمخاطر ونحن في نفس المملكة فكيف إن انتقلنا بين حدود الممالك الأخرى؛ حيث يربض العساكر والجيوش وحراس الحدود.
دخلت (صبح) عليهما بهمة وعزم متجهم:

هل استيقظتما؟ لقد أعددت كل شيء لكما لتهربا الليلة كما خططتما عبر البحر. لقد اتفقت سرًّا مع أحد المهربين البحَّارة وأعطيته الأجرة. سينتظركما عند الحد الجنوبي لساحل (السبلايا) بين الصخرتين الكبيرتين. سيتوقف هناك لوقت قصير عند منتصف الليل؛ حيث تنطلقون ركضًا بأسرع ما تستطيعون من تحت المرفأ الخشبي المهجور إلى ما بين الصخرتين. توخيا الحذر فسيكون هناك العديد من الهاربين مثلكما. ستستقلان القارب معهم وينطلق بكما في هدوء إلى عرض البحر؛ حيث تظهر قوادس القراصنة في الميعاد فيلتقطونكما.
ارتعبت (حمدة) مما تسمع واحتار (الغريب) فهو يعلم أن تنفيذ ما قالته (صبح) ليس بسهولة قوله. الظلام والشاطئ والرمال والركض والبرودة والأمواج وعرض البحر كلها لا معنى لها إلا الخطر والموت. أي اختلال في هذه الرحلة في الزمان أو المكان سيكون معناها الفشل، والفشل نتيجته الموت والنهاية أو الفراق على أقل تقدير.
لتصلا في الوقت المناسب دون إبطاء ولا تعجُّل، عليكما أن ترحلا بعد غروب الشمس مباشرة ولا تسلكا الشاطئ أو المرفأ إلا حين تصلان إلى الجسر عند الحد الجنوبي لـ(السبلايا).
ارتمت (حمدة) برأسها على صدر (الغريب) مرتعبة فربَّت على ظهرها مُطمئنًا وإن لم يكن هو نفسه مطمئنًّا ولكنه السبيل الوحيد. اكملت (صبح):
لابد أن تأكلا جيدًا واحتفظا بمالكما فستحتاجانه ولا تأخذا معكما أي أحمال تعطلكما أو تثقلكما في الحركة.
مرّ اليوم مسرعًا و(الغريب) و(حمدة) مبهوتان صامتان شاردان يفكران فيما ينتظرهما من أحداث. هل يكون اليوم يوم الخلاص أم النهاية؟ وضعتْ (صبح) لهما طعامًا كافيًا فحاولا أن يأكلا دون جدوى. (حمدة) لديها هاجس النهاية والموت بين أمواج البحر أو على رمال الشاطئ. الرعدة والاختناق والبرودة والبلل كلها أحاسيس بغيضة ظلت تأتيها بين الحين والآخر منذ سمعت بخطة (الغريب). أما (الغريب) فخوفه كله منصب على (حمدة) تلك الروح الضعيفة الهشة. لن يسامح نفسه إن مسَّها سوء بسبب خطته. فكَّر أكثر من مرة أن يتراجع عن هذه الخطة لكن البديل أصعب وأخطر. (بيدرو) سيقلِّب الأرض بحثًا عنهما وأول مكان سيبحث فيه هو بلنسية فلن يسعفهما الوقت للهروب أو الاختباء وسيكونان صيدًا سهلًا له. القراصنة الترك هم السبيل الأوحد للنجاة. سيحيطها بكل سبل الحماية. سيكون كظلها وحارسها الأمين حتى لو فقد حياته فداءها.
إنه الوقت يا (الغريب).
نظر إلى النافذة وتمنى لو لم تغرب الشمس لكنها غربت وأطل الظلام بأطياف المجهول وأشباحه من حولهم. نعم إنه الوقت. اعتدل واقفًا وهندم من ملبسه وثبَّت صرة المال بداخل قميصه في صمت مطبق ثم مد يده إلى (حمدة) يساعدها على النهوض. نظرت إليه بعين الرجاء أن يتخلى عن خطته قبل أن تستسلم أمام عزمه وتمسك يده لتعتدل واقفة. ثم قام الثلاثة باحتضان بعضهم البعض مع بكاء (حمدة) وشفقة (الغريب) وتجهم (صبح). تصنَّعت (صبح) تأثرها لبكاء (حمدة) واحتضنتها وقبلتها مربتة على ظهرها. ثم استعدا للرحيل والخروج من المنزل الصغير فخطوا خارج الباب وتأملاها بنظرة امتنان أخيرة ممزوجة بالوداع فرفعت يدها مودعة وهزت رأسها إليهما مشجعة في تردد وظلت تراقبهما حتى اختفيا من الزقاق إلى نهر الطريق الكبير. ظلت (صبح) تراقب الزقاق الخالي شاردة دون أن تنزل يدها المودعة وقد كسا عينيها شبح دمعة لم تلبث أن حبستها بقناع التجهم واللامبالاة. إنهما حتى لم يطلبا منها أن ترافقهما!

أخذا يمشيان في الطرق الجانبية شمالاً بعيدًا عن الشاطئ الشرقي لبلنسية وهما يتجنبان النظر إلى عيون العابرين والمارين في الطرق. بدأت البيوت تنحسر شيئًا فشيئًا بعد أن مشيا وقتًا طويلًا مما ينبئ على قرب انتهاء بلنسية المدينة والاقتراب من الشاطئ الصخري المهجور قبل (السبلايا). دخل الليل سريعًا فأحس (الغريب) بتأخرهما عن الميعاد فأخذ يمد الخطى وهو يعلم ماذا يعنيه تأخرهما وفقدانهما هذه الفرصة. كانت الليلة مظلمة بهيمة بلا هلال أو بدر والهواء البارد بدأ يلفح وجهيهما كلما اقتربا من الساحل كمؤشر لدنوِّ عاصفة أو أمطار. كل هذه التفاصيل لم تغب عن عقل (الغريب) لكن لم تمنعه من التركيز على هدفه فقد اتخذا خطوة لا رجعة فيها. أخيرًا وصلا إلى المرفأ الخشبي الذي سيمكثون تحته بعض الوقت حتى يظهر البحَّار عند الصخرتين. فدَنَيا بحذر من الأرض الرملية سعيًا في اتجاه المرفأ الخشبي المهجور.

بدأت خطوات (حمدة) تثقل عندما استشعرت الرمال تحت قدميها لكن (الغريب) كان يحثُّها على التقدم بالكلام أو بلمسها أو جرِّها إن تطلَّب الأمر. وصلا بصعوبة تحت المرفأ الخشبي المهجور فاتخذا موضعًا بعيدًا عن زخات مياه الأمواج المتصادمة مع الصخور تحت المرفأ فجلست (حمدة) تمسك قدميها من التعب بينما أخذ (الغريب) ينظر حوله في اهتمام وتفحص ليدرس المكان ويعرف اتجاهاته وخطوته القادمة. استطاع أن يميز الصخرتين الكبيرتين على مرمى بصره بالرغم من الظلام. ليسا كما تخيلهما! إنهما بعيدتان بحيث إن المساحة المكشوفة التي سيركضون خلالها إليهما ليست بالقصيرة وبالتالي تزداد خطورة اكتشاف أمرهما حين يعدون خلالها.

وبينما هما على هذا الحال سمعا بخطوات تقترب منهما فالتفت (الغريب) و(حمدة) في حذر وحدة تجاه صوت الأقدام المقتربة وإذا بسيدة متشحة بالسواد تحمل طفلًا رضيعًا لا يكاد يظهر منها إلا وجهها. سألتهما إن كانا هاربين عبر القراصنة مثلها وقبل أن يردا توافد المزيد من الهاربين المستعدين قاصدين مكان التجمع مثلهما. بدأ (الغريب) يشعر بالقلق من تزايد أعداد الهاربين. عليهما أن يكونا سريعين لاستقلال القارب تحاشيًا للمشاكل. بدأ طفل رضيع بالبكاء فأخذ الجمع ينصحون أمه بأن تُصمته خوفًا أن يُكتشف أمرُهم فرغم صوت الأمواج الهادرة إلا أن صوت طفل رضيع باكٍ سهل الملاحظة. صاح أحد الرجال مشيرًا ناحية الصخرتين منوهًا إلى وصول قارب البحّار وكان ذلك إيذانًا ببدء مسابقة العدو العشوائي بينهم في مساحة رملية من الساحل مكشوفة تمامًا وكلهم أمل أن يشملهم الحظ ألا يكتشف أمرهم أو يراهم أي من حراس السواحل. ركض (الغريب) و(حمدة) بدوريهما.

وكما خشي (الغريب) فقد تثاقلت خطوات (حمدة) أكثر وأكثر كلما اقتربت من البحر كما لو أن قدميها تلتصق بالرمال، فصار يجذبها بشدة وعنف حتى كادت تسقط على وجهها وهو يحفزها أنهما على بعد خطوات قليلة من الخلاص فتسرع حينًا وتبطئ حينًا آخَر. لكنهما لم يكونا في المقدمة وقد سارع رجال وشباب بالعدو السريع فسبقوهما حتى صارا أمامهما بمساحة كبيرة بينما هما تقهقرا بالخلف لا يسبقان إلا السيدة أم الرضيع الباكي. أحست (حمدة) بنيران حارقة شديدة في رئتيها من فرط النهج وأرادت أن تستسلم لكن (الغريب) لم يسمح لها بمجرد التفكير في الاستسلام فكان يجذبها ركضًا ويحمسها وهو يصوب بنظره تجاه القارب والهاربين الذين بدؤوا في الوصول إلى القارب واستقلاله.

انطلق صوت دوي لطلق ناري من خلفهما تبعه صراخ السيدة التي كانت خلفهما وسقوطها المروع على الرمال. ثم انطلق دوي بنادق البارود من كل صوب من حراس الساحل مختلطاً بصوت صراخ (حمدة). لقد اُكتُشف أمرهم وها هم الحراس يَعْدُون من بعيد ويصوبون بنادقهم ويطلقونها عشوائيًّا في

اتجاه الهاربين يأمرونهم بأصواتهم الجُشَ أن يتوقفوا. أحس (الغريب) بالخطر المحدق بهما فحاول أن يسارع من خطواته لكن (حمدة) على العكس كانت تبطئ للتوقف:
لننقذ السيدة يا (الغريب).. لنساعدها.
لا نستطيع يا حبيبتي.. سيقبض علينا.. سيقتلوننا..
أفضِّل أن نموت ونحن نساعدها.. عن أن نتركها ونعيش..
لم يكن هناك وقت للجدال فأخذها ورجع بضع خطوات وهو يسمع دوي البارود من حوله وأصوات الحراس تقترب. وصلا إلى السيدة الملقاة على الأرض وهي تحمي وليدها بذراعيها. انكب عليها (الغريب) في سرعة يتفحصها. كانت السيدة مصابة بطلقة بارود استقرت في فخذها الأيمن من الخلف فارتمت على الأرض متأوهة وبجانبها طفلها الرضيع باكيًا. كان واضحًا جليًّا أن السيدة لن تستطيع الركض وستبقى فريسة سهلة للحراس. صاحت السيدة متأوهة متلهفة:
أنقذونا أرجوكم..
تبادل (الغريب) النظر بين المرأة و(حمدة) وقال بسرعة:
لا نستطيع يا سيدتي.. سيلقون القبض علينا جميعًا.. أنا آسف لك.
ثم اعتدل عازمًا العدو بسرعة لكن (حمدة) استوقفته وصاحت المرأة:
إذن خذوا ابنتي.. واتركوني لمصيري.. خذوا ابنتي وأنقذوها.. لقد قُتِل أبوها في الطريق من أجل أن نصل إلى هذا الحد.. أرجوكما..
لم يتحمل قلب (حمدة) الموقف فبدأت تبكي و(الغريب) يكاد يشتاط غيظًا وطلقات البارود تتطاير من حولهم والحراس يقتربون وهو لا يستطيع أن يترك (حمدة). أما (حمدة) فوجدت نفسها في تلك الطفلة. نفس ما جرى لها عندما وجدها الشيخ (عبد الصمد) على الساحل بعد موت أمها غرقًا. نفس الصراخ تألفه... نفس المعاناة تشعرها، لا يمكنها أن ترى نفس مأساتها تتكرر مع هذه الطفلة بل ربما ترى هذه الطفلة أسوأ مما لاقته هي نفسها.
لابد أن نأخذ الطفلة يا (الغريب) لا أستطيع أن أتركها..
أيقن (الغريب) أن (حمدة) لن تتراجع عن موقفها. (حمدة) التي كانت تبكي لمرأى هرة جائعة أو دجاجة مذبوحة لن تترك طفلة رضيعة تجابه حراس البارود والقتل على شاطئ الغرق. عرف أن هذا أفضل حل مع نفاذ الوقت:
حسنًا هيا بنا..
فانكبت (حمدة) على الطفلة وأمسكتها فتحسست المرأة الجريحة ظهر الطفلة الباكية مودعة وهي تبكي مولولة ثم تركتها لـ(حمدة). انطلق الحبيبان أسرع مما كانا عليه فيبدو أن (حمدة) قد استشعرت الآن مدى مسؤوليتها تجاه هذه الرضيعة ونجاتها، فأخذت تعدو بأقصى ما تستطيع حتى وصلا إلى القارب الذي كان قد امتلأ عن آخره واستعد البحَّار بسرعة وعجلة للإبحار إلى عرض البحر. حاول (الغريب) و(حمدة) استقلال القارب الصغير لكن البحَّار منعهما وقال بوقاحة:
أين تذهبان؟!.. لا أستطيع أن آخذكما معًا.. لقد اكتُشف الأمر وستأتي قوادس الأرمادا السريعة خلفنا وستثقلوننا وقد نموت جميعًا.
صاح (الغريب) غاضبًا وهو ينقل بنظره بين البحّار وبين مصدر صوت الحراس القادم من بعيد:
لكنك أخذت أموالًا لتنقلنا.. أتريد المزيد من الأموال؟ سأعطيك ما تريد.
لا أستطيع أن آخذكما سويًّا.. واحد منكما فقط يمكن أن يركب.

ثم رفع مجدافًا في وجه (الغريب) ليمنعه من الركوب فقام رجل آخر من الهاربين يصيح في (الغريب):
ستقتلوننا جميعًا.. هيا تحرك أيها البحار حالًا واتركهما الاثنين سويًا..
ارتعب (الغريب) لو حدث هذا الأمر فهو الفشل التام. لابد أن يقرر فالبحر من أمامه والجنود الإسبان من خلفه بطلقاتهم القاتلة:
حسنًا خذها هي..
شهقت (حمدة) صارخة:
لا.. (الغريب) لا تتركني وحدي..
فابتسم (الغريب) ابتسامة قلقة قائلًا:
لا تخافي.. سأكون معكي يا حبيبتي.. أنت تعلمين أنني أجيد السباحة.. سأتبعك سباحة إلى عرض البحر وألتقيك على سفن القراصنة.. وربما حتى أكون أسرع من القارب.
هزت رأسها نفيًا غير مصدقة لما يقول فصاح البحار:
اللعنة الحراس يقتربون.. اركبي الآن أو لا..
دفعها (الغريب) إلى القارب فسقطت بظهرها متفاجئة داخل القارب وهي تمسك الرضيع بيديها كي لا يسقط منها. ثم أخذ هو والبحار يدفعان القارب الصغير إلى داخل البحر قبل أن يقفز البحار داخل القارب ويبدأ في التجديف بينما وقف (الغريب) وحيدًا وماء البحر يصل إلى خصره. ولما سمع صوت طلقات بارود تقترب منه انطلق يسبح في عرض البحر متتبعًا آثار القارب. بينما وقفت (حمدة) تبكي وهي تراه والمسافة تتسع بينهما أكثر وأكثر. لقد وعدتني ألا تتركني! والآن تتركني هنا وحدي بيني وبين النهاية خطوات! عد يا (الغريب).. عد أيها البحار الغريب.. فغريبي هناك على الشاطئ يجابه الموت وحده..
رفع البحار شراعه عاليًا ليستفيد من قوة دفع الرياح فتزداد سرعته وقد بعُد عن الشاطئ بعيدًا عن طلقات البارود وصياح الجنود. كانت الأمواج ترتفع كلما خاض القارب الصغير في عرض البحر فصار القارب يتقلب يمينًا ويسارًا بعنف يخطف القلوب. جلس المسافرون على جانبي القارب يلتحفون عباءاتهم وملابسهم الصوفية حول رؤوسهم تحاشيًا للهواء البارد ورذاذ الأمواج بينما جلست (حمدة) ساكنة صامتة متجهمة وقد خطّت دموعها خطين لامعين على وجنتيها بينما تهدهد بذراعيها برتابة الطفلة الرضيعة التي استسلمت للنوم وقد نالت من دفء (حمدة) ما وهبها الأمان والرحمة التي افتقدتهما من صدر أمها.
صار الظلام حول القارب من كل اتجاه بعد أن بعدوا عن الشاطئ واختفت أضواؤه من بعيد فقام البحار بإخراج قنديل ثم أشعله بصعوبة حتى يستخدمه في الإشارة إلى قوادس القراصنة ليهتدوا إليهم في الظلام كما اعتاد أن يفعل. ظل يحرك القنديل يمينًا ويسارًا بإلحاح. تسلل اليأس إلى المسافرين بعد أن كرر البحار الأمر ذاته أكثر من مرة دون جدوى. وفجأة أنيرت السماء بنور بارق سريع باهر خطف الأبصار ثم تبعه دوي انفجار رهيب فصاح البحار باللعنات والسباب قبل أن تسقط قذيفة مدفعية بالقرب من القارب رمت برذاذ شديد على وجوه الجميع امتزجت بصرخاتهم. صاح البحار غاضبًا إنها قوادس الأرمادا تتبعهم كما لو أنهم على علم مسبق بهجوم القراصنة. شهق جميع من بالقارب إلا (حمدة) التي تملكتها رعدة شديدة وتصلبت أطرافها كجسد ميت متيبس حتى كادت تخنق الرضيع. ثم انطلقت قذيفة أخرى ظهر عبر ضوئها الباهر قادس كبيرة تقترب منهم من على البعد. ثم

اتضح أيضًا أن القادس تطلق القذائف النارية على قوارب أخرى للهاربين في عرض البحر قادمة من اتجاهات مختلفة تبدو كلها كصيد سهل لقوادس الأرمادا العظيمة. استمر صراخ الهاربين في القارب والقذائف تتهاوى من حولهم وسيطر اليأس والإحباط على الجميع وبدؤوا يستعدون للنهاية عندما تسقط عليهم إحدى هذه القذائف. وعندما بلغت القلوب الحناجر وبلغ اليأس مبلغه سمع الجميع أصوات مدافع متتالية هادرة مغاير لأصوات مدافع الأرمادا بل إن إحدى قوادس الأرمادا أصيبت إصابة مباشرة واشتعلت فيها النيران على الفور وسمع الجميع أصواتًا جُشًّا تصيح بكل قوة وصرامة:
الله أكبر.. رحم الله (طرغود).. الله أكبر.
فالتفت الجميع إلى مصدر الصوت فإذا بثمانية قوادس عملاقة ذات أعلام خضراء لمعت أهلتها الذهبية خلال الأضواء الخاطفة للانفجارات وهي آتية من عرض البحر على شكل سهم تشق الضباب والدخان مقتحمة الميدان بكل سرعة وقوة والبحر ينشق بينها كما يمزق الثوب بحدَّي المقص. تنفس البحار الصُّعَداء عندما تأكد من وصول قوادس القراصنة وحمايتهم لقوارب الهاربين من مدافع الأرمادا. صار البحر يعج بالقذائف التي تنطلق في كل اتجاه بين قوادس الأرمادا وقوادس القراصنة الترك كما لو كانت حيتان عملاقة تتعارك، وقوارب الموريسكيين الهاربين بينهم أسماك صغيرة. فأخذت القوارب الصغيرة تتعرض للغرق بإصابات المدافع المباشرة أو غير المباشرة. كان يبدو أن قوادس القراصنة أكبر وأكثر جاهزية وأن المعركة تميل إلى صالحهم بعد أن سقط قادسان للإسبان لكن فجأة حدث تغير في سير المعركة حينما ظهرت قوادس للإسبان قادمة في الظلام من عرض البحر كالأشباح وأخذت تطلق القذائف على مؤخرة قوادس فوج القراصنة التي فوجئت بهذا التغيير وأصيب منها قادسان إصاباتٍ بالغة بينما التفتت القوادس الأخرى لمواجهتها. صاح البحار غاضبًا أن القراصنة قد وقعوا في كمين أُعِد لهم وأنه من المؤكد أن الإسبان كانوا مستعدين لهذه الغارة. وقبل أن يكمل كلامه وقعت قذيفة بجانب القارب تمامًا فطار في الهواء منقلبًا رأسًا على عقب وسقط كل من فيه غارقين في ظلمات البحر.
كان (الغريب) يسبح بكل ما أوتي من قوة حتى يلحق بالقارب. لم يكن عقله ولا جسده يصدق أنه يستطيع ذلك فالسباحة في عرض البحر ليست سهلة وسط الأمواج العالية بينما كان قلبه يدفع جسده لفعل المستحيل وتحميله طاقة أكبر مما يستطيع فأخذ يضرب بيديه وقدميه بكل قوة دافعًا جسده للإمام. القارب يبعد أكثر وأكثر بعد أن نشر البحار شراعه، والشاطئ بعُد عنه ولفَّه الظلام وأصبح لا يَرى ولا يسمع أي شيء يدله على الاتجاه الصحيح كما لو كان قد انقطع عن الحياة إلا من برودة في أقدامه جعلته لا يكاد يشعر بها وتعب في عضلات ساعديه. لقد فقد اتجاهه ولا يدري في أي اتجاه يذهب فلا هو يستطيع أن يتقدم إلى الظلام أو يرجع للحراس أو يقف في مكانه للبحر يجذبه للقاع وكأن أقدامه مربوطة بأثقال حديدية ويدفعه للاستسلام لكن قلبه لا زال رافضًا الاستسلام ويدفعه للاستمرار. ماذا يفعل؟ اطمئني يا (حمدة)، لن أخذلك يا حبيبتي... لن أتركك وحيدة أبدًا. وفجأة انطلقت مدافع قوادس الأرمادا وبدأ يرى في وميض القذائف القوادس والقوارب تتنازع بينها. فزع (الغريب) من مرأى القذائف تنهال على قوارب الهاربين الصغيرة بِدَوِيٍّ يصم الآذان ووميض يُعمي العيون. تعرف على القارب الذي تستقله (حمدة) فأخذ يسبح تجاهه بالرغم من القذائف المنهالة من حوله. أخذ جسده يخذله شيئًا فشيئًا حتى صار عاجزًا حتى عن رفع ذراعه أو ضربه في الماء وصرخت رئتاه نجدة بل كاد يفقد الشعور بقدميه تمامًا فتوقف طافيًا على سطح الماء يلتقط أنفاسه ويراقب الأمور وعينه مرتكزة على النقطة الأخيرة التي رأى فيها قارب (حمدة). ظهرت قوادس القراصنة وتبادلت

القذائف المدفعية مع قوادس الأرمادا فشعر (الغريب) بالقلق بعد ازدياد الخطورة في عرض البحر من كثافة القذائف النارية من الطرفين. اشتعلت في إحدى قوادس الأرمادا النيران وبات واضحًا قرب انتصار الترك قبل ظهور قوادس الأرمادا الكبيرة خلف القوادس التركية وبدأت الكفة تعود للإسبان. كل هذا يراه (الغريب) وهو يلتقط أنفاسه ساكنًا على سطح الماء حتى رأى قذيفة تصيب القارب الذي تستقله (حمدة) فينقلب ويسقط كل من فيه في الأعماق. صاح (الغريب) بأعلى ما في صوته:
لا.. (حمدة) اصمدي أنا قادم لإنقاذك..
ثم أخذ يسبح يائسًا وعقله يخبره باستحالة وصوله إليها وإنقاذها في الوقت المناسب وهو على كل هذا البعد وقد صار جسده كجسد عجوز من التعب والإنهاك. فأخذت الدموع تسيل من عينيه وتختلط بماء البحر وهو لا يملك حتى الوقت أو الجهد للبكاء والنحيب. لقد خذلها وتركها للموت غرقًا كما كانت تخشى. كانت موقنة أنها ستموت يومًا غرقًا ولم يستمع إليها ودفعها بيديه هاتين إلى القارب ودفع القارب إلى عرض البحر. هو الذي رسم خطة الهروب عبر قراصنة البحر. هو الذي دفعها للهروب خارج (أوليبا). هو الذي فشل في حمايتها عندما احتاجت إليه أشد الحاجة. كان يعلم استحالة نجاتها من انقلاب القارب في عرض البحر حتى لو حاول أحد مساعدتها.
آسف يا حبيبتي.. أنا المخطئ.. أنا لا أستحق الحياة سأصحبك يا حبيبتي فانتظري.
ثم استسلم جسده لم يستطع أن يقاوم الألم والتعب والأسوأ من ذلك أن قلبه قد توقف عن ضخ الأمل في عروقه فدب اليأس بداخله وما عاد هناك سببٌ للحياة. ترك (الغريب) جسده واستسلم للأمواج تفعل به ما تشاء ثم أغمض عينيه واستعد لاستنشاق الماء المالح ليذبح رئتيه وللظلام الأبدي ليطغي على بصره. هنا فقط قبل الرمق الأخير انتبه لتلك الأيدي الغليظة التي امتدت وانتشلته قبل أن يغرق ورفعته بقوة وصرامة ثم رمته بقوة على سطح قارب كبير. لم يكن قادرًا على فتح عينيه واستسلم للسقوط في عالم اللا وعي. لكن لمحت عينه الزائغة آخر ما رأى. العديد من القوارب والقوادس في الأفق تحترق غارقة وقد انتهت المعركة والتقطت أذنه آخر صوت سمعه قبل أن يخر فاقدًا للوعي:
انتشلنا موريسكيًا هاربًا آخَر يا سيدي.. يبدو حيًّا..
ضعه مع الآخرين لنسلمهم للشرطة في الصباح!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تستطع (صبح) النوم في هذه الليلة وهي تعلم ما سيجري بها من أحداث جسيمة. كما تحججت بمرض ألمَّ بها حتى لا تعمل في الحانة هذه الليلة. حبست نفسها في غرفتها وحيدة جالسة على الأرض تحتسي جرعات من النبيذ بين الحين والآخر. كانت تنتظر سماع دوي الانفجارات من الناحية الشمالية للمرفأ. نعم كانت تعلم أن الانفجارات ستدوي وستملأ ليلة بلنسية صخبًا. لن تكون ليلة هادئة يتسلل فيها القراصنة فيسرقون ويهرِّبون الموريسكيين ويمدونهم بالأسلحة ثم يختفون في صمت. كانت تعلم هذا.. بل كانت متأكدة من ذلك. وعندما انتصف الليل شعرت بقلبها ينخلع من صدرها عندما سمعت دويَّ الانفجار الأول يأتي من بعيد ويرج الطرقات والأزقة والبيوت والقلوب أيضًا ثم يليه انفجارات كثيرة وأضواؤها تتراقص في الأفق المظلم وفي سماء بلنسية الحالكة. تأكدت الآن أن خطتها قد نجحت. إنها انتصرت أخيرًا على (حمدة). ضحكت ضحكة هستيرية بانتصار ونشوة، ثم امتزجت الضحكة بنشيج وبكاء سكير قبل أن ترتمي على الأرض باكية ندمًا على ما فعلت وغابت عن الوعي وعقلها يكرر عليها ما فعلته وما اقترفته في حق (الغريب) و(حمدة).

عندما تركت (صبح) الحبيبين نائمين محتضنين وقد اشتعلت فيها نيران الغيرة والحقد كالعادة، قررت وعزمت على ما ستفعله. ذهبت إلى أحد المهرِّبين البحارة على ساحل بلنسية تعرفه وتعرف أنه يهرب الموريسكيين الفارين مقابل أموال يدفعونها فينقلهم من الساحل إلى عرض البحر؛ حيث يسلمهم للقراصنة. كان بحَّارًا إسبانيًّا لكنه جشع لا يهمه سوى الأموال التي يجمعها من الموريسكيين الهاربين فلا يهتم بالإبلاغ عنهم؛ حيث إنهم مصدر رزقه الوحيد وهو مصدر رزق مجزٍ وسهل لن يغامر بفقده. أخبرته بميعاد ومكان هجوم القراصنة في الليلة التالية وأعطته أجرته واسمً (الغريب) و(حمدة) وأوصافهما كمسافرين على قاربه الصغير. ثم أخبرها على مكان التجمع ووقته. لكن لم تكن تلك هي خطتها. (صبح) لن تسمح لذلك الحب الطاهر بين (الغريب) و(حمدة) أن ينتصر عليها. لن تسمح بـ(حمدة) أن تجتمع بـ(الغريب) في نهاية أبدية سواء كانت سعيدة إن نجحا في الفرار أو نهاية مأساوية لو قتلا. أعطت (صبح) البحار الإسباني مالًا إضافيًا مقابل أن يأخذ واحدًا منهما فقط وليس كليهما. من المؤكد أن يضحي (الغريب) بنفسه ويترك (حمدة) تستقل القارب لتهرب هي وحدها. وبالتالي ستنجح خطتها في التفريق بينهما. لو نجحت(حمدة) في الهروب ستكون في جزء آخر من العالم بعيدًا عن (الغريب) إلى الأبد، وإن قتلت غرقًا سينتهي ذكرها إلى الأبد. في كل الأحوال سيعود إليها (الغريب) أو لا يعود لا يهم. المهم ألا ينتصر ذلك الحب عليها.

ظنت (صبح) أن هذه الخطة مؤكدة النجاح وأن كل شيء تحت تصرفها وطوع قرارها حتى وجدت نفسها محاصرة بجنديين إسبانيين يُلقيان القبض عليها بتهمة تدبير هروب عبر البحر والتخابر مع القراصنة واتضح أن عيون الشرطة المنتشرة في المرفأ قد رصدتها وهي تدفع الأموال للبحار بغرض التهريب عبر البحر. هلعت (صبح) من تهمتها وما قد تحمله لها فتوسلت وتضرعت لهما وحاولت رشوتهما بكل الحيل وأفهمتهما أنها راقصة في حانة ولا نية لديها للهروب، لكن الجنديين أخذاها مقيدة بالأصفاد إلى مخفر الشرطة. عندما وصلت (صبح) إلى مخفر الشرطة ورأت بعينيها القضبان والسلاسل الحديدية والمدانين وأصبحت على بعد أنملة من النهاية لم تجد بُدًّا من أن تستنجد بـ(فرَّاج) ملجئها الأخير. أخبرت قائد الشرطة أنها تعمل مع الكابتن (خوسية دي لوخا) في قسم التخابر بالأرمادا. على الفور تم استدعاؤه بدون أي إبطاء.

يقولون إنهم شاهدوك وأنت تدفعين الأموال للبحَّار المهرب.. مقابل ماذا يا (بيليتا)؟

لم تستطع أن ترد على سؤال (فرَّاج) وتهربت من عينه الثاقبة الوحيدة التي تخترق روحها كالسهم فاستجمعت شجاعتها وقالت:

استدعيتك لتخرجني من هنا لا لتحقق معي يا.. يا كابتن.

لم يعجبه ردها:

إن لم تساعديني فلن أستطيع أن أساعدك يا (بيليتا). جريمة الهروب عبر البحر جريمة كبرى تستلزم أشد العقاب وإن لم تخبريني سبب ما فعلتِ فلن أستطيع أن أستخدم علاقاتي لإخراجك من هنا.. هل ترين هؤلاء؟

ثم أشار إلى رجل موريسكي وزوجته وطفليه جالسين القرفصاء مسلسلين بالحديد وعلى وجههم علامات القهر واليأس والمرارة والمرأة لا تكف عن البكاء مخبئة وجهها بوشاحها بينما نام الطفلان على الأرض في بؤس أما الرجل فقد كان شاردًا فيما ينتظره من مصير هو وأسرته.

لقد قبض عليهم محاولين التسلل إلى مرفأ بلنسية استعدادًا للهروب وغدًا يتم ترحيلهم إلى الديوان المقدس وانتزاع الأطفال منهما إلى الأبد. إن مصيريهما ليس ببعيد عنك بل على بعد كلمة منك!

ارتعدت روحها وهي تتخيل مصيرها مثل تلك المرأة في ديوان التفتيش. لم يكن هذا ما رسمته في مخيلتها لمستقبلها. لم يكن هذا ما ضحت بكل شيء من أجله. هل يستحق (الغريب) أن تضحي بنفسها من أجله وهو ينكر وجودها ولا يشعر بما تحمله إليه؟ هل تستحق (حمدة) تضحيتها وقد كانت هي سبب شقائها الدائم؟ لم يكن قرارًا صعبًا واستطاعت أن تقنع عقلها أنها لن تشعر بأي تأنيب للضمير إن هي أفشت بسرهما؛ حيث لا سبيل آخر لها.
حسنًا يا (بيليتا) عليك مواجهة مصيرك وحدك طالما كان ذلك قرارك.
ثم همَّ بالرحيل حتى استوقفته:
كنت أساعد أقرباء لي من (أوليبا) ليهربوا..
توقف (فرَّاج) مستغربًا:
أي أقرباء يا (بيليتا).. هل تخدعينني؟! أنا أعلم كل شيء عنك..
ثم توقف بغتة واتسعت حدقتاه فأيقنت (صبح) أنه قد عرف مَن المقصود، فنكَّست رأسها واستسلمت وأخبرته بكل ما تعرف.. وبالتفصيل.
كل هذا استرجعه ذهنها وهي غائبة عن الوعي تتذكر كل هذه الأحداث كما لو أن عقلها يعاقبها بجلدها بأسواط مسننة صنعت من تلك الذكرى. سالت دمعتان من عينيها المغلقتين قبل أن تتمتم شفتاها بتضرع:
لماذا جئتما إليَّ يا (الغريب)؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انطلق (فرَّاج) يسرع الخطى بعد أن قابل (صبح) وأخبرته بما تعرف عن (الغريب) و(حمدة) قبل أن يخرجها من المخفر على ضمانته. انطلق يملؤه العزم والهمة وهو يفكر بكل عمق ماذا يجب عليه أن يفعل. بإمكانه أن يأخذ قوة من الشرطة ويقبض عليهما ويحصل على (حمدة) بين أظافره. نعم كان يحلم أن يظفر بها وها هي تأتي إليه بأرجلها إلى ساحته التي يبرع فيها وصار له فيها قوة وسطوة. يستطيع أن يقتل (الغريب) ويستريح من أقوى منافسيه على قلب (حمدة). يستطيع أن يستفيد من ذلك الأمر بأن يصبح لديه المزيد من السطوة والعلاقات المتينة مع الشرطة. لكنه لا يزال يرى كل هذه المكاسب مكاسب ضئيلة إذا ما قورنت بمدى حساسية وأهمية المعلومات التي يعرفها الآن. إن أقوى مؤسستين في المملكة هما الكنيسة والجيش. وحيث إنه قد سلك الطريق الكنسي ولم يذهب به بعيدًا كما كان يتمنى فلابد أن يختار طريقًا أكثر سهولة في الجيش. البحرية الملكية هي درة الجيش وأقوى قطاعاته على الإطلاق ولديها تمويل مطلق من الملك ودعم قوي من الكنيسة. يستطيع أن يستخدم ما لديه من معلومات ليكون من الحظوة من رجال البحرية. نعم.. لقد عرف تمامًا ما سيفعله. أما (حمدة) و(الغريب) فليذهبا إلى الجحيم. كانا من ثمار الماضي ففسدا وصارا لا فائدة ترجى منهما.
انطلق بسرعة إلى ثكنات الأرمادا وقد أطل الصباح وأشرقت الشمس وبدأت الحركة تعج بالثكنة البحرية والقوادس الحربية العملاقة بأشرعتها ومجاديفها ترسو على المرفأ كمردة وعماليق. أخذ يتحرك بين خيام ومباني الثكنة حتى وصل إلى المبنى الرئيس للأرمادا مثبتًا على بوابته شعار الأرمادا العظيمة. أراد أن يدخل المبنى فمنعه الحراس فأخبرهم أنه يريد أن يقابل الكاردينال رئيس الأرمادا بنفسه لما لديه من معلومات حساسة فهو يعمل في فريق الاستخبارات. دخل الحارس ثم خرج وسمح لـ(فرَّاج) أن يدخل ورافقه بنفسه عبر الردهات حتى دخل به إلى مكتب الكاردينال رئيس الأرمادا وكان الرئيس يجلس على مكتبه يتصفح بعض الخرائط مع مساعديه فسأله عما يريد بعدم

اكتراث وعنجهية فأخبره (فرَّاج) أنه لديه معلومات خطيرة وأنه يعمل لدى الفرع الاستخباري بالبحرية. أخبره أحد المساعدين بتجهم أن يفرغ ما لديه من معلومات لرؤسائه لكن (فرَّاج) فاجأهم أنه يعلم ميعاد ومكان الغارة القادمة للقراصنة الترك على الساحل الإسباني. التفت ثلاثتهم إليه منصتين بكل اهتمام. كان (فرَّاج) يعلم أن ما لديه من معلومات من الأهمية بحيث إنهم على استعداد أن يعرضوا عليه المال والمناصب للحصول عليها. لقد قضَّ القراصنة الترك مضاجع البحرية الملكية والشواطئ الإسبانية وكبدوهم الكثير من الخسائر وصار الضغط من الملك على البحرية شديدًا حتى يتخلصوا أو على الأقل يُحيِّدوا من قوة «العثماني الذي لا يُقهر» المتعاظمة التي تخطت البحر الأبيض فصاروا يضربون السواحل الغربية أيضًا.

سأعطيكم تلك المعلومات ودعوني أشارك بنفسي في رد هجوم القراصنة الملاعين ثم أنتظر مكافأتي. ستنال أكثر مما تتخيل من المال والترقية يا فتى إذا صدقت.. وإن كذبت ستُعدَم.

ابتسم (فرَّاج) بكل خبث ونشوة ثم بدأ يشرح لهم ما لديه من معلومات وموضحًا على الخرائط ثم استمع إلى خطتهم. عندما طلب الانضمام إلى القوة المهاجمة لم يطلب ذلك شجاعة منه بل حتى ينال أكبر الثناء في هذا النصر وكان يتوقع أن تقود المعلومات التي قدمها لقادة الأرمادا إلى نصر ساحق لهم على الترك وبالتالي ينال هو الفضل الأكبر للانتصار.

في المساء كان هناك عشرة قوادس مجهزة عند المرفأ ومستعدة للاشتباك مع القراصنة. انطلقت أربعة منها جنوبًا ومثلها شمالًا حتى يطوقوا القراصنة من الجانبين بينما ظل القادسان الصغيران في العمق كطعم للقراصنة حتى يتوغلوا في المياه الضحلة. وعندما انتصف الليل كان (فرَّاج) على أحد القادسين الوسيطين على أتم الاستعداد للاشتباك. اختبؤوا في الظلام حتى لمحوا القوارب الصغيرة تتحرك فانتظروا حتى تظهر قوادس القراصنة لكنها بعد طول انتظار لم تظهر. طلب (فرَّاج) من قبطان القادس الذي يستقله أن يضرب القوارب الصغيرة بالمدافع حتى يستفز القراصنة للتقدم والاشتباك. وافق القبطان على مضض منه؛ حيث إنه استقبل أمرًا كتابيًا من رئيس البحرية نفسه بالاستماع إليه وإلى نصائحه. وفعلًا أمر القبطان بإطلاق قذائف عشوائية على القوارب الصغيرة، ونجحت الخطة وظهرت قوادس القراصنة الترك العملاقة وبدأت بالرد على المدافع.

شعر (فرَّاج) بالنشوة والانتصار وهو يرى خطته تنجح وبدأ يرسم مستقبله الجديد في البحرية الملكية. أصيب القادس الوسيط الثاني للأرمادا واشتعلت فيه النيران وظهر تفوق القراصنة على القادسين الصغيرين لكن الخطة الإسبانية المضادة نجحت بمباغتة الترك من الخلف بقوادس عملاقة من الاتجاهين الجنوبي والشمالي فأصبحت قوادسهم محاصرة من كل اتجاه وبدأت القذائف تنهال والنيران تشتعل والقوارب الصغيرة تغرق ضحية لصراع العمالقة. امتلأ الهواء برائحة البارود ممزوجة برائحة الأخشاب المشتعلة وبدأت قوادس من الجانبين تغرق؛ حيث استردَّ القراصنة بَأسَهم بعد المفاجأة واستطاعوا أن يكسروا الحصار بعد أن أغرقوا قادسين عملاقين وخسروا بدورهم قادسين أخيرين. في الوقت الذي شعر فيه (فرَّاج) بقرب الانتصار واقترابه من المجد أصابت قذيفة مباشرة باطن القادس الذي يستقله واشتعلت فيه النيران وبدأ يغرق ببطء. استطاع (فرَّاج) أن يقفز في الماء قبل أن يغرق القادس به وأخذ يصارع الغرق بين البحارة والجنود الإسبان. لا يعلم كم مرَّ من الوقت وهو يصارع الغرق حتى استقر به الحال على قائم خشبي عائم على الماء ويبدو أن المعركة قد انتهت فلم يعد هناك أصوات مدافع البارود بل صوت أنين القوادس الغارقة والنيران المستعرة وصياح المصابين وجثث الغرقى والقتلى تطفو على السطح. اقترب منهم قادس كبير ورُمِي لهم

بحبال النجاة فأمسك أحدها وصعد بسرعة إلى سطح القادس فإذا به على سطح قادسٍ للقراصنة أسيرًا وعشرات العيون الغاضبة تتربص به عبر الذقون الكبيرة والعمائم العظيمة.
أسير آخر يا ريس (محمدي)!
في الصباح وقف (فرَّاج) مبلَّلًا مرتعدًا من الألم والبرد في صف من جنود الأرمادا الذين وقعوا أسرى في أيدي القراصنة الترك تحت حراسة حارسين شديدين ذوي قسمات وجه غليظة مليئة بالندوب تبعث على الرعب تحت عمائمهم البيضاء وذقونهم العظيمة التي تكاد تلامس بطونهم. أتى الريس (محمدي) قائد الحملة ورمى بنظرة سريعة على الأسرى ومعه مساعده الريس (شاكر). كان (محمدي) شابًّا أبيض طويلًا مليئًا عريض المنكبين بعينين بنيتينٍ لامعتين في ضوء شمس الصباح التي بدأت تطل بعد ليلة عصيبة استطاع فيها أن ينجو من كمين أُعِدَّ بإحكام بسبب مهاراته البحرية وعقله الذكي وتدريبه المتقن. صحيح أنه هرب من الكمين إلى عرض البحر إلا إنه قد كبَّد الأرمادا خسائر فادحة بعد أن أغرق لهم سبعة قوادس مقابل ثلاثة خسرها من حملته.
عُدَّهم لتبادل الأسرى فلدينا العديد من رجالنا سقطوا أسرى في أيدي الإسبان. لن يعجب هذا الريس (أولوج عليّ) عندما نعود إلى طرابلس الغرب.
قالها الريس (محمدي) بلهجة آمرة حازمة قبل أن يتوجه إلى مؤخرة القادس؛ حيث الموريسكيون الناجون والجرحى.
من المحزن أننا لم ننقذ إلا هؤلاء المساكين..
مات الكثير منهم وسط المعركة يا سيدي.. من الصعب تفادي القوارب الصغيرة وسط معارك القوادس الحربية الكبيرة.
قالها الريس (شاكر) في أسى.
رحم الله سيدي الريس (طرغود) لولا ما علَّمَنا إيَّاه في الأسطول من استراتيجيات الانسحاب والتسلل لفقدنا كلَّ قوادسنا هذه الليلة. لقد كان كمينًا محكمًا يا (شاكر) فيبدو أنهم قد استعدوا لنا جيدًا كما لو كانوا يعرفون خطتنا هذه المرة.
ثم تقدم إلى الجرحى وقد عكف الأطباء والجراحون لمساعدتهم وتضميد جراحهم. وقف يتأملهم ليتأكد بنفسه أنهم يتلقون العناية اللازمة حتى توقف أمام ذلك الجسد الأنثوي المسجى على ظهره دون حراك ودون أن يرعاه أحد فنادى أحد الأطباء:
لماذا لا تساعد هذه الجريحة يا بني؟
اقترب أحد الأطباء من الأنثى الجريحة الغائبة عن الوعي وكشف شعرها الأسود الطويل المبلل عن جبهتها فظهر وجه (حمدة) مرهقًا أبيض كالموتى وقد شُجَّت رأسها بجرح كبير عميق هلالي الشكل من قمة رأسها إلى فوق حاجبها الأيمن. كان الجرح عميقًا تكاد تظهر عظامُ رأسها من خلاله وقد نزفت دماء كثيرة اختلطت بماء البحر الجاف على جبهتها. نظر الطبيب إلى الريس (محمدي) في أسى قائلًا:
فرصتها في النجاة مستحيلة يا سيدي حتى وإن عاشت قليلًا.. نبضها ضعيف ونزفت الكثير من الدماء.. وجرحها غائر مميت.
انحنى الريس (محمدي) على ركبتيه وأخذ يتفحص وجه (حمدة) الجميل المنهك ويتلمس خديها الباردين فوقع شيء منها في قلبه شفقة وعطفًا:
سبحان الله.. ما أجمل صنيع الله في خلقه!.. هل يعرفها أحد منكم؟

سأل الفارين الناجين فقال أحدهم:
كانت معي على القارب.. لم يلحق زوجها القارب وفقدت رضيعها في الماء.
شعر الريس (محمدي) بمزيد من الأسى عليها ثم قال:
خذها يا ولدي إلى قمرتي واعهد إليها بأفضل الأطباء لرعايتها تحت إشرافي ولا تبخل في رعايتها بشيء مهما كان.
جاء جنديان بمحفَّة وحملوها إلى قمرة الريس. كل هذا و(فرَّاج) يتابع الموقف وقد ميَّز وجه (حمدة) عندما مرت المحفة من أمامه بالرغم من مرور وقت طويل منذ رآها آخر مرة. إذن فقد نجت (حمدة) وسط القصف في المعركة. لكن يبدو أن (الغريب) لم يَنْجُ.
تم تبادل الأسرى في اليوم التالي كما يقتضي البروتوكول البحري في مواقع محايدة. رجع (فرَّاج) مع الأسرى الإسبان إلى بلنسية في قادس حربيٍّ سريع. نزل من القادس فاستقبله أحد مساعدي الكاردينال رئيس الأرمادا مرحِّبًا وأخبره أن الرئيس في انتظاره ليهنئه بنفسه وأن هناك زائرًا رفيع المستوى مهتمًّا بمقابلته بنفسه وتهنئته، فبسبب (فرَّاج) أوقع الإسبان خسارة فادحة للقراصنة لأول مرة وبالتالي سيعملون ألف حساب قبل مهاجمة سواحل المملكة مرة أخرى. ولما سأل (فرَّاج) عن هذا الزائر قال له مرافقه إنه الدون (خوان النمساوي) الأخ غير الشقيق للملك. ابتسم (فرَّاج) ملء شفتيه وقد ملأ رئتيه بغنج النشوة والنصر وعادت إلى عينه الواحدة نظرة الثقة والطموح غير المحدود وهو يرى خطته تسير كما يريد وأن خطواته الوثابة تقوده فعلًا وحتمًا حيث يريد مهما كان الثمن ومهما كان الضحايا ثم مدَّ الخطى إلى الدون قبل أن يتمتم بشفتيه:
نعم.. مهما كانوا الضحايا.
سأله الرجل ماذا يعني؟ فأخبره لا شيء وهو يرمي بنظره إلى مجموعة من الموريسكيين الفارين المقبوض عليهم من معركة الليلة الماضية وهم جالسون على أرض المرفأ الخشبية مسلسلين بالحديد في أعناقهم وبينهم (الغريب) جالسًا مستسلمًا لا أمل فيه.

الفصل الثالث: الحب والبارود

لا، لا تقولي إنها تلك النهايةُ؛ فالنهايات كثيرة
ونهايتي أسلمتُها طوعًا لكِ في ظل نظرتك الكسيرة
في رقصةٍ تحت الصليب تُدنْدني كمدًا كمئذنةٍ أسيرة
فتمهَّلي ولترقصي لِي سمرةً في مرةٍ أخرى أخيرة..
في شاطئ الترحيل؛ حيث يُجرِّفون الذكريات المستجيرة
واستسلمي فلقد تعبت من التوجس هاربًا نبضًا وزفرًا
وأموت بُعدًا لا يُهم.. سأموت حُرًّا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١) أين الله
(١)

(ألمادن) صيف ١٥٦٩م
استيقظ (الغريب) مفزوعًا على صوت الانفجارات تهز مجمَّع المناجم في قرية (ألمادن) واستيقظ كل من كان بعنبر المبيت من رجال ونساء مفزوعين مع بعض صرخات أنثوية وتساؤلات ذكورية. حاول بعض الرجال التطلع من خلال قضبان النافذة ليستعلم عن مصدر هذه الانفجارات لكن كثافة الانفجارات كانت شديدة دفعته إلى الأرض حتى إنها رجت الجدران الخشبية العتيقة للمبيت فصاح أحد الرجال:
ألم أقل لكم إن الثوار الموريسكيين سيصلون هنا يومًا من الأيام.. أقسم بالرب إنهم هم.
أخذ (الغريب) يفكر، هل من الممكن أن تمتد أيدي ثوار البشرات من الجنوب حتى تصل إلى هذا الحد؟ هل انتهت أيام بؤسه وعيشه في جحور الديدان هذه إلى الأبد؟ وبينما تستمر الانفجارات وصوت طلقات البارود أخذ عقله يسترجع أحداث العامين الماضيين بكل ما فيهما من آلام وبؤس.
رأى موت حبيبته (حمدة) بعينيه غرقًا أثناء محاولتهما الهروب بحرًا عبر القراصنة الترك. ماتت غرقًا عندما فشل في الوصول إليها في الوقت المناسب بل فشل حتى أن يستسلم للموت فقبض حراس السواحل عليه وأنقذوه من الموت غرقًا ليدفعوا به إلى الموت في جحور الديدان. عندما تسلمته الشرطة في صباح اليوم التالي للغارة وهو منهار القوى مدمَّر المشاعر ألقوا به في غرفة سجن بها حوالي تسعة رجال ما بين موريسكي ويهودي. كان ينتظر أن يقضي بقية عمره في هذا المكان أو ربما يُعدمونه بالبنادق أو ربما مصيره للديوان المقدس. لم يكن يهمه شيء عن مصيره المهلك أيًّا كان فقد فقدَ الشيء الوحيد الذي كان يعيش من أجله ولأجله.
لكن ما حدث كان مخالفًا لتوقعاته تمامًا. بينما كان يجلس القرفصاء ينعي نفسه رأى عبر القضبان رجلًا أشقر غريب المظهر يبدو من أهل الشمال وهو يتحدث مع قائد الشرطة يتجادلان ويتفاوضان في أمرٍ ما بمنتهى الجدية قبل أن يتناهى إلى مسامعه بعض الكلمات مثل.. "القانون لم يشرَّع بعد.. أعرِّضُ نفسي للمساءلة.. تعويض مناسب.. لا أحد يريد العمل في المنجم.. هذا العدد زائد عن العدد المسموح للفورسادوس».. ثم ناول الرجل القائد صرة مليئة بالمرافيدس أخذها القائد بسرعة وأخفاها في مكتبه الخشبي وهو يتلفت يمينًا ويسارًا. اقترب الرجلان من غرفة السجن وهمَّ القائد بفتح الباب الحديدي ومن خلفه الرجل الشمالي الأشقر وفي عينيه زَبد الطمع. صاح القائد للمساجين العشرة أنهم قد كُتِبَ لهم عمر جديد؛ حيث لن يعدموهم أو يرسلوهم إلى الديوان المقدس ولكن سيذهبون للعمل في مناجم (ألمادن) بالوسط الجنوبي. همس أحد المساجين في أذن (الغريب) ليتهم يقتلوننا بدلًا من ذلك!
قام رجال الشرطة بتقييد عشرة الرجال واصطحبوهم إلى عربة خشبية تجرها الجياد وأوصدوا بابها خلفهم ثم سار سائق العربة خلف الرجل الأشقر الذي سلَّم بيديه على قائد الشرطة ممتنًّا قبل أن يرحل الفوج في اتجاه الجنوب الغربي تجاه (ألمادن). لم يهتم (الغريب) كثيرًا ماذا ستكون طريقة نهايته. لقد استسلم للموت غرقًا فأبى الموت أن يتلقفه مرة وأكيد سيرحب به المرة القادمة أيًّا كانت النهاية وطريقتها. المهم أن يقابل (حمدة) في الحياة السرمدية؛ حيث لا هروب ولا ظلم ولا قهر ولا شر.
همس نفس الرجل في أذن (الغريب):

ليتهم يقتلونا بدلًا من ذهابنا إلى جحور الديدان (ألمادن).
وما بها (ألمادن) هذه؟
الموت البطيء. سيهلكوننا في جحور تحت الأرض ننقب الصخور بحثًا عن الزرقونا التي يستخلصون منها الزئبق الذي يستخدمونه في تنقية الذهب والفضة القادمة من العالم الجديد. توقف العمال الإسبان عن العمل في هذه المناجم منذ سنوات طويلة بعد أن تساقطوا مرضى مُسمَّمين فقرروا أن يستخدموا المذنبين المدانين والمحكوم عليهم بالموت.
لا يهم. طريقة جديدة للموت من عشرات الطرق التي تنتظرنا في كل حدب وصوب.
تعجب الرجل من كلام (الغريب) اليائس فابتعد عنه طوال الرحلة. كانت رحلة طويلة مهلكة من بلنسية إلى (ألمادن) أخذت أربعة أيام مع التوقف للراحة والتزود بالغذاء حتى وصلوا إلى مشارف القرية الجبلية. كان الجو كئيبًا متربًا حارًّا خانقًا عندما وصلوا. جاء بعض الحراس وأمسكوا بهم من السلاسل الحديدية ثم أدخلوهم غرفة كبيرة وأمروهم بخلع ملابسهم ثم رشوهم بالماء البارد ومسحوق أبيض ثم أعطوهم ملابس كتانية متواضعة وذهبوا بهم إلى عنابر مبيت العاملين. عندما دخل (الغريب) عنابر المبيت الخشبية وجد عددًا كبيرًا من الذكور والإناث ذوي أجساد نحيلة هزيلة ووجوه باهتة وشعور متساقطة وعيون حمراء ملتهبة الجفون ينامون على خرق من الكتان ملقاة على الأرض ووسائد من أكياس التبن.
وبين الحين والآخر يُسمع أنَّات ضعيفة وآهات مكتومة أو سعال خشن. أخذت العيون تراقب النزلاء الجدد في ترقب وحذر عندما ذهبوا إلى ركن بعيد خالٍ من النزلاء وحدد كل واحد منهم مكان نومه. لم يكد (الغريب) يجلس على مكان مخدعه حتى سمع صوت صراخ هستيري يأتي من الجانب الآخر من العنبر. اتجه معظم النزلاء في سرعة إلى مصدر الصوت واتجه (الغريب) معهم بحكم الفضول. كان رجلًا قوي البنية إلا أن الهزال قد نال منه وهو راقد على مخدعه يصرخ في هستيرية وجسده متشنج ورأسه تهتز في عنف وعيناه زائغتان وهو يقذف ببصاق أبيض على جانبي فمه في مشهد مقزز. حاول العاملون مساعدة الرجل لكنه لم يستمر كثيرًا على هذا الحال فقد همد جسده وجحظت عيناه فتركه الجميع مرددين (لقد انتهت فترة خدمته). عرف بعد ذلك أنه شيء اعتيادي يحدث مرة أو مرتين كل شهر؛ حيث يهلك العاملون خلال سنتين إلى أربع سنوات من خدمتهم في المناجم ثم تُرمى جثثهم من فوق المنحدر. منذ صباح اليوم التالي استهل (الغريب) عمله في المناجم فينزلون إلى الأعماق في منجم الزرقونا ثم يتشعبون في الكهوف الجبلية إلى أن يصل كل واحد منهم إلى مكان ما توقَّف فيه في اليوم السابق ويستمر في نقب الصخور البركانية حتى يجد قطعًا حمراء ملتصقة بالصخور المنقبة فيضعها في دلو خشبي بينما يأتي عمال آخرون فيجمعوا دِلاءَ الزرقونا ويأتي آخرون يجمعون الصخور الأخرى ليخرجوها خارج المنجم. يظل العاملون في أقبية الكهوف بعيدًا عن الشمس والهواء حتى يأتي المساء فيخرجون إلى المبيت تحت أعين الحراس فيقتاتون بقليل يُرمى إليهم ويُريحون أجسادهم استعدادًا ليوم جديد.
شعر (الغريب) أنه محطُّ أنظار العديد من الإناث على مختلف أعمارهم، بل حاولت إحداهن الاحتكاك بجسده لكنه نفر عنها. ثم تكرر الموقف أكثر من مرة حتى كانت ليلة ما والجميع يغط في نوم عميق أحس (الغريب) بيد تتحسس جسده فانتفض جالسًا في مكانه ووجد امرأة ثلاثينية تجلس بجواره وهي تستعد لخلع ملابسها وتقول في روتينية:
هيا ضاجعني بسرعة..

انتفض (الغريب) من جوار المرأة ونهرها لكن كان اندهاش المرأة مبالغًا فيه كما لو أن (الغريب) قد أتى بشيء مستهجن غير متوقع، فتركته وقامت حائرة مغمغمة. وبينما (الغريب) يستعد للعودة إلى نومه مستهجنًا سمع ضحكة ضعيفة من صوت ذكوري قائلًا في تهكم:
لحم طازج!
لم يفهم ما يقصده الرجل لكنه قرر تجاهله. بعد يومين تكرر الأمر مع سيدة أخرى صاح فيها (الغريب) بالابتعاد عنه أيضًا ثم ضحكة الرجل و (لحم طازج!). وعندما تكرر الأمر مرة ثالثة شعر (الغريب) أنه صار كقطرة عسل مكشوفة يتجمع عليها الذباب ولن يتوقف حتى يلعقوها فذهب إلى صاحب "اللحم الطازج" وقال غاضبًا مستفسرًا:
أنت يا رجل.. ماذا تقصد بلحم طازج؟ ولماذا تلك النساء يتبعنني؟
اعتدل الرجل الذي يبدو من هيئته أنه قد اقترب من نهاية فترة خدمته وقال في ضعف:
أحقًا لا تعلم؟
أعلم ماذا؟
ابتسم الرجل بصعوبة قبل أن يسعل بخشونة ويمسح عينه الرطبة الملتهبة الحمراء قبل أن يقول:
أنت لحم طازج لم تتعفن بعد في جحور الديدان هذي. ولهذا ترغبك النسوة هنا؟
ولماذا أنا وهناك عشرات الذكور غيري؟
أنت لم تفهم بعد يا فتى. أي شخص هنا يفقد الإحساس ويصاب بالعجز بعد أن يمكث هنا عام أو يزيد فيصبح غير قادر على المضاجعة أو تخصيب أنثى. لأنك جديد هنا لا تزال تحتفظ بفحولتك وهذه عملة نادرة في (ألمادن) يا ولدي.
أحس (الغريب) بغصة في صدره عندما سمع الرجل. صحيح أنه يئس الحياة وزهد في ملذاتها وينتظر يوم رحيله بفارغ الصبر، إلا أنه لم يكن يبتغي أن يموت كإنسان ببطء فتذهب عنه المشاعر والأحاسيس وقلبه لا يزال ينبض بالحياة. ابتلع (الغريب) لعابه وقال:
ولكني وهبت نفسي لأخرى، وسأضحي بأي شيء من أجلها.
ضحك الرجل ضحكة قصيرة وقال:
لم تفهم الأمر كله بعد يا فتى. عندما تأتيك امرأة هنا فهي ليست بحاجة لمتعة قصيرة فهي على الأغلب قد فقدت الشعور بجسدها، منهن من تريد أن تلحق بركب الأمومة قبل أن يفقدن خصوبتهن، ومنهن من تريد النجاة بنفسها.
النجاة بنفسها؟! ماذا تعني؟
لعلك لاحظت أقسام المنجم المختلفة هنا. أنت تعمل في نقب الصخور في جحور الديدان، وهناك من يجمع الصخور الملتصق بها الزرقونا ثم مرحلة العزل؛ حيث يتم فرز الصخور وعزل الزرقونا عن الصخور وأخيرًا مرحلة التقطير؛ حيث يقطرون الزئبق من الزرقونا المفرزة. المقطرون هم الأسوأ حظًا في هؤلاء؛ حيث يموتون في أقل من عام نتيجة أبخرة الزئبق السامة، والأفضل حظًا العازلون؛ حيث يتعرضون لسم الزرقونا بأقل وقت وفي مكان مفتوح، والمنقبون بين هؤلاء وهؤلاء.
وما معنى ذلك بالنسبة لتلك النسوة؟
قانون المنجم هنا يقول إن المرأة الحامل كالمصابين إصابات بالغة ينتقلون بالتبعية للعمل في العزل وأنت تعلم الآن ما يعنيه هذا.

فهم (الغريب) ما يعنيه الأمر. عندما تأتيه امرأة راغبة في مشاركته الفراش لا يكون هذا لهوى في نفسها أو شوق في قلبها أو حتى شبق في أحشائها، ولكن تأتيه طلبًا في نطفته ليس إلا. هو بالنسبة إليها واهب لحياة أخرى قصيرة. تذكرة لراحة مؤقته وبضع سنين ترى فيها الشمس بدلًا من جحور الديدان. اللعنة على هذه الحياة التي تحولنا إلى بهائم ودواب.
فلماذا لا تتزوجون؟
ولماذا نتزوج؟ الرجل الناضج هنا سينضب نبعه بعد شهور أو عامين على الأكثر وستبحث الإناث عن غيره للتخصيب، بل يضاجعن أكثر من ذكر من أجل هذا.
أحس (الغريب) بالغثيان. إن الرجل لا يتكلم عن بشر بل يحدثه عن حيوانات أو حشرات تتكاثر لغرض التناسل دون ألفة أو حب أو شرف.
تزوجوا من أجل الشرف.. من أجل الألفة.. من أجل الله..
ضحك بسخرية وأرقد جسده ثم لف به الناحية الأخرى وقال:
أنظر حولك.. هل ترى الله؟!
بُهت (الغريب) وتجمدت ملامح وجهه مصدومًا. رغمًا عن قناعته استسلم (الغريب) بعد أيام وحظي بأول مضاجعة في حياته.. مع امرأة مجهولة.. كلحم طازج!
استمرت حياة الديدان هذه شهورًا طويلة تخللها حدوث حادث في المنجم الذي يعمل به عندما انهار عليه الجيب الذي ينقّب فيه ودُفن حيًّا هو وبعض المنقبين الآخرين. ظن أخيرًا أنها النهاية ولم يحاول حتى أن ينجو بنفسه، لكن استطاع المنقبون الآخرون إنقاذه من تحت الأنقاض حيًّا بالرغم من جراحه الدامية في رأسه وجبهته التي تركت فيها ندوبًا واضحة. هو الوحيد الذي خرج حيًّا من هذا الانهيار ثم انتقل بعد هذه الحادثة للعمل في الفرز نظرًا لجراحه.
بعد عامين من العمل في المناجم تسلل إليهم أنباء ثورة للموريسكيين في جبال البشرات وأن الثوار يقفون في نِدِّيَّة أمام مدافع الإسبان وقواتهم القاهرة وأن هناك أملًا يبرق في الأفق أن يستعيدوا السيادة على بعض قرى البشرات. لم يهتم (الغريب) كثيرًا بهذا الأمر. لا يهتم لأي أمل يظهر مهما كان قويًّا. لقد صار مرتبطًا بهذه الحياة في (ألمادن) وأصبح الروتين اليومي بها يجري في حياته كمجرى الدم. وأخذ يتحول شيئًا فشيئًا إلى جثة تتحرك كالثور المربوط في الساقية دون هدف في الصباح، ولحم طازج في المساء.
انفتح باب العنبر ودخل منه رجل ملثم مسلح صائحًا:
هيا أيها المساكين.. لقد حرركم الثوار.

(٢)

رغم نشوته بالانتصارات، رغم ازدحام يومه وليله بالجهاد والمعارك الدائمة والغارات الليلية على قرى الإسبان، إلا أنه لا يفتأ يتذكر حبيبته (ماديلينا). مرت ثلاث سنوات دون أن يعرف عنها شيئًا أو يأتيه شيء من أخبارها. فقط تأتيه فتهون عليه حين يغفو بعض الوقت تحت حراسة بعض من رجال فرقته. ثلاث سنوات غيرت فيه أشياء كثيرة دون أن تستطيع أن تغير من حبه لـ(ماديلينا) وشوقه إليها بل على العكس كان يسرع من وتيرة الانتصارات ما أمكنه ذلك ليقرِّب المسافات بينهما وكأن كل انتصار له على الإسبان خطوة منه تجاه (ماديلينا). ثلاث سنوات تحوَّل فيها من (أوريليانو) الموريسكي الهارب المطارد المتخفِّي إلى الفارس (عُمير المختون) وقد استعاد اسمه الأندلسي

الأصلي. (عُمير) أحد فرسان الأمير (ابن عبو) أمير المسلمين بالبشرات، (عُمير) المغوار الذي لا يُشق له غبار وأحد أهم قواد الصف الثاني العسكريين الميدانيين من الثوار المسلمين. (عُمير) صاحب الغارات الجريئة المفاجأة شرقًا وغربًا شمالًا وجنوبًا في كل ربوع الجنوب والوسط الأندلسي. ثلاث سنوات حدث فيها الكثير..

بعدما استقر به الأمر أخيرًا هو وأخواله في قرية وادي لكرين الخضراء واستتبَّ لهم الأمر، ساعد هذا الأمر (عُمير) أن يكثِّف من تدريباته، ومع ازدياد حماسه ومع روحه المتقدة وعزيمته الماضية انتقل إلى صفوف المدرِّبين مع ازدياد أعداد النازحين إلى البشرات من الرجال والشباب والعائلات المضطهدة. أعجب به السيد (فرج بن فرج) ووضعه في مكانة عالية بين شباب الفرسان. أتقن (عُمير) الرمي بالبنادق وركوب الجياد واستخدام السيوف وكان أول من استخدم المدافع القليلة المهرَّبة من الأتراك وتعلم عليها، ثم تتلمذ على أيدي بعض المجاهدين الأتراك في فنون واستراتيجيات المعارك وغارات حروب العصابات. كانت البشرات ومجموعة السيد (فرج بن فرج) بالنسبة إليه البيئة المثالية التي كان دائمًا يتمناها أن تحتضنه وأرضًا خصبة لنمو مهاراته وتوجهاته وأهدافه منذ كان في (أوليبا) فنبغ فيها أي نبوغ. كل هذا دون أن ينسى (ماديلينا).

ومع ازدياد القهر والظلم على الموريسكيين في غرناطة إلى معدلات غير مسبوقة انبعثت أخيرًا الشرارة الأولى للثورة وكان (عُمير) أحد من أشعل فتيلها في أواخر ديسمبر ١٥٦٨م عندما كان في أحد الاجتماعات المجمعة لسكان إحدى القرى الحدودية لمدينة غرناطة بدعوة السيد (فرج)؛ حيث كانوا يدأبون بإيغال الصدور وإشعال النفوس تجاه الإسبان وسياسات الملك فيليب الثاني الظالمة حتى يضمنوا استمرار حالة الاستفار لدى الجماهير الموريسكية الغفيرة. هذه الليلة استغلوا حالة من الغضب الجماعي والحنق غير المسبوق حين خرجت الأمور عن السيطرة في وجود العديد من الشباب المتحمسين فاستغلها السيد (فرج) ومعه (عُمير) وآخرون من قادة وفرسان الثورة وقادوهم في اتجاه غرناطة والثورة تشتعل في صدورهم. لم يصدق (عُمير) نفسه عندما دخلوا أول قرية صغيرة في طريقهم وكان في نفس الوقت يمر في طرقها فوج من القضاة والحراس الإسبان فقامت حشود الموريسكيين الغاضبين الثائرين بقتلهم بوحشية والتمثيل بجثثهم. وجد (عُمير) نفسه ينساق في أمواج الدموية التي لم يشاهدها أو ينخرط بها من قبل. لقد شعر أن دماء الإسبان المهدرة تروي عطشه وتهبه مزيدًا من القوة والثقة فانطلق يسفك الدماء بشراهة لا مثيل لها وهو يصيح (وأنتم الأعلون!) فيلهب الصدور ويسفك الدماء بغزارة، ثم انطلقوا جميعًا يروِّعون القرية في ليلة عيد الميلاد ويقتلون الإسبان المتفاجئين ثم انطلقوا إلى الكنيسة وقتلوا قساوستها وكسروا تماثيلها قبل أن يضرموا فيها النيران و(عُمير) يصيح بكل قوة وإيمان (وأنتم الأعلون!)،

وعندما شعروا أن القرية قد خُرِّبت عن آخرها ولم يبق بها من الدماء ما يروي ظمأهم، صاح (عُمير) فيهم أن يتوجهوا جميعًا إلى غرناطة ليحرروها معتمدين على انضمام الآلاف من أهل غرناطة وحي البَيَّازين. كان السيد (فرج) يعلم أن هذا الأمر من الصعب حدوثه فغرناطة كمدينة كبرى بها ما يكفي من الجنود المدافعين لصد هجومهم كما أن أهل غرناطة وخصوصًا من البَيَّازين لن يتقبلوا الاشتراك في أي تمرد بهذه السهولة وثورتهم الأولى وما تلاها من أحداث مأساوية ليست ببعيد عنهم لكنه أراد أن يتماشى مع (عُمير) لعل حماسه الزائد يتَّحد مع عنصر المفاجأة وتحدث المعجزة، وعندما اقترب الحشد الغاضب من حدود غرناطة اشتبكت معهم فرقة مسلحة من بعض الجنود الإسبان المدافعين

عن حدودها الجنوبية واستطاعوا أن يسقطوا بعض القتلى والجرحى فصاح السيد (فرج) في حشد الثوار بالتراجع إلى جبال البشرات والالتجاء إلى وادي لكرين.
تراجعوا عبر الدروب الجبلية الوعرة والممرات الضيقة وخلال رحلة العودة انضم إليهم العديد من الرجال والشباب بعدما سمعوا عما جرى من معارك حتى وصلوا إلى وادي لكرين وقد تخطوا ألفَيْ الرجل تجمهروا جميعًا وفي أيديهم المشاعل والأسلحة البيضاء وبعض البنادق التي اغتنموها من الجنود الإسبان. دعا (فرج) الحشود إلى ساحة بيته ووقف يخطب فيهم أن شرارة الثورة قد اندلعت والنيران قد أضرمت ولا سبيل للتراجع عن الثورة ضد عسف الإسبان وظلم الملك فيليب الثاني الذي خالف كل الوعود والعهود، وأن السبيل الوحيد أمامهم الآن هو التمرد المسلح والهجوم على القرى الإسبانية في الجنوب وتطهيرها من الإسبان، والإعلان عن خلعهم الولاء للملك فيليب الثاني وتنكرهم للديانة المسيحية الكاثوليكية الصورية وعودتهم علنًا للدين الإسلامي الحنيف دين الآباء والأجداد. كانت الروح السائدة للثورة والمستعرة في صدور الجميع تدفع بالحشد دفعًا لرفع سقف آمالهم وأحلامهم وطلباتهم إلى مستوى غير مسبوق حتى دفعت بالأذهان أن تحلم باستعادة أمجاد الماضي.
صاح أحدهم وتبعه العديد يتساءلون عن أمير الثوار. كان (فرج بن فرج) ومعه (عُمير) يعتقدان أن الأمر محسومًا له لكن كبار وشيوخ الثوار نادوا أن يتولى الإمارة واحد من أحفاد الأمويين القليلين المتواجدين لإعطاء قدسية وشرعية وزخم للثورة، صاح معظم الحشد بالموافقة ورشحوا (فرناندو دي بالور) شاب من أعيان قرية بالور وعضو بلدية غرناطة الذي يرجع نسبه للأمويين.
لم يمض وقت طويل حتى أتى (فرناندو) ووافق على إمارة المسلمين وعين قريبه (هرناندو الصغير) نائبًا له وتَسمَّى (محمد ابن أمية) وبالفعل قام الجميع بمبايعة (محمد ابن أمية) في مشهد مؤثر عندما أذن المؤذن للصلاة فأمَّهم (محمد ابن أمية) وصلوا على راية الإسلام ثم خطب فيهم ثم استقبل مبايعاتهم. بالرغم من أن (عُمير) لم يجد أي فضل لـ(ابن أمية) لقيادة الثورة وإمارة المسلمين في ظل وجود العديد من وجهاء الثوار وشيوخهم كـ(فرج بن فرج) و(هيرناندو الحبقي) و(ابن عبو) و(المليح) وغيرهم من وجوه الثورة القديمة ومؤسسيها إلا أنه انساق مع قدسية الموقف ومبايعة أمير الثورة والولادة الرسمية للدولة الإسلامية بالأندلس التي حلم بها منذ الصغر وبعثها من جديد بعد عشرات السنين من إعلان وفاتها حتى تحركت مشاعره وبكى وسط آلاف من الثوار المتأثرين. ولم تكد تهل السنة الجديدة عليهم حتى ارتفعت الآمال عاليًا عندما أتتهم أنباء عن دعم تركي كبير قادم عبر البحر من الجزائر بأمر أميرها (أولوج عليّ) مباركة للثورة ودعمًا لها. لكن للأسف الشديد فُقِد معظم هذا الدعم في البحر نتيجة سوء التنسيق مع الثوار وعواصف البحر ولم يتبقَّ منه إلا ست سفن فقط رست في سرّية على أحد شواطئ ألمرية وأفرغت حمولتها مما تبقى من بنادق ومدافع وبارود ورجال.
لم يُضِع الثوار المزيد من الوقت وهم يعلمون أن الوقت ليس في صالحهم وعليهم استغلال عنصر المفاجأة قبل أن يسترد الإسبان بأسهم ويجيِّشوا جيوشهم وبدؤوا بالفعل بالإغارة على القرى الإسبانية القريبة من جبال البشرات ليتمدد التمرد وينتشر يومًا بعد يوم. خلال ذلك أظهر (عُمير) دموية شديدة وحبًّا لسفك دماء الإسبان مهما كان جنسهم أو سنهم. كان يشعر بالعطش لدماء الإسبان الذين قتلوا أباه ثم أحرقوا جسده وأذلّوه واتهموه وطاردوه ويمنعونه عن حبيبته. حتى الأطفال الإسبان لم يرحمهم (عُمير) كما لم يرحمه الإسبان وهو صغير. انتشر التمرد انتشار النار في الهشيم وبدأت القرى واحدة تلو الأخرى تعلن التمرد وظن الثوار أن الأمور تستتب لهم حتى كانت هزيمتهم الأولى أمام جيش

الشيطان ذي القرون الحديدية الماركيز (دي موندیخار) وجيش الماركيز (بيليث) التي كادت أن توقع بـ(ابن أمية) و(الصغير) في الأسر لكنهما نجيا بأعجوبة.
لم يحضر (عُمير) هذه الهزيمة فقد كوَّن فرقة من الشباب والفرسان الجريئين المغاوير تحت إمرة القائد (ابن عبو) أقرب القواد إليه وأكثرهم شكيمة وحزم وصار يقوم بغارات جريئة سريعة بعيدة المدى الهدف منها توسيع رقعة التمرد وتقديم الدعم للقرى البعيدة عن مركز الثورة. في ذلك الوقت عبر (عُمير) وفرقته القرى إلى أقصى الجنوب في غرب ألمرية حتى يؤمِّنوا قرية إينوكس الساحلية فيؤمنون بذلك مدخل الدعم البحري من الأتراك والمغاربة. كانت مهمة انتحارية نظرًا لقرب القرية من مدينة ألمرية العظيمة. وهناك تعرف على الريس التركي (الكوسالي) وأعجب به وشاهد قوته وشكيمته وإخلاصه للدين والجهاد في سبيل الله وكان يدافع عن إينوكس دفاعًا مستميتًا بطوليًّا أكثر من أي موريسكي وكأنها أرضه ووطنه ومكان ميلاده. قاد (الكوسالي) الدفاع المستميت عن إينوكس وساعده (عُمير) وفرقته لكنَّ المحاصرين الإسبان كانوا أكثر عددًا وعتادًا. عندما أيقن الريس (الكوسالي) النهاية ضحى بنفسه وبرجاله وأمر (عُمير) ورجاله بالنجاة بأنفسهم ومساعدة النساء والأطفال والعجائز ما استطاعوا. لكن الوضع كان صعبًا فلم يستطع (عُمير) وفرقته تقديم العون للنساء والأطفال والعجائز وشاهد وهو يهرب بعينيه مشاهد إعدام المجاهدين الأتراك ومنهم (الكوسالي) والمدافعين الموريسكيين عن إينوكس ومئات النساء وهن يُسَقن للسَّبْي. منذ ذلك الوقت ازداد حَنَق (عُمير) على الإسبان وحبه للانتقام منهم والارتواء بدمائهم أكثر وأكثر، وازداد مع ذلك ثقته واحترامه وأخوَّته للمجاهدين الأتراك.
رجع بعدها (عُمير) إلى قائده (ابن عبو) وجمَّعوا قواهم من جديد وعادت الانتصارات على الإسبان في بيرخا وسيرون وغليرة التي أصبحت مركزًا مهمًّا للثورة. على الجانب الآخر استطاع الماركيز (موندیخار) الاستيلاء على قرى وقلاع غواخار ودوركال وتابلاتي وبوكايرة وأوهانيث وفيرخيليانا ومارس فيها أشد وسائل التنكيل والقتل والتمثيل بالموريسكيين العزل والنساء.
كان واضحًا أن الأمر بين المعسكرين سجال. فالإسبان متفوقون في المعارك النظامية بينما المسلمون المتمردون يتفوقون في حروب العصابات مع معرفتهم بدروب البشرات الوعرة. لكن كان واضحًا أن الجيش الإسباني بقيادة (موندیخار) غير قادر على حسم الأمور ودب الخلاف بينه وبين الماركيز (بيليث) فساعد هذا الخلاف على تخفيف الضغط على المسلمين فحدث شيء من الاستقرار النسبي للثوار في بعض القرى كـ(غليرة) و(سيرون) وغيرها.
وزادت أعداد الثوار زيادة كبيرة فبعد أن كانوا أربعة آلاف في شتاء ١٥٦٩م تخطى عددهم العشرين ألفًا منتشرين في ربوع الجنوب الأندلسي في خريف نفس العام أكثر من ربع هذا العدد كان من المجاهدين الأتراك والجزائريين والمغاربة الذين أخذوا يتوافدون من كل صوب وخصوصًا المجاهدين الأتراك الذين توافدوا مع دعم جديد من الأمير (أولوج عليّ) في سبتمبر ١٥٦٩م وقدوم قواد أتراك رفيعي الشأن. لكن مع هذا الاستقرار النسبي تسلل الخلاف إلى المعسكر الإسلامي وكان (عُمير) شاهدًا عليه عندما تسربت أنباء عن اتفاق سري بين الأمير (ابن أمية) وبين الدون (خوان النمساوي) أخي الملك فيليب الثاني الذي وصل غرناطة في ربيع نفس السنة لقيادة الجيش الإسباني المحارب للثورة. تم تسريب رسالة من (ابن أمية) للدون (خوان) يتفق فيها معه على التخلص من المجاهدين الأتراك وبعض قواده مقابل إخلاء سبيل أخيه ووالده القابعين في سجون غرناطة. كان (ابن عبو) أحد هؤلاء القواد المتفق عليهم فاستشاط غضبًا وأمر (عُمير) بتجميع كبار القادة الأتراك

وتم الاتفاق على التخلص من (ابن أمية) ومبايعة (ابن عبو) أميرًا للثوار وأكد القادة الأتراك على موافقة الأمير (أولوج عليّ) على ذلك واستعداده للدعم الكامل لـ(ابن عبو). كان (عُمير) مؤيدًا مطلقًا لـ(ابن عبو). كان يراه أحق بالزعامة من (ابن أمية) الذي لا يمتلك من المؤهلات إلا اسمه. وكانت قرارات (ابن أمية) مائعة غير حاسمة أو صارمة حتى إنه كان يلوم على (بن فرج) قسوته مع الإسبان في الوقت الذي كان الإسبان يرمون بمئات المسالمين المسلمين من فوق المنحدرات. فشارك (عُمير) مع حلفاء (ابن عبو) الأتراك في المضي قدمًا إلى لوشر؛ حيث قبضوا على (ابن أمية) وحاكموه ثم سجنوه قبل أن يقتل خنقًا في سجنه. شعر (عُمير) بسعادة كبيرة عندما تولى (ابن عبو) إمارة المسلمين مدعومًا بالحلفاء الأتراك وترقى (عُمير) بالتبعية كأحد المساعدين العسكريين لـ(ابن عبو). وكان أول أمر له الإغارة على قرية (ألمادن) بمناجمها لتحرير المسلمين المستعبدين هناك ولحرمان الإسبان من مدد الذهب القادم من العالم الجديد.

هلموا يا إخواني فالقائد (عُمير) في انتظارنا للتحرك سويًّا إلى البشرات.

قالها أحد الجنود المسلمين بعد أن أخرجوا العشرات من عمال المناجم من مبيتهم وهم يقتادونهم خارج معسكر المنجم بعد أن أجهزوا على حراس وجنود المنجم وأعدموا من بقي منهم على قيد الحياة. وحيث إن هذه القرية تقبع بعيدًا عن أيدي الثوار فلا يمكنهم الاحتفاظ بها نظرًا لبعد المدد، فقاموا بتخريب المناجم وحرق المعسكر ثم رحلوا في مجموعة واحدة تجاه الجنوب؛ حيث يعسكر (عُمير).

لم يستفز اسم (عُمير) ذهن (الغريب) بعد. كان يفكر فيما ستؤول إليه الأمور بعد هذه الأحداث. لقد أنقذ من الموت مرة أخرى في جحور الديدان وخرج منها بأقل الخسائر، فماذا ستكون موتته القادمة؟ (الغريب)؟!

نظر بصعوبة إلى الفارس الراكب الذي يكلمه من فوق جواده وعليه عدة عسكرية كاملة مدرعة ومسلحة. تعرف (عُمير) على (الغريب) من بين عشرات الناجين من المناجم بالرغم من هزاله وندبات وجهه واختلاف شكله عما رآه عليه منذ سنوات. بينما احتاج (الغريب) بعض الوقت حتى يتعرف على ملامح هذا الفارس الضخم وإذا به يتذكر وجهه بصعوبة بعد أن ضعف بصره كما أن بنية جسد (عُمير) قد تضخمت عما كان عليه في الماضي. نزل (عُمير) من على جواده واحتضن (الغريب) بشوق كبير وبهجة للقائه بينما احتضنه (الغريب) بحماس أقل. ونظرًا لضيق الوقت وخطورة المكوث في هذا المكان ليلًا أحضِر جواد لـ(الغريب) وأخذا يتحادثان بينما هما يتحركان على جواديهما في الوقت الذي يتحرك فيه جنود للاستطلاع وجنود آخرون يجرون عربات خشبية تحمل من الموريسكيين المحررين من لا يستطيع الحركة أو المشي أو الركوب.

ألم أقل لك يا أخي أنك ستراني في المرة القادمة فارسًا أميرًا على قومي؟!.. كيف حالك يا أخي.. ما الذي أتى بك إلى مناجم (ألمادن) الرهيبة؟ وأين (حمدة)؟

قالها (عُمير) في حماس. نكَّس (الغريب) رأسه في أسى وصمت قليلًا يحاول أن يستجمع الكلمات ثم قال:

ماتت (حمدة) غرقًا في بلنسية ونحن نحاول الهروب بسفن القراصنة.. وأنا قُبض عليَّ وزُجَّ بي إلى العمل في المناجم من حينها.

شعر (عُمير) بغصة في حلقة من جراء هذه الأخبار المؤلمة. لم يدرِ ماذا يقول وهو يعلم ما تمثله (حمدة) لـ(الغريب) وأن فراقهما هو فراق الروح والجسد وربما هذا يفسر الحالة البائسة التي تبدو

على (الغريب) وتحوله من فتى مفعم بالأمل مقبل على الحياة إلى جثة هزيلة دون روح.
هـ.. هل تعلم شيئًا عن (ماديلينا) ابنة الدون (دييجو)؟
فهم (الغريب) سؤاله وتذكر ما أخبره (سعيد) سابقًا:
نالها المرض والتعب وأقعدها.. لكنها تنتظرك أن تفي بوعدك لها.
شد (عُمير) لجام الجواد بعصبية وتجهم وجهه فلاحظ (الغريب) ذلك فقال (عُمير) في غضب:
كل ليلة أقطع بفرقتي هذه مسافاتٍ طويلةً في كل ربوع الجنوب فنحرر ونُغِير ونهاجم وندافع.. كل ليلة لا أفتأ أتذكرها فأتمنى أن أتقدم بفرقتي كل المسافة من الجنوب إلى (أوليبا) وأحرق كل ما يقف في طريقي ويحول بيني وبينها حتى أصل إليها وأحملها على يديَّ هاتين. لكني أقف عاجزًا عن ذلك فأفرغ كل غضبي وحنَقي في كل إسباني أقتله وكل قرية إسبانية أحرقها فكل انتصار لنا يقربني منها ولو بخطوة.
تعجب (الغريب) مما يسمع من (عُمير) وكيف اختلفت شخصيته فأضفى الحب على نفسه بُعدًا جديدًا لم يألفه عنه.
وأين (صبح) الآن؟
تعمل في حانة في بلنسية.
لم يُرِد (الغريب) أن يوارب من الحقيقة شيئًا.
إذن فقد وجدت ضالتها التي تبحث عنها في العمل في حانات الإسبان.. تلك اللعينة.. أقسم أن أنالها بيدي هاتين عندما أطأ بلنسية برجالي.
قالها (عُمير) غاضبًا قبل أن يستطرد:
وأنت يا أخي ماذا تنوي في حياتك؟ هل تنضم إلينا؟
فكر (الغريب) بروحه اليائسة ونفسه المحطمة وقال:
لم يعد لي هدف في هذه الحياة يا (عُمير) بعد موت (حمدة). أيام أعيشها هنا أو هناك حتى يتلقفني الموت.
قاطعهما جواد أحد جنود (عُمير) قادمًا بسرعة ثم أخبر (عُمير) إن قرية بويرتولانو تقترب منهم وهي لا تحتوي أي فرق إسبانية ثقيلة. فكر (عُمير) ووجد أن هذه القرية هدف سهل يمكنهم اقتحامها وتحرير من فيها من موريسكيين فالقرية على الأرجح مرتبطة بحرفة المناجم أو صناعاتها نظرًا لقربها من (ألمادن). كما أن عنصر المفاجأة لا يزال في صالحهم فالإسبان لا يعلمون بما جرى في (ألمادن) بعد، فأمر (عُمير) فرقته بالاستعداد لاقتحام القرية وأمر (الغريب) بالبقاء في المؤخرة لكنه مع ذلك ظل يراقب الأحداث عن كثب.
كان اقتحامًا سهلًا لـ(عُمير) وفرقته على هذه القرية الصغيرة ذات البيوت المتواضعة القليلة العدد، حتى فرقة الجنود التي قابلوها كانت بضعة جنود يحملون بنادق فقط فكان من السهل قنصهم أو القبض عليهم وإعدامهم. ثم قاموا بحرق الكنيسة بها قبل أن يخرجوا أهل القرية إلى إحدى الساحات وكان واضحًا أن أغلبهم من الموريسكيين فأخبرهم (عُمير) أنهم قد حُرِّروا وعليهم الانضمام للثوار في البشرات؛ حيث الدولة الإسلامية فيخلعون النصرانية وولاءهم للملك فيليب الثاني ويرجعون للإسلام. لكن للعجب لم يتقدم أحد منهم وظلوا واقفين مترددين حتى تشجَّع رجل من شيوخهم وأخبر (عُمير) في تردد أنهم لا يرغبون في الانضمام إلى الثوار ولا يرغبون في التحول إلى الإسلام وأنهم سيبقون على مسيحيتهم. استشاط (عُمير) غضبًا وهو يحادث الرجل العجوز يحاول أن يفهم دوافعه

لكن الرجل كان يتحدث باسم أهل القرية القليلين وقال إنهم منذ عشرات السنين وهم مسيحيون منذ الولادة دون أن يعرفوا شيئًا عن الإسلام وقد وجدوا في المسيحية سلامهم وراحتهم واستقرارهم ولا يرغبون في الدخول في صراعات لا ذنب لهم فيها. استشاط (عُمير) حنقًا أكثر وأكثر وتطاير الشرر من عينيه فصاح بجنوده أن يقتلوا أهل القرية جميعًا. ظن (الغريب) أن هذا من قبيل التهديد والوعيد لكن بالفعل قام الجنود بقتل الجميع دون تردد بالبنادق والسيوف كبيرهم وصغيرهم رجالهم ونسائهم وأطفالهم وكانوا جميعًا عزلًا دون سلاح. وما كانت إلا دقائق قليلة حتى امتلأت الساحة بعشرات الجثث لأهل القرية ارتوت الأرض بدمائهم.

عرف (الغريب) أي وحش تحول إليه (عُمير) حتى يأمر بهذه الفعلة الشنعاء. كيف سوَّلت له نفسه أن يقتل أطفالًا دون العاشرة ونساء وعجائز؟ كيف بهذه السهولة يزهق نفوسًا كانت آمنة قبل أن يقدم عليها بخيله وقوته؟ وعندما اقترب (عُمير) من جواد (الغريب) رأى في عينيه لومًا وتساؤلًا قال في صرامة وهو يهرب بعينيه من مواجهته:

هذا عقاب المرتدين!

أكملت الفرقة الرجوع إلى الجنوب والهروب من جيوش وكمائن الإسبان والاختباء منهم في شعب ودروب جبلية. وخلال هذا الطريق لم يحاول (الغريب) أن يتكلم مع (عُمير) وقد رأى بأم عينيه ما صار عليه. مضت أيام استطاعوا فيها عبور أخطر المواقف وتسللوا عبر خطوط حيوية إلى جبال سيجورا ثم عبروها حتى وصلوا مشارف (غليرة) أحد أهم معاقل الثوار بالبشرات. خلال هذه الرحلة أظهر (عُمير) المزيد من دمويته وشراهته لدماء الإسبان وحبه لسفك دمائهم. وكان (الغريب) يرميه بنظرة لائمة من وقت لآخر فيردها (عُمير) بنظرة أخرى قاسية كأنما يقول: «لم أعد (عُمير) الذي تعرفه". وعند مشارف (غليرة) ظهرت من بعيد قلعة القصبة العالية فأحس الجنود بنشوة الرجوع سالمين بعد أن غنموا وأغاروا وأذاقوا الإسبان الأمرَّيْن خلال رحلتهم. اقترب (عُمير) من (الغريب) وقال في نشوة:

انظر يا أخي.. هذه (غليرة) معقل واحد فقط من عشرات معاقل الدولة الإسلامية في البشرات. هناك المزيد في الجنوب سنلتحم معًا ونكوِّن الدولة الإسلامية الكبرى.

توقف (الغريب) بجواده فجأة فرجع إليه (عُمير) يسأله مستغربًا:

ما بك يا أخي؟

لا أريد هذا العالم يا (عُمير). لا أنتمي إليه.

ماذا؟ بعد كل هذه الرحلة تقول هذا؟

لم أولد لمثل ذلك العالم مثلك يا (عُمير). لقد وجدت أنت ضالتك في هذه الأرض وغرزت جذورك فيها وستنمو هنا كما تريد. أما أنا فأبحث عن السكينة بعيدًا عن كل هذا الصخب وهذه الدماء. لا أستطيع أن أرى مزيدًا من دماء الأبرياء أيًّا كانوا.

فهم (عُمير) ما يعنيه (الغريب) بعد أن شاهد فظاعة الحروب والقتل وهو يعرفه روح نقية ساكنة قابلة للخضوع والعبودية في سبيل السكينة والهدوء والحب.

إذن أين تذهب والثورة تشتعل في كل مكان؟

سأذهب إلى أي مكان آمن هادئ بعيدًا عن كل هذه النيران المستعرة.

إن كان هذا قرارك يا أخي فاتجه إلى الغرب في اتجاه غرناطة هناك بعض القرى المحايدة بعيدة عن الصدامات مثل بازا أو (جواديكس) أو فينيانا قد تجد ضالتك هناك.

التف (الغريب) بجواده وبدأ بالمسير ببطء دون حتى أن يسلم على (عُمير) الذي أراد أن يسلم عليه لكنه اكتشف أنهما الآن لم يعد بينهما طريق مشترك واحد. إنه الاختيار الحاسم الآن وقد اختار (الغريب) طريقه بملء إرادته ولن يجبره (عُمير) أن يعيش حلمه معه. فالتفت (عُمير) إلى الناحية الأخرى تجاه (غليرة)!

(٣)

الجزائر صيف ١٥٦٩م

أخذت تداعب وليدها الرضيع وهو يتلقف ثديها للمرة الأولى في حياته وحياتها. ذلك الشعور الذي لا يوصف من السعادة والرضا للأم بعد عناء آلام المخاض ومن قبله شهور الحمل المرهقة خاصة مع أول حمل لها. فها هي الآن تحتضن وليدها الذكر بعد أن نظفته القابلة ثم انفجر ثديُها باللبن فتلقَّفه الصغير بفمه المنمنم وكأنه مدرب على هذا منذ كان في أحشائها. الآن فقط شعرت أن الحياة تبتسم لها للمرة الأولى في حياتها. وأن الله قد عوضها خيرًا عما فقدته فيها. لكن ما هي حياتها؟ وماذا فقدت؟ ومن فقدت؟

كانت (حمدة) تصارع الموت بعد أن أنقذها القراصنة الترك على قوادسهم من الغرق. كانت على شفا الموت عندما تفحصها الطبيب بأمر من الريس (محمدي) قائد الفوج. لكن بالرغم من حالتها المزرية وجرحها العميق النازف في رأسها وقع شيء ما منها في قلبه وهو يتفحصها. عرف من أحد الناجين أنها فقدت زوجها وطفلتها في البحر فازداد شفقة عليها وألمًا على حالها فأصدر قراره باصطحاب السيدة الموريسكية إلى قمرته في القادس لتعالج تحت إشرافه خلال رحلة العودة من بلنسية إلى طرابلس الغرب أحد مراكز الأسطول العثماني بأفريقية، فكان الطبيب ومساعدوه لا ينقطعون عن زيارتها وتطبيبها ورعايتها وإبقائها على قيد الحياة طوال رحلة العودة. وصلت القوادس وانضمت إلى عشرات القوادس الحربية الراسية ذات المدافع العظيمة والأشرعة الضخمة والمجاديف الكثيفة بأعلامها الخضراء ذات الهلال الذهبي.

أول ما فعله الريس (محمدٍي) بعد أن وطئت أقدامه اليابسة- على غير عادته- أن قام باصطحاب (حمدة) محمولة على المحفَّة إلى بيته وبدأ في عمل الترتيبات اللازمة لرعايتها وخصص لها طبيبًا وممرضات مقيمات لتطبيبها. كان أمرًا غريبًا يدعو إلى الدهشة، هذا الاهتمام المبالغ فيه من أحد قواد الأسطول العثماني بواحدة من عشرات الموريسكيات الهاربات الناجيات من جحيم الإسبان. لا يجد تفسيرًا لهذا الاهتمام أو ربما لم يجد سببًا للبحث عن تفسير.

ما الذي يمكن أن يشغل الريس (محمدي) عن تقديم تقريره لرئيسه؟

التفت (محمدي) فوجد الريس (أولوج عليّ) صديقه ورفيق عمره وقائده فقام وسلم عليه واحتضنا بعضهما البعض مبتسمين:

مبارك عليك بكلبرك الجزائر يا صديقي.. وعذرًا على فقدان ثلاث قوادس من أسطولنا.

تنهد (أولوج عليّ) وقال:

نعم.. رحم الله رجالنا.. سمعت أنه كان كمينًا محكمًا.. لكن الشهادة واقع وشرف في جهادنا يا صديقي منذ إسلامنا سويًّا على يد سيدي (عليّ أحمد) وانضمامنا للأسطول العثماني حتى تتلمذنا على يدي (طرغود ريس) رحمه الله.

رحمه الله.

لكنك لم ترد عليّ.. لِمَ لم تأتني كالعادة لندرس الموقف ونتائج الغارة الأخيرة؟
أشار بيديه إلى (حمدة) المستلقية على المخدع مغشيًّا عليها وهي مضمدة الجراح وبجوارها إحدى الممرضات تمسح وجهها وترتب فراشها.
أندلسية مسلمة مسكينة أنقذناها من الغرق بعد أن فقدت زوجها ورضيعها في البحر وهي كما ترى بين الحياة والموت.
عقد (أولوج عليّ) حاجبيه مستغربًا:
وما الجديد في الأمر يا صديقي. واحدة من عشرات الأندلسيات المسكينات اللاتي ننقذهن من براثن القهر الإسباني ولكل واحدة منهن مأساتها.
تنهد (محمدي) تنهيدة عميقة وهو يطيل النظر إلى (حمدة) في أسى:
أصدقك القول يا صديقي، أشعر أن ذلك الملاك النائم يحتاجني لنجدته، وربما أنا أحتاجه حتى أنقذ ما تبقى من إنسانيتي التي نسيتها في خضم المعارك والحروب.
ولكن إنسانيتنا في حروبنا للدفاع عن المظلومين ونصرة الحق يا (محمدي)!
نعم أنت على حق، لكننا قد ننسى أن لنا قلوبًا تهفو بين طلقات المدافع وتلاحم القوادس.
احذر يا صديقي هل نسيت أسطورة عرائس البحور.. يخرجن من البحر سائلين البحارة النجدة ثم يملكن قلبك قبل أن يلتهموك حيًّا.
ضحك الاثنان ضحكة قصيرة ثم تحولت لهجة (قلج) إلى الجدية وهو يقول:
استعد يا أخي ستنتقل للجزائر معي خلال شهر على أكثر تقدير بعد أن يصل يحيى باشا لاستلام ثغر طرابلس الغرب. لدينا الكثير لنفعله هناك في الجزائر. الجيوب الإسبانية في تونس.. والسعديون في المغرب علينا إزاحتهم إن لم يتعاونوا معنا، والأهم من ذلك أصدقاؤك الأندلسيون.
ظلت (حمدة) تحت الرعاية المركزة للريس (محمدي) شهورًا طويلة. استقرت حالتها الصحية بعد أن كانت على شفا الموت ولكنها ظلت فاقدة للوعي بضعة شهور والأطباء والممرضات يبقونها على قيد الحياة. أما الريس (محمدي) فقد كان يذهب في غاراته البحرية هنا أو هناك ويغيب عنها لبضعة أيام ثم يعود إليها يَطمئن على حالها. انتقل إلى ثغر الجزائر مع الريس (أولوج عليّ) وبدءا سويًّا رسم الخطة العامة للمرحلة المقبلة مع حصر الأدوات التي يمتلكونها وحاجاتهم العسكرية من بناء قوادس جديدة أو تجديد وإصلاحات للقوادس القديمة وتحصينات بحرية. كان (أولوج عليّ) متحمسًا جدًّا لموقعه الجديد وكان يستشعر أن المرحلة القادمة سيشتعل فيها الصراع البحري في البحر المتوسط شرقًا وغربًا بين القوى العظمى؛ العثمانيون من جهة والإسبان والإمارات الإيطالية من جهة أخرى وعليه أن يكون مستعدًا لتلك المواجهات الحاسمة القادمة.
لم يدخر الريس (محمدي) جهدًا في مساعدة الريس (أولوج عليّ) كساعده الأيمن لكنه في نفس الوقت كان منشغلًا بـ(حمدة) عروس البحر الأندلسية. كان عندما يعود من غاراته البحرية لا يستريح قبل أن يقضي جزءًا من ليلته بجوارها وهو يتأملها بعين الشفقة والعطف ويترقب أنفاسها الضعيفة صعودًا وهبوطًا. سعد جدًّا عندما خلعوا الضمادات عن رأسها الجميل بعد أن شُفي جرحها وكان مندهشًا من مظهر ندبة جرح جبهتها. فقد ترك الجرح في جبهتها ندبة مدهشة الشكل لهلال وردي واضح المعالم بدايته من حد شعرها الأسود ونهايته فوق حاجبها الأيمن. غالبًا ما تترك الندبات شكلًا مشينًا خاصة عندما تكون في الوجوه جاعلة إياها مشوهة أو غير منتظمة الشكل مما يترك في النفوس نفورًا. أما (حمدة) فكان الوضع مختلفًا تمامًا لقد صنع الهلال في موقعه على جانب جبهتها الأيمن مع جبهتها

العريضة الناصعة البياض وشعرها الناعم الأسود وحاجبها الدقيق المحدد لوحة عظيمة تندهش لها العيون.
والهلال الذي طُبع ورديًّا على جبينها الأبيض بدا وكأنه قد رُسم بدقة لشعار الدولة العثمانية مما ترك في نفسه قدسية وجلالة. كان يجلس وحيدًا يتأمل هذا الجمال النائم. وفي إحدى الليالي لم يتمالك نفسه واقترب من وجهها يستشعر أنفاسها الحارة على وجهه ثم امتدت يده كالمسحور ليتحسس ندبة جرحها الوردي من رأسها إلى حاجبها في رقة ونعومة لا تتوافق مع أصابع ريس عثماني صارم مثله. تفاجأ (محمدي) بـ(حمدة) تفتح عينيها ببطء عندما لمس (محمدي) جبهتها وكأنه قد أمدها للتو بطاقة الحياة عبر تلك اللمسة. لم يستطع (محمدي) أن يتمالك نفسه وقد كانت عيناه على مسافة أنملة من عينيها نصف المفتوحتين أخيرًا. لثوانٍ تجمد (محمدي) عند هذا الوضع وقد غاصت عيناه في عينيها المرهقتين. أفاق أخيرًا من دهشته وانطلق ينادي على الطبيب فأتى مسرعًا ومعه مساعدته ثم وقف يتأملهم بعين متمنية بعودة هذه الروح إلى الحياة مرة أخرى. لكن الطبيب أخذ وقتًا طويلًا في فحصها وظهر على وجهه علامات الخيبة. سأله (محمدي) فأجاب الطبيب أنها لم تستعد وعيها بعد فهي لا تستجيب إلى المؤثرات الخارجية ولا تشعر بما حولها لكن يبدو أن حالتها العقلية تتطور في الاتجاه الإيجابي على طريق التأهيل الكامل بعد أيام أو شهور وربما تستمر هذه الحالة معها إلى الأبد ويكون الضرر برأسها دائم. شعر (محمدي) بخيبة قوية عندما سمع ذلك. كان يمنِّي نفسه أن تستيقظ (حمدة) بعد شهور من غفوتها ورعايته لها. لكنه مع ذلك قرر ألا ييأس من أمرها بل كثف رعايتها بعد تلك الليلة وقرر في قرارة نفسه أن هذا التطور في حالتها تطور في الاتجاه الصحيح وأنه سيسعى بكل ما يقدر عليه لاستغلاله لمزيد من التقدم في حالتها حتى تعود إلى رشدها مرة أخرى.
لقد صار الأمر بالنسبة إلى (محمدي) تحديًا خاصًّا له كما علَّمه سيدُه (طرغود ريس) أن أصعب المواقف في المعركة البحرية هي تحدٍّ خاص للقبطان يمكنه بالذكاء والمثابرة والصبر والقيادة الفعالة أن يحولها إلى فرصة مثالية للانتصار. لقد صارت (حمدة) بالنسبة إليه موقعة بحرية يكاد أن ينهزم بها وعليه أن يحولها إلى انتصار عظيم بالمثابرة والإيمان. هل يشفق عليها؟ هل يعطف عليها؟ هل شده إليها جمالها المفرط؟ هل جنّ ليشعر ناحيتها بشيء من الحب وهي جثة صماء لا مشاعر لها بعد؟ هل له الحق في ذلك وهو سليل قراصنة البحر؟ هل له الحق في ذلك وهي زوجة وأم وربما زوجها استطاع النجاة من الموت ويعيش على الجانب الآخر من البحر؟
تجاهل الأسئلة التي تراوده واستمر في رعايتها بمزيد من الاهتمام مع فريق الأطباء، وكان على حق فمع مرور الأيام أخذت حالة (حمدة) تتقدم وتستجيب لما حولها شيئًا فشيئًا. حركت عينيها.. ثم رأسها.. ثم أصابعها.. ثم أطرافها.. ثم فتحت فمها.. ثم صارت تقبل الطعام وتمضغه.. كل هذا و(محمدي) لا ييأس بل يراقبها مراقبة الأم إلى طفلها الرضيع وهو يكبر أمام عينها ويأتي بجديد في حركاته وسكناته والتفاتاته. كان مؤمنًا أنها ستعود يومًا ما وها هو إيمانه يتحول إلى يقين. مرت شهور أخرى على هذا الحال؛ حيث يتقدم الوضع الصحي لـ(حمدة) تقدمًا بطيئًا لكن ملحوظًا. لكنها لم تتكلم! صارت تتجاوب عندما يحادثها أحد ما عن طعام أو شراب أو ما شابه لكنها لم يصدر عنها أي صوت. كان هذا ما يضعضع من عزيمة (محمدي). لو تنطق أو تتكلم معه قد يكفيه هذا! لو تحدثه عن نفسها أو حياتها أو ذكرياتها؟ لكنها ظلت صامتة بالرغم من تقدم حالتها الجسدية. جاءها في إحدى الليالي وجلس بجوارها ثم أخذ يحادثها كما لو كانت واعية تحادثه فيخبرها بأخبار غارته الأخيرة أو

عن الموريسكيين الذين أنقذهم أو حواره مع صديقه الريس (أولوج عليّ). كان يجد في الحديث معها راحة غريبة وكان يتمنى لو تبادله الحديث.
من أنتَ؟
أخيرًا خرجت الكلمات من فمها بصوت مبحوح ضعيف. توقف (محمدي) عن التنفس وتحجرت عيناه على وجهها. يا الله! أخيرًا تكلمت ما أجمل صوتها ولو كان مبحوحًا!. كررت سؤالها في بطء فأخبرها أنه الريس (محمدي) من الأسطول العثماني بأفريقية وأنهم قد أنقذوها من البحر على ساحل بلنسية.
بلنسية؟ بحر؟ أسطول؟
أخذت تردد في بطء مستفسرة باستغراب قبل أن تجهش لا إراديًّا بالبكاء. انشق صدر (محمدي) بصوت بكائها المبحوح فنادى على الطبيب فأتاه وبدأ في فحصها على الفور ثم بدأ يسألها عن اسمها عن بلدها عن أي شيء تذكره لكنها لم تستطع أن ترد عليه فاستمرت بالنحيب و(محمدي) لا يكاد يتمالك نفسه. أخذه الطبيب وشرح له أن ذاكرتها هي آخر ما تسترده خلال رحلة تأهيلها الطويلة ومن الجائز أيضًا ألا تستردها أبدًا.
لا تهم ذاكرتها، المهم أن تعود إلى رشدها.
وبالفعل أخذت حالة (حمدة) تتقدم سريعًا بعد ذلك. إذ بدأت تتكلم ببطء وتلعثُم ثم تطوَّر الأمر حتى صارت تتكلم بصورة طبيعية، ثم صارت تتحرك ببطء بمساعدة الممرضات قبل أن تبدأ الاعتماد على نفسها في الحركة. عام أو يزيد قضتها (حمدة) منذ التقطها (محمدي) من البحر حتى عادت إلى رشدها الطبيعي وقواها العقلية إلا ذاكرتها انمحت تمامًا فظلت أوقاتًا طويلة تجلس مع نفسها تحاول جاهدة أن تتذكر ماضيها. تتذكر من كانت. تتذكر من يهمه أمرها. لكن دون فائدة. تشعر كأن ماضيها ضوء أبيض باهر في عقلها لا يظهر منه شيء إلا لقطات لحظية لبحر وشاطئ وقارب وبكاء طفل رضيع وشيخ عجوز ذي وجه طيب. لكنها لا تستطيع أن تربط بين هذه اللقطات. تشعر أنها تفتقد شيئًا ما.. شخصًا ما.. شعورًا ما.. ما هو؟ لا تدري! هناك فراغ كبير في قلبها تشعر به. ما سببه؟ لا تدري! فتلجأ إلى البكاء. بعد أيام من استعادتها لرشدها أخبرها (محمدي) أنها فقدت زوجها وابنتها في البحر أثناء الغارة على ساحل بلنسية. بكت وتألمت لكن شيئًا ما بداخلها يشعر بوجود خطأ ما. ما هو؟ لا تدري! حتى حزنها على من فقدت كان غريبًا بالنسبة لها وإلى (محمدي) أيضًا. لكنها لم تستطع أن تتجاهل هذا الاهتمام الشديد من (محمدي). لقد كان يعاملها كأميرة ويوفر لها كل سبل الراحة والأمان حتى إنه خصص لها مرافقة تهتم بها وتقضي حاجتها. لقد كان يملأ عليها وقتها فلا تجد من الوقت للحزن على ما فاتها. يتعامل معها بلطف ورقة تدعو للدهشة. فلا يمر يوم أو أكثر حتى يأتيها ويتحادث معها فيواسيها إن حزنت ويسامرها إن سرحت ويتضاحكان إن سمحت. بدأت (حمدة) تعتاد على وجوده رويدًا رويدًا وتحزن لفراقه وتتمنى رفقته.
لماذا أنقذتني؟
ولماذا لا أنقذك وأنت روح بريئة لا ذنب لك أن تعيشي القهر والظلم.
ولماذا أنجيتني من الموت؟
لم أرَ للموت حقًا فيك حين رأيتك.
ولكن كلنا للموت.. حتى أقرب الأقربين.
ثم ترقرقت عيناها بالدموع فمسح بيديه دمعة سالت على وجنتها حزنًا على ما فقدت وقال:

من رحمة الله علينا أننا ننسى ما فاتنا ومن فقدنا، وقد رحمك الله أنك بالفعل قد نسيتِ أسرع وأكثر من أي إنسان آخر، فلا وجوه تتذكرينها لتتألمي ولا أحداث يكررها عقلك فتشتاقين. أكاد أجزم أن ما تركتِه خلفك لا يستحق عناء التذكر. لقد رحمك الله ببداية جديدة فاغتنميها.
ولكني لا أستطيع أن أنسى أن لي جذورًا هناك في ذلك المكان. ربما لي أب أو أم أو أخ أو صديق. لدي هاجس بداخلي أن هناك شيئًا ما ينتظرني في هذه الأرض ويهيم باحثًا عني. شيئًا ما يشدني للرجوع. أشتاق إلى تلك الأرض برائحتها وشمسها وهوائها حتى وإن لم أتذكرها.
مهما كان لكِ في هذه الأرض فقد انتهى وإلا ما كنت عزمت الهروب منها.. صدقيني هذه الأرض صارت نارًا تحرق من فيها ومن يقترب منها.
أتتخلى عنها؟! فأنت تتخلى عني يا (محمدي).
لا يمكن أن أتخلى عن كليكما يا (ناجية) فقلبي ودِيني يمنعاني من ذلك.
(ناجية)؟!
نعم.. أليس اسم جميل اخترته لكِ؟ أنت (ناجية) ليس لأنك نجوت من الموت، بل لأنك أنجيتني أنا من حياتي الصلدة التعسة وأعدت إليها رقةً نسيتها وعاطفةً أهملتها. لقد أنرت حياتي يا (ناجية) بنور الرحمة ولن أتخلى عنك أبدًا.
تزوجا في حفل بهيج في الجزائر فتوَّجها (محمدي) أميرة على قلبه وأميرة على الأسطول العثماني بالجزائر. أخذ الجميع يتطلعون إليها وعلى الهلال المرسوم بدقة على جبهتها فيشعرون أنها هبة سماوية أو أيقونة معجزة للنصر فأسموها (ناجية الهلالية) واستبشروا خيرًا بها. ثم دخل بها فاستشعر حنانًا لم يذقه مرة في حياته ومتعة لم يقابلها يومًا ولا يضارعها لذة سوى لذة النصر في المعارك. وكانت مفاجأته أن أدرك أنها عذراء لم تُطَأ أبدًا. انتابته الحيرة لذلك لكنه لم يُرِد أن ينقل الحيرة إليها وقد مرَّ الأمر عليها دون أن يلفت انتباهها. فشعر أنها الجائزة التي منحها الله له على صبره وإيمانه بها. اكتملت ندوب جسده بندبة وجهها عندما حملت في أحشائها وكانت فرحته عظيمة عندما ولدت له ذكرًا أسماه (نجم الدين)!
منذ انتقل (أولوج عليّ) إلى الجزائر وجَّه اهتمامه صوب الأندلس فقد كان يتابع الموقف الملتهب في البشرات. كان متابعًا للموقف في غرناطة منذ أَمَدٍ، وجواسيسه تنقل إليه الأخبار حتى انفجرت الثورة في آخر ديسمبر ١٥٦٨م ثم مبايعة (فرناندو دي بالور) وتسمَّى بـ(محمد ابن أميه) ليكون أميرًا للثوار في البشرات. وبرغم الدعم المالي لهم من السعديين إلا أنهم طلبوا دعمًا عسكريًّا مباشرًا من (أولوج عليّ) أمير الجزائر أكبر قوة عسكرية مسلمة في غرب المتوسط. كان (أولوج عليّ) يترقب حدوث الثورة ليتم التنسيق بين المعارك البرية والبحرية على الشواطئ الشرقية والجنوبية للأندلس. فأرسل على الفور إلى السلطان سليم الثاني يطلب منه التنسيق لهجوم شامل للأسطول العثماني على سواحل المملكة الإسبانية لاستغلال الأحداث لكن السلطان أمره فقط بتقديم دعم محدود للثوار بالمعدات والمدافع والبنادق وبعض المجاهدين. ومع ذلك كان حماس (أولوج عليّ) أكبر من ذلك وقد انتقل حماسه للمجاهدين الأتراك والجزائريين فجهز حملة كبيرة بها آلاف من رماة البنادق وآلاف كثيرة للمجاهدين وعدد كبير من المدافع والبارود على متن أربعين سفينة انطلقت في يناير ١٥٦٩م.
لكن الأمور ساءت عندما اكتشف جواسيس الإسبان تفاصيل الإنزال البري للسفن بسبب سوء التنسيق مع الثوار فظلت السفن عالقة في البحر تبحث عن نقطة إنزال حتى أتت عاصفة أغرقت معظم الأسطول ولم يتبق منه إلا ست سفن فقطٍ رست في سرية على شواطئ ألمرية واستطاعوا أن ينقذوا

ما بها من أسلحة ومجاهدين لينضموا فعلًا إلى الثوار في البشرات. وحقق الثوار بعض الانتصارات السريعة خلال هذا العام فأحس (أولوج عليّ) أن عليه واجبًا مُلحًّا في مساعدة الثوار أكثر من أي وقت آخر فقرر (أولوج عليّ) أن ينضم بنفسه إلى الثورة بصحبة قوة كبيرة من المجاهدين في خريف ١٥٦٩م مما سيكون له أكبر الأثر في دعم الثورة وتوحيد الثوار. لكن السلطان سليم الثاني رفض طلبه بل أمره بالانضمام بأسطوله إلى شرق المتوسط صوب قبرص.
لا أفهم شيئًا يا (محمدي).. أطلب من السلطان دعمًا لمساندة الثورة المشتعلة على بعد أميال قليلة منا فيأمرني بالحشد إلى قبرص بكل قوتي.
قالها (أولوج عليّ) في غضب وهو يطوي رسالة السلطان ويضعها جانبًا فقال (محمدي):
أنت تعلم الموقع الاستراتيجي لقبرص يا (قلج) ومدى أهميته للسلطنة وأساطيلها. إنها تقف دائمًا عثرة أمام أي تقدم بحري لنا.
أعلم ذلك يا أخي لكن الأندلس تُبعث من جديد الآن وإن لم ننجدها ستلفظ آخر زفراتها ولن يكون هناك من أمل آخر للمسلمين هناك وستذهب كل تضحياتنا هباء بل سنجد الإسبان على أبوابنا وسيضعف موقفنا البحري في غرب المتوسط. التوازن يا صديقي هو سر النجاح. الوضع في قبرص غير ملتهب لكنه مشتعل في البشرات!
وهل تملك الرفض يا (قلج)؟ هذا أمر سلطاني لا جدال فيه.
فكر (أولوج عليّ) بعمق ثم نظر إلى (محمدي) وقال:
لم أكن لأثق بأحد أن يتولى زمام الأندلس غيرنا أنا أو أنت يا (محمدي).
شرد (محمدي) بنظره لثوانٍ قبل أن يقول في حزم هادئ:
هل تريدني أن أحل محلك في حملة دعم الثوار المسلمين بالبشرات؟
أعلم خطورة ما أطلبه منك يا أخي. لكني قد نويت الانضمام بنفسي لقيادة هؤلاء الثوار المشتتين. إنهم فقط يحتاجون القيادة الفعالة القوية التي توحدهم وتوجههم، هل تعرف أنهم قد تخطوا العشرين ألف محارب.. عشرون ألف محارب يشعلون جبال البشرات وقراها ويستطيعون تحرير الجنوب من الإسبان. لكن مع وجود الأمر السلطاني لابد لي أن أتحرك بمعظم قوتي إلى قبرص وقبل الذهاب شرقًا عليّ أولًا تنظيف تونس من الإسبان حتى لا يقطعون عليّ طريق الرجوع.
سكت (محمدي) وهو يفكر في طلب (أولوج عليّ) قائده وصديقه. لم يكن يتردد أبدًا في مثل هذه الحملات مهما كانت خطورتها. أما الآن وقد صار زوجًا وأبًا فعليه التفكير جيدًا خاصة وأن الحملة هذه المرة لن تكون غارة بحرية سريعة كالسابق، إنما سيكون انضمام مباشر للثوار في معاركهم وحروبهم البرية مما سيطيل من أمد مكوثه هناك لشهور طويلة. على الجانب الآخر إن (أولوج عليّ) صديقه ورفيق رحلته الطويلة لا يمكن أن يرفض له مثل هذا الطلب ثم إنه لم يتهرب يومًا من الجهاد في سبيل الله مهما كانت المخاطر.
هل تفكر في (ناجية) و(نجم الدين)؟ سيكونان في أمان هنا حتى رجوعك سالمًا.
أفاق من شروده:
على عكس ما تفكر به يا (قلج). إن (ناجية) تلح عليّ في الرجوع إلى الأندلس. شيء ما من ماضيها يجذبها للعودة بالرغم من زواجنا المستقر وابننا الرضيع. إنها روح قلقة تدور في فلك من الذكريات المطموسة لن تستقر أبدًا إلا هناك وهذا ما يقلقني.

في هذه الليلة أخبر (محمدي) (حمدة) بمهمته فألحّت وتوسلت أن ترافقه، ورغم معارضته ورغم الخطر المنتظر لهم هناك وافق حتى تكون هي وابنهما تحت رعايته وحمايته الدائمة.

(٤)

بلنسية شتاء ١٥٦٩م

استيقظت مفزوعة وقد راودها هذا الكابوس مجددًا. منذ أتاها (فرَّاج) وأخبرها:

لقد انتهيا إلى الأبد.. (حمدة) و(الغريب).. لقد نجحنا!!

منذ تلك الغارة وبعد أن أخبرها (فرَّاج) بمقتل (الغريب) و(حمدة) فيها غرقًا وأن الفضل كله في ذلك يرجع إليها، لم تعرف ما يجب عليها أن تشعر به فأخذت نفسها تحادثها مرارًا وتكرارًا:

لم لا تفرحين؟ ألم تخططي لذلك؟

لا لم أخطط لمقتلهما بل أردت فراقهما عن بعضهما البعض.

أنتِ كاذبة أنتِ من أراد موت (حمدة)..

ربما (حمدة) لكن ليس (الغريب)..

وأنت تعرفين أن (الغريب) لن يتورع بالتضحية بنفسه من أجلها..

لم أرد موت (الغريب) إنه حب الطفولة..

وما ذنب (حمدة)؟ هل آذتك يومًا؟

كانت تؤذيني بجمالها ورحمتها وروحها الطاهرة وانجذاب جميع العيون إليها.

وهل تستحق الموت لذلك؟

آلاف الأبرياء يموتون في هذا العالم دون سبب.

ولكنهما ماتا بسببك.. أنت من اتفقت مع البحّار.. أنت من أخبرت (فرَّاج)..

كانوا سيسجنونني إن لم أتحدث..

يا لها من حجة واهية!

يزورها الكابوس ثم تستيقظ وتقضي بقية اليوم في عبوس وحنق غير مبررين وصرامة شديدة مع العاملين في حانتها. نعم حانتها فقد أهداها (فرَّاج) الحانة التي كانت تعمل بها هدية لها ومكافأة على ما قدمته من معلومات قيمة للبحرية الملكية. نعم (فرَّاج) هو من كافأها بعد أن علا شأنه علوًا كبيرًا عندما أصبح من رجال الدون (خوان النمساوي) أخي الملك فيليب الثاني. انتقلت (صبح) من العمل كراقصة في الغرف الحمراء حتى صارت سيدة الحانة الأولى المسؤولة عن إدارتها ومتابعة عمل جميع من فيها من راقصات ونادلات وعاهرات. كان الجميع يحسدونها على ما آل إليها فجأة دون مقدمات وهي بهذه السن الصغيرة وانتقلت إلى منزل أكبر مما كان لديها وتحسنت معيشتها خلال السنتين الماضيتين. ولم يسأل أحد عن المالكة السابقة للحانة وأين ذهبت فلا أحد يبكي عليها أو يُكِنُّ لها الولاء.

صارت كل يوم تقوم على إدارة الحانة منذ الظهيرة حتى الفجر فتتأكد من الإمدادات من خمور وفواكه ومتابعة الإصلاحات والتجديدات كما تتأكد من الغرف الحمراء ونظافتها وتوافر سبل الراحة والمتعة بها كما أنها تقوم بنفسها بالكشف على الراقصات والعاهرات والتأكد من نظافتهن وجمال أجسادهن وتجميلهن بل تطرد من تهمل جسدها وزنًا كان أو نظافة. كان لديها جيش من العاملين في

الحانة لم تكن تتخيل يومًا أن يكونوا تحت إمرتها. ثم يبدأ الزبائن في القدوم ليلًا فتتأكد من أن كل العاملين في الحانة يعملون بنشاط وكفاءة وأن الزبائن كلهم راضون يستمتعون بأوقاتهم في حانتها.
صار هذا هو روتينها اليومي طوال تلك الفترة، ثم لا يفتأ (فرَّاج) يزورها هو ورجاله فتضج الحانة نشاطًا لإرضاء المساعد الأول للدون (خوان). وكان (فرَّاج) يتقن هذا الدور ويؤديه ببراعة فيغدق على الراقصات ويأمر بالخمر للجميع ثم يرمي (صبح) بنظراته هنا أوهناك أو يدعوها "شريكتي" عندما يودِّعها أو يسلم عليها وكأنه يذكِّرها دائمًا بالجريمة التي فعلاها سويًّا ويتنعَّمون في نتائجها بينما يقبع ضحاياها في قاع البحر. كانت (صبح) تأمر جميع من بالحانة أن يقوموا بأعمالهم على أكمل وجه ليرضوا الكابتن (خوسيه دي لوخا) -(فرَّاج)- لكنها على الجانب الآخر تتجنب التحدث معه أو الاحتكاك به معتبرة إياه واحدًا من زبائنها المهمين فقط لا غير. ثم حدث الاحتكاك الأول بين (صبح) و(فرَّاج) عندما تهيأت الظروف وتقابلا وجهًا لوجه دون أن يشاركهما أحد آخر الحوار:
لماذا أراكِ دائمًا متجهمة يا (بيليتا)؟ أليس لديك الآن ما لم تحلمي به من قبل.
حاولت أن تتجاهله لكن لم يكن من بُدٍّ للكلام:
أحلام بنيناها على رفات الأبرياء.
اعتدل وواجهها متسائلًا:
ماذا أسمع؟! هل تندمين الآن على فعلتك وتخطيطك منذ البداية؟ أليس ذلك ما أردتِ؟ ألم تريديني أن أزيل بثرة من على وجهك إلى الأبد؟! أنتِ رغبت في ذلك منذ البداية وأنا ساعدتك في تنفيذ رغباتك ليس إلا فلا تدَّعي البراءة.
تتحدث كما لو أنك تضحي بنفسك من أجلي. ويا لها من تضحية جعلت بينك وبين الملك خطوة واحدة بعدما كنت تلعق الثرى في أزقة (أوليبا).
احتد الحوار بينهما وكاد (فرَّاج) أن ينفجر غيظًا عندما ذكرته بأيام (أوليبا) والذل الذي كان يتبعه كظله في كل مكان بينما هو الآن في أوج انتصاره وعظمته. فقال في غيظ:
أخبرتك ألا تذكري تلك الأيام وإلا قطعت لسانك وصدقيني لن تكون المرة الأولى لي. لقد صنعت منك سيدة عظيمة الشأن مالكة للحانة وقضيت على مالكتها السابقة من أجلك. لو تركت ضميرك هذا يؤنبك فسأسحقك أنت وضميرك. أنتِ لا تعلمين ما أستطيع فعله الآن دونما أي مساءلة. هذا إنذاري الأخير لك يا (بيليتا).
ثم رحل عن الحانة غاضبًا فتبعه رجاله معه. أما (صبح) فظلت جامدة في مكانها تفكر فيما تفعله. نعم ضميرها يؤنبها كل ليلة ويقضُّ عليها مضجعها ولن تستطيع أن توقفه. و(فرَّاج) لن يتورع عن التخلص منها إن استمرت على هذه الحالة التي تتملكها رغمًا عنها. ماذا تفعل لتتقي شر (فرَّاج). لقد صار قويًّا لدرجة يصعب معها أن تجابهه وحدها. أكيد سيأتي اليوم الذي يلدغها فيه هذا الثعبان وعليها ألا تقف مكتوفة الأيدي تتلقى عضاته السامة باستسلام. فكرت طويلًا باحثة عن مخرج من هذا المأزق. ما الذي يمكن أن يمنع (فرَّاج) عن إيذائها؟ ثم طرأت على رأسها فكرة ما. أخذت تبحث بعينيها في رواد الحانة عن رجل عسكري ذو رتبة رفيعة. ستستميله كما تعودت أن تفعل ثم توقعه في شباك حبها ولا مانع أن تعطيه بعض المتعة المجانية ثم تتمتع بحمايته. لن يعجب هذا (فرَّاج) لكنه سيمنعه عن إيذائها. وفعلًا أخذت تراقب الحانة لفترة من الوقت حتى وجدت الرجل الأرفع شأنًا في الحانة الماركيز (فرناندو دي مونيزا) وهو رجل عسكري أربعيني. أخذت تراقب الرجل إذ يأتي يوميًّا وهو يعرج برجل خشبية ويجلس وحيدًا بزيه العسكري يشرب النبيذ حتى يسكر ويأبى أن

ترافقه إحدى فتيات الحانة ولا يقصد الغرف الحمراء أبدًا ثم يرحل وحيدًا. هذا هو الهدف المثالي لها. وبالفعل بدأت تقصده وتلقي له بالتحية أو بابتسامة ساحرة أو غمزة عين غامضة حتى جذبت انتباهه وجعل يسأل في قرارة نفسه عن سر هذا الاهتمام ثم قررت (صبح) أن تكلمه:
ما الذي يجعل سيدي الماركيز يجلس وحيدًا دائمًا.. أليس في فتياتنا وراقصاتنا ما يمتعه؟
انتفض الماركيز (فرناندو) من شرود ألمَّ به ثم قال:
عفوًا يا سيدتي؟!
سيدتي؟! إنها المرة الأولى التي يناديها أحد سيدتي! وممن؟ من ماركيز بالجيش الملكي! فوجئت برده فتجمدت لثوان قبل أن تتمالك نفسها فقالت:
كنت أقول ألا تريد أن تزور غرفنا الخاصة وما بها من متعة مخصوصة لماركيز عظيم الشأن مثلك؟
امتعض الماركيز على ذكر الغرف الحمراء بل للغرابة احمرَّ وجهه خجلًا وقال:
لا رغبة لي في هذا الشأن.. إن أردتِ مؤانستي فشاركيني الشراب والحديث لو تستطيعين يا سيدتي.
الحديث؟! لقد جاء ذلك الرجل إلى المكان الخطأ لكن ما المانع. فجلست بجواره وأخذت تسكب النبيذ في كوبه وهي تقول:
كلي آذان صاغية لك يا سيدي الماركيز.. أنا طوع أمرك.
قالتها بطريقة أخاذة شدت انتباهه:
ما اسمك يا سيدتي؟
أنا (بيليتا) صاحبة الحانة.
صاحبة الحانة؟ تبدين صغيرة على أن تمتلكي مثل هذه الحانة.
ورثتها عن عمتي الراحلة.. ولكن قل لي لماذا تجلس وتشرب وحيدًا.. لماذا أراك شارد الذهن دائمًا؟
تجرع كوب النبيذ ثم قال:
بل أحتسي الخمر مع أشباح الماضي؟
وكأنه يتحدث عنها فقالت بتردد:
أي أشباح يا سيدي؟
حبيبة تركتها ورحلت إلى الحرب في الأرض الواطئة.. عشرة أعوام وأنا أحارب دون هوادة حتى فقدت قدمي في الحرب فرجعت إلى موطني متقاعدًا لأجدها ماتت بالطاعون بعد أن ظلت تنتظرني صابرةً سنين طويلة.
ثم ترقرقت دمعة في عينه وهو يشرد في اللا شيء. مسَّ الماركيز قلب (صبح) وشعرت ناحيته بنوع من الشفقة والعطف وكأنه يتحدث عما بداخلها من ندم وألم وفقدان الحبيب. لكن الأكثر من ذلك أنه لا يتحدث معها كماركيز في الجيش الملكي ولا يتعامل معها كما يتعامل الجنود والفرسان الإسبان بعنجهية وعسف وتكبر. إنه لا يأخذ في الاعتبار كونها موريسكية الأصل بل يتحادث معها كإنسانة تحمل مشاعر وروحًا. قررت منذ تلك اللحظة أن ترافقه وتسرِّي عنه. وفعلًا كل مرة كان يأتي فيها الماركيز كانت تأتي مسرعة إليه ثم يشربا ويتحدثا حتى يسكر الرجل ويرحل منتشيًا بأمسية قضاها مع إنسانة تشعر به وبآلامه وتشاركه فيها. مرت الأيام وتوطدت الصداقة بينهما لكن (صبح) كانت تنتظر الكثير من هذه العلاقة ما هو أكثر من الصداقة.
ليست الحماية فقط، لكنها وجدت ضالتها في رجل وجد ضالته فيها. لقد ظلت طوال حياتها مهملة لا يُنظر إليها ولا يحتاج إليها إلا لمتعة جسدية سريعة زائلة، أما الآن هناك نفس ضائعة تتلهف إلى لقائها

والحديث معها والصعود بها من ماخور الحانة النجس إلى مستوى راق من السمو لم تألفه يومًا من الأيام. لم تجد (صبح) ما تشكر به هذا الرجل الرائع إلا ما تعودت أن تجود به. أخذته إلى بيتها بعد انقضاء أمسية الحانة وسار الرجل معها مأخوذًا باهتمامها ورعايتها وشفقتها. لم ترد أن تجتمع به في غرفة حمراء تحاوطها النجاسة من كل جانب. كانت ترى ذلك انحطاطًا لشيء سام. أدخلته بيتها وغرفتها وأجلسته على فراشها وبدأت تنسج خيوط الرغبة والشبق عليه ليستسلم ككلِّ الرجال. لكن للعجب أبى الرجل بالرغم من انتصاب شهوته وغلبة الخمر على رأسه بل بدأ بالبكاء كالأطفال. شعرت (صبح) بحيرة تجاه ذلك الرجل. إنه ليس ببشر حتى يأبى السقوط في بئرها وهو عطشان. لابد أنه جِنِّي من عالم آخر؟! أو ربما فقد فحولته في الحرب. ثم أخذ الرجل ينادي على حبيبته (لوسيا) وارتمى على الفراش يدفن وجهه فيه ويبكي ويعتذر لها. لم تستطع (صبح) أن تترك تلك النفس الهشة هكذا فاحتضنته وواسته وأخبرته أنها ستكون له (لوسيا) كما يريد. أخيرًا أخذ الرجل شيئًا فشيئًا يستسلم لـ(صبح) واستغلت (صبح) الأمر وأخذت تقوم بما تتقنه على أحسن ما يكون حتى هيَّأت الرجل تمامًا ووجهته وساعدته حتى التحما سويًّا كجسد واحد.

لم تصدق (صبح) الأمر فقد كان (فرناندو) الذي قارب على الخمسين من عمره به فحولة شاب في العشرينات كما لو أنه لم يضاجع امرأة واحدة في حياته وحافظ على كل قواه الذكورية وسحر الجماع وأسراره من أجل حبيبته وها هي (صبح) بدلًا من حبيبته تتلقف منه دفعات تلو دفعات من الحب الطازج وطعنات من المتعة الخالصة وتراشق من القبل العطشى بلا حدود. لم تصدق (صبح) نفسها وهي بين أحضان الرجل تتلقى منه دفقات من الحب الخالص بأقصى مما تتحمله نفسها فلم تتمالك نفسها صراخًا وغنجًا وارتقت بنفسها إلى النجوم وتفتَّتت أوصالها وأرخت عضلاتها من فرط متعة لم تذق مثلها في حياتها تتخللها صرخات هزت بلنسية كلها.. حتى سكنت الأجساد المتعرقة وارتفعت الصدور نهجًا تتصارع الأنفاس فيها وارتمى (فرناندو) غائبًا عن الوعي. أما (صبح) فلم يكد يهدأ جسدها من جراء تلك المعركة حتى احتضنت الرجل وقبلته على ظهره وفي عينيها راحة لم تذقها من قبل. وقررت منذ تلك اللحظة أن تظل عاشقة خالصة لذلك الرجل حتى آخر العمر، ومرت الأيام والشهور وأصبح الماركيز لا يفارق (صبح)، وأصبحت (صبح) لا تطيق بعاده. ختمهما الحب بخاتم الأمل في حياة جديدة بعد أن وجد كل منهما ضالته في الآخر. صارت (صبح) لـ(فرناندو) عوضًا عن حبيبته المفقودة (لوسيا)، وصار (فرناندو) لـ(صبح) بالرغم من فارق السن بينهما هو الرجل الحقيقي الكامل الذي لا يبخل عن حبيبته حبًا لروحها وزادًا لجسدها أيضًا.

(٥)

استعِدّ للرحيل معي إلى غرناطة لوأد التمرد الموريسكي هناك يا (خوسيه).

قالها الدون (خوان النمساوي) لـ(فرَّاج) الذي صار مساعدًا خاصًّا له منذ التقيا حين مرَّ الدون (خوان) ببلنسية وصادف وجوده انتهاء الغارة البحرية على شاطئ السبلايا التي عاد فيها (فرَّاج) من الأسر بعد أن ساهم بمعلوماته القيمة في صد غارة القراصنة الترك وإغراق ثلاثة قوادس لهم للمرة الأولى. بالرغم من أنه لم يكن انتصارًا للإسبان على القراصنة، لكن المعلومات المخابراتية والاستعداد للغارة وأسلوب وضع الفخ وإحكامه ثم الإيقاع بثلاث قوادس من ثمان من جانب القراصنة كان نجاحًا يستحق الثناء. في نفس الوقت كان الدون (خوان) يشكّل مجلس حرب ليساعده في صد القراصنة بأمر من أخيه الملك فيليب الثاني الذي ضاق ذرعًا بتقدم البحرية التركية عليهم في كل المعارك البحرية

التي خاضوها ضدهم في الوقت الذي يتحكمون في معظم غرب البحر المتوسط عبر إسبانيا والبندقية ونابولي وجنوة. أعجب الدون (خوان) بحماس (فرَّاج) وبخبرته في التعامل مع الموريسكيين في استخراج المعلومات القيمة في الاتصال مع الأتراك والمغاربة.
ولم يضيِّع (فرَّاج) الفرصة فأخذ يبهر الدون (خوان) بما يعرفه عن الموريسكيين وطُرق زرع الجواسيس أو خلق الفتنة بينهم أو ابتزازهم لاستخراج معلومات كما أخبره عما رآه في الغارة البحرية الأخيرة. لم يدع (فرَّاج) الفرصة للدون (خوان) للتفكير حتى قرر ضمه للمجلس كمساعد ثانٍ له وكان هذا كافيًا لـ(فرَّاج) حتى يبدأ في صنع مجده القادم وطريقه إلى الملك فيليب الثاني نفسه فطموح (فرَّاج) ليس له حدود ولن يقف عند هذا الحد. وبينما كان الدون (خوان) يشعر بالضيق من أوامر أخيه الملك فيليب الثاني الذي رفض توليته إمارات إيطالية وفضل أن يبقيه في إسبانيا كقائد عسكري ميداني لأنه أخ غير شرعي له حتى لم يهبه لقبًا ملكيًّا مكتفيًا بالدون، إلا أنه كان قائد داهية يرفض الهزيمة أو الهروب من التحديات فيقبل بما يوكل إليه من مهام بالرغم من صغر سنة وحداثة عهده بالحروب.
على جانب آخر خدع (فرَّاج) (صبح) وأخبرها أن (حمدة) و(الغريب) قد قتلا حتى يستمر في التلاعب بها. كان يعلم أن (حمدة) أنقذت وكانت مصابة على سفن الترك وربما لا تزال حية على الجانب الآخر من البحر، كما تلاعب بمصير (الغريب) منذ أسره على شاطئ السبلايا ليتم استعباده للعمل في مناجم (ألمادن) الرهيبة؛ حيث لا ينجو أحد. اضطر أن يكافئ (صبح) على تعاونها معه واستطاع أن يحتال على مالكة الحانة ليهديها إلى (صبح) خالصة. هكذا أصبح (فرَّاج) يمسك بكل الخيوط ويسعى أن يتحكم في مصائر الجميع كما تسول له نفسه دائمًا.
بدأ يلحظ على (صبح) الامتعاض والحنق بالرغم مما قدمه إليها، ثم كان حديثهما معًا الذي أكد على نفس المغزى. لماذا لا يتخلص منها لتنضم إلى قائمة ضحاياه وينتهي من هذا الجدل وهي تعلم الكثير من ماضيه مما يمكن أن يؤذيه أو يشوِّش على مستقبله؟ لكنه لا يريد ذلك بل يريدها كشاهدة من الماضي على نجاحه وانتصاراته. هي الوحيدة المتبقية من ماضيه المخزي في (أوليبا) وعليه أن يبقيها ويتلذذ بمرآها وهي تعض الأنامل على نجاحه وقفزاته الواسعة نحو المجد. لا لن يتخلص منها بل سيبقيها تحت عينه وطوع أمره.
لكن الآن أتته أخبار علاقتها مع الماركيز (فرناندو). بدأ يشعر بالغضب أن (صبح) تريد أن تتفلت من بين قبضته. علاقتها بالماركيز خطرة بكل الأوجه. ماذا لو أباحت بأسراره له؟ ماذا لو دفعتهما للمواجهة وجهًا لوجه؟ لا يستطيع أن يتحمل مواجهة مثل تلك حتى مع ماركيز متقاعد. إذن لابد له أن يواجهها وينذرها ويخضعها مرة أخرى. عندما وجدها في الحانة وحدها دون (فرناندو) أتاها وأخذها بعيدًا عن العيون وتحدثا:
ما الذي تبغينه من ماركيزك الأعرج يا (بيليتا)؟
عادت نظرة الثقة والتحدي مرة أخرى إلى وجه (صبح) وهي تقول:
يحبني وأحبه وسأعيش في كنفه إلى الأبد.
اغتاظ (فرَّاج) من طريقة كلامها المتحدية:
وهل تعتقدين أن شيئًا ما يمكن أن ينمو بين موريسكية هاربة وماركيز بالجيش الإسباني الملكي؟
ضحكت في تهكم وقالت:
تمامًا كما تترعرع أنت في كنف أخي الملك الإسباني وأنت موريسكي متخفٍّ في ثوب فارس إسباني!

انطلق الشرر من عينيه وأحس بحمم بركانية تشتعل في صدره عندما هددته بأسلوبها وابتزته بكلامها. شعر (فرَّاج) أن الوقت قد حان لإعطاء (صبح) درسًا قويًّا لن تنساه حتى لا تتمرد مرة أخرى وتكف عن التلميح بماضيه المخزي. تذكر مساعده (روبرتو) عندما تجرأت عليه إحدى النادلات فعاقبها وأخذها وضاجعها بكل قوة حتى خضعت له وانكسرت أمامه. صحيح أنه لم يقم بمثل هذا الأمر من قبل لكن ربما هذا هو الوقت المثالي لمثل هذا العقاب. لقد شعرت (صبح) أنها تقوَّت بالماركيز وتحدته وعليه الآن أن يكسر عنادها إلى الأبد وإلا فلن يكون له عليها سلطان بعد الآن. ودون تردد أمسك بذراعها ككلابة حديدية وأخذ يجرها ناحية الغرف الحمراء. لاحظ بعض العاملين بالحانة ذلك الموقف فأشارت لهم (صبح) بعدم التدخل. لم تفهم ماذا ينتويه (فرَّاج) بها فتبعته مرغمة إلى الغرف الحمراء ثم دفع أحد الأبواب بقدمه حتى كاد يكسره ففزع المغني والراقصة اللذان ينتظران بالغرفة فأمرهما بالرحيل فورًا فخرجا مسرعين من الغرفة وأغلق الباب خلفهما ثم رمى (صبح) على الفراش بكل قوة وقال في غضب وتوعد:

يبدو أنك قد نسيت أمرك وما كنت عليه وينبغي عليّ أن أذكرك ما أنت يا عاهرة.

ثم أخذ يشد ثوبها ويمزقه عنها وهي تقاومه لكن الغضب الكامن بداخله جعله أقوى مما تستطيع صده، فمزق عنها معظم ثوبها ووقف يخلع سرواله استعدادًا لمضاجعتها رغمًا عن أنفها. خلع سرواله وارتمى عليها وهي تحاول أن تصده دون فائدة. ارتمى عليها ودفع بنفسه بإصرار وحاول أن يضاجعها مرة وثانية وثالثة دون جدوى. لم يحدث منه أمر ولم تشعر (صبح) بأي شيء منه على الإطلاق. اعتدل (فرَّاج) ينظر إلى أيره الذي لم يحرك ساكنًا وظل منكمشًا على نفسه. ماذا يجب أن يحدث؟ لماذا لم يستطع أن يضاجعها ككل الرجال؟ هيا تحرك أيها الشيء؟ ثم حاول مرة أخرى بشتى الطرق والوسائل دون فائدة. اعتدل واقفًا مشدوهًا عاجزًا عن فهم الأمر. هنا صاحت (صبح)ضاحكة مجلجلة دون أن تعتدل من على الفراش أو تستر نفسها وقالت مقهقهة في تهكم:

كان يجب أن أعلم أنك ممسوخ في كل شيء.. حتى فحولتك.. أنت لم تولد رجلًا.. أنت عاجز حتى عن أدنى ما يفعله أحقر رجل على وجه الأرض.. أنت مسخ يا (فرَّاج) مهما تلونت أو تخفيت.. ولدت مسخًا وستظل مسخًا إلى أن تموت حتى ولو خلعت عينيك ووضعت ألف تاج على رأسك..

ثم أخذت تضحك في هستيرية تتقلب على المخدع كالأطفال و(فرَّاج) يقف كلوح من الثلج غير مصدق لما يحدث. لم يتحمل تهكمها فلبس سرواله وخرج مسرعًا من الغرفة إلى الحانة فالطريق عدوًا لا يريد لأحد أن يتبعه. كان يعتقد أن كل من سيقابله سيسخر منه ومن إعاقته حتى ثرى الطريق وأحجاره. الآن فقط تنبه أنه لم يَثُر يومًا من الأيام على أي أنثى. لم تجذبه أي أنثى مهما كان جمالها أو خلاعتها. لم يتقبل الحديث عن العاهرات والمضاجعات ومغامرات الرجال في الغرف الحمراء. حتى حين رغب في (حمدة) لم يكن يرغب فيها كأنثى بقدر رغبته فيها كهدف تنافسي يسعى إليه الجميع. إنه حقًا مسخ في كل شيء. ولماذا يتوجب عليه أن يكون مسخًا؟! وجد نفسه أمام الكنيسة الكبرى ببلنسية وقد انتصف الليل وخلا الطريق من المارَّة. نظر إلى تمثال للمسيح على أبوابها غاضبًا:

لماذا أنا؟! لماذا يجب أن أكون مسخًا؟! لماذا خلقتني لتسخر مني ويسخر مني الناس؟! ماذا فعلت لك حتى تُصِرَّ على إذلالي.. لكن مهلًا.. ربما ليس خطأك أنت.

ثم نظر إلى السماء الملبدة بالغيوم وأخذ يشيح بيديه صائحًا:

إذن فهو أنت.. أنت من أخطأت في صنعي؟ أنت الذي جعلتني مسخًا أمام الأذلّاء والحقراء.. لماذا؟ ماذا فعلت لك حتى تنبتني نباتًا شيطانيًّا لا ثمار له، وكلما غرزت جذوري في مكان ما لا أثمر إلا

أشواكًا.. هل خلقتني ممسوخًا لتجعلني عبرة للناس ومثلًا.. أنا لا أحتاجك.. لا أريدك بعد الآن.. اذهب وامسخ آخرين وعذبهم كما تشاء أما أنا فلن أرضخ لك أو له أو لأي رب آخر أينما يكون.. سأرتقي مكانك وسأكون أنا الرب وسأجعلهم جميعًا يعبدونني وأتحكم في حيواتهم ومصائرهم بقبضتي ولساني وعقلي.. حتى ولو كنت مسخًا!

ثم واتته أفكاره السوداوية فورًا فعزم أمره وتوجه مرة أخرى إلى الحانة بكل غضب وحزم وصرامة.

لم تكد (صبح) تغير من ملبسها في نفس الغرفة الحمراء حتى انفتح باب الغرفة مرة أخرى ودخل منه (فرَّاج) في هدوء وثقة غريبين يختلفان تمامًا عما كان عليه منذ قليل. ثم نظر إلى (صبح) نظرة فاحصة طويلة بعين شيطانية:

لماذا جئت مرة أخرى أيها المسخ؟ ألم تكتفِ من السخرية بعد؟

جلس على أحد المقاعد المواجهة للفراش الذي تجلس عليه (صبح) ثم تأملها للحظات قبل أن يصيح مناديًا على (روبرتو) مساعده الذي دخل الغرفة مسرعًا ملبيًا نداء سيده. وقف روبرتو مترقبًا (صبح) بعين شيطانية فارتعدت عندما رأته وقد فهمت قصد (فرَّاج):

أتيت بمن يقوم عنك بما فشلت به؟ أنت تستحق الشفقة حقًا.

بدأت تشعر بالخوف يرتعد بداخلها وهي تنتظر ما قد يفعله بها هذا الثور. واستعدت لمجابهته بكل ما أوتيت من قوة وهي تتوقع أسوأ الاحتمالات فلن تكون أسوأ تجاربها. لكنها كانت مخطئة فالأسوأ لم يأت بعد. نادى (فرَّاج) على جندي آخر من رجاله. أتى الرجل مسرعًا من الباب حتى توقف في الجانب الآخر من الفراش وهو يرمق (صبح) بعين الذئب.

اثنان؟! تريد حقًا أن تنتقم لعجزك فيَّ؟

لم يكفَّ عن نظرته الهادئة الغامضة الشيطانية إليها وهو يتفحص آثار الخوف والرعب عليها ويستمتع بها قبل أن ينادي على جندي ثالث ورابع وخامس. حاوط خمستهم بـ(صبح) وهي تجلس على الفراش والعرق قد بدأ يتصبب على جبهتها وهي تتخيل ما ينتظرها. ساد الصمت للحظات قبل أن يشير (فرَّاج) بعينه الواحدة إلى (روبرتو) الذي بدأ العاصفة. قام خمسة الرجال بتمزيق (صبح) بينهم طوال الليل حتى طلوع الفجر. لم تستطع المسكينة أن تصمد أمام قوتهم ورغبتهم وفحولتهم. قيدوها وتناوبوا مضاجعتها وتناوبوا على الراحة حتى يستكملوا ويكرروا مضاجعتها. لم يوقفهم صراخها أو بكاؤها أو آلامها أو توسلاتها أو نزيف أَلَمَّ بها. وبين زخات الألم التي تجتاحها تذكرت (صبح) يوم اغتُصبت طفولتها في جدول الماء في (أوليبا). تذكرت نفس الشعور بالألم والنزيف والعجز والقيد. تذكرت البراءة التي انتزعت منها ودهست بالطين وكأنه مقدور عليها أن يتكرر الأمر ذاته بها مرات ومرات.

ظل (فرَّاج) يراقب الأمر عن كثب ويتشفى في (صبح) ويشعر بالرضا عما يفعله بها. لا يمكنه أبدًا أن يصمت أمام سخريتها وتهكمها عليه ومعرفتها بعجزه ومسخه. لم يكن يستطيع أن يعيش ويواجه حياته وهناك من يرفع عينه فيه كَسَهم يخترق رجولته ويشكك في سطوته. كلما تألمت استراح، كلما صرخت طرب، كلما نزفت تلذذ. أما مَا كان يمتعه حقًّا فكان مرأى أجساد الرجال العارية المثارة!

لم تستطع (صبح) الصمود أمام هذا الاعتداء السافر على آدميتها وأنوثتها فأغشي عليها من التعب والألم، كذلك ملَّ الرجال الخمسة من التناوب على اغتصابها وقد صارت في أيديهم كالخرقة البالية لا حول لها ولا قوة ولا متعة في مضاجعتها بعد الآن فتوقفوا ورحلوا. بقي (فرَّاج) على كرسيه قبل أن

يقف ليتأمل جسد (صبح) العاري وقد ناله ما ناله من جراء تلك المعركة غير المتكافئة ثم بصق عليها ورحل.
أفاقت (صبح) بعد بعض الوقت وهي تشعر بنيران تشتعل ببطنها وبين فخذيها وآثار الأصابع واللطمات على كل جسدها وبقايا دماء سالت من فرجها. نفس شعورها في الطين في (أوليبا) بعد واقعة الاعتداء عليها. قامت كالجسد المذبوح وأخرجت ثوبًا من الغرفة الحمراء لبسته في صعوبة. لم يكن همها إلا شيء واحد أن تذهب إلى حبيبها (فرناندو) وترمي نفسها بين أحضانه ليداوي جروحها. لم تهتم بنظافتها أو إزالة الدماء عنها أو أي مظهر لها، فقط تَعد الخطى لتذهب إلى بيتها؛ حيث ينتظرها (فرناندو) الوحيد القادر على تطبيب جراحها مهما تعمقت. ستتنفس فقط حتى تصل إلى (فرناندو) وسيتنفس لكليهما. ستسير بضع خطوات أخرى حتى تصل إليه فيحملها. ستُبقي قلبها نابضًا بضع نبضات أخرى حتى تصل إليه وسينبض بقلبه لكليهما. وصلت منزلها بصعوبة. فتحت بابه ببطء. دخلت حجرتها منحنية الجسد. ثم وجدت (فرناندو) نائمًا على الفراش.. مذبوحًا!
استدعاه الدون في الوقت المتأخر من الليل. لم يكد يصل إلى مبيته بعد تلك الواقعة حتى وجد (فرَّاج) رسالة من الدون بضرورة لقائه قبل الصباح لأمر هام. بالرغم من الطعنة التي تلقاها في رجولته في تلك الليلة إلا أنه لا يستطيع أن يتجاهل طلب الدون (خوان). فذهب إليه قبل الفجر في المنزل المخصص له ودخل إلى مجلسه وكان المنزل كله صامتًا نائمًا فنزل الدون (خوان) من غرفة نومه العلوية وهو شبه عارٍ. لكنه كان غاضبًا حانقًا مترنحًا وهو ينزل الدرج ثم سمع صوتًا أنثويًّا من الغرفة العلوية يصيح به:
اللعنة عليك يا (خوان)..
فصاح الدون:
اللعنة عليكِ وعلى أخي أيضًا.
ثم نزل بغضب حتى دخل إلى المجلس وهو في هيئته العارية وبيده قدح من النبيذ.
هل تصدق أن عشيقاتي أيضًا يختارهم لي فيليب هذا؟!.. وكأنه يصر أن يبقيني كَنَغِلٍ حتى في فراشي.
سكت (فرَّاج) وهو شارد الذهن في أحداث الليلة. فأكمل الدون:
أكرههن جميعًا.. لا توجد واحدة تستطيع إمتاعي..
لا يزال (فرَّاج) صامتًا:
استعد للذهاب معي إلى غرناطة للقضاء على تمرد الموريسكيين هناك.. القادة الإسبان هناك عاجزون عن الاتحاد والتغلب عليهم وبينهم خلافات كثيرة وفيليب يريدني أن أقود الجيوش الإسبانية للقضاء عليهم وتشتيتهم.
ظل (فرَّاج) شاردًا ثم لم يستطع كبح جماح حزنه وانكساره فبكى وتسللت الدموع على وجنتيه. بالرغم من سكره إلا أن الدون (خوان) شعر بالشفقة على (فرَّاج). قام وجلس بجواره ثم احتضنه قائلًا:
ماذا هناك يا (خوسيه)؟ ألديك أنت أيضًا فيليب ينغص عليك حياتك أم عشيقات يفشلن في إمتاعك
لم يستطع أن يجيبه (فرَّاج) ولكنه كان يحتاج إلى صدر يضمه فيرمي بألمه فيه، فغاص بوجهه في صدر الدون (خوان) الأبيض العاري وشعر باحترار جسده مع رائحته العطرة فلم يتمالك نفسه وأخذ يتعمق في صدره أكثر ويتحسس بيديه جلده العاري وعضلاته البارزة. أحس الدون بأصابع (فرَّاج)

تتحسس صدره بغرابة شديدة شعر في البداية بالحرج وكاد أن يصيح في (فرَّاج) بالتوقف لكنه بدأ تدريجيًّا بالشعور بشيء مختلف من المتعة. تمادى (فرَّاج) أكثر واستسلم الدون (خوان) أكثر وأكثر وهو يستكشف كنزًا جديدًا غريبًا وفريدًا من نوعه لمتعة لم ينلها يومًا من الأيام، ولم تستطع أي من عشيقاته أن تهبه إياه. في الصباح استيقظ الدون بجوار (فرَّاج) وكلاهما عاريان على نفس الفراش.
أيقظه الدون فأفاق وعلى وجهه علامات الهدوء والرائحة والسكينة:
هيا يا عزيزي.. عليك بالخروج قبل أن يراك أحد
رد (فرَّاج):
أنا تحت أمرك يا سيدي.
وابتسما!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(١) رقصة الختام: من فوق المنحدر
(١)

(جواديكس) ديسمبر ١٥٦٩م
لم يكن (الغريب) يتخيل أن تكون الكنيسة هي مأواه في قرية (جواديكس). عندما قرر أن يفترق عن طريق (عُمير) ودلّه (عُمير) على القرى المسالمة التي ظلت على الحياد بعيدًا عن نيران الثورة المستعرة، اتجه (الغريب) بجواده ناحية الجنوب الغربي في اتجاه غرناطة. لم يكن عازمًا على الوصول إلى غرناطة كمدينة كبيرة بها العديد من المخاطر كبلنسية، ولكنه أراد أن يجد إحدى هذه القرى التي تنعم بالسلام وسط معارك الثورة بين جيوش الملك والثوار بالبشرات. وجد ضالته في (جواديكس) قرية صغيرة على مفترق الطرق المتجهة إلى غرناطة. عندما وصل إلى مشارف القرية تخلص من الجواد حتى لا يُظن انتماؤه إلى الثوار ثم مشى على قدميه في اتجاه القرية تحت سماء ملبدة في ليلة مظلمة وجو بارد جدًّا تتجمد له الأوصال فصارت طرق القرية خالية من المارة. لم يدرِ أين يتجه وعلى أي باب يطرق فوقف في ركن منزل يتدبر من أمره:
هل لديك مكان تبيت فيه يا بني؟
قالها قس عجوز لمح (الغريب) عندما كان يغلق باب الكنيسة عبر الطريق. شعر (الغريب) برهبة من منظر القس في ظلام الليل وقد ذكَّره بمنظر مفتشي ديوان التحقيق في (أوليبا) فشعر به القس فربت على كتفه ليطمئنه:
هل أنت جائع؟
نعم يا أبتاه.
كان مظهر (الغريب) واضحًا من الهزال والتعب فأخذه القس من يده ناحية الكنيسة. تردد (الغريب) للحظة قبل أن يُطمئنه القس ويأخذه بيد حانية تجاه الكنيسة الصغيرة. أدخله إلى غرفة خلفية بها عدد قليل من الأسرَّة اعتدل من عليها رجلان هزيلان آخران. ثم أعطاه ملبسًا نظيفًا وأخبره أن يُغير من ملابسه حتى يعد له بعض الطعام. كانت الغرفة دافئة نظيفة تدعو للراحة والسكينة فقام (الغريب) بتبديل ملابسه وما إن فعل واستقر على أحد الأسرة الخشبية حتى جاء القس ومعه إناء يتصاعد منه البخار ثم أعطاه للغريب:
اشرب بعض الحَساء.. لا تخف إنه ليس خنزيرًا.
اعتدل (الغريب) في حركة حادة لم ينتبه لها القس الذي رحل عن الغرفة تاركًا (الغريب) حائرًا فتبادل النظر مع الرجلين الآخرين وفي عينيه تساؤل. القس ساعده وأطعمه وآواه وهو يعرف أنه مسلم لا يأكل الخنزير. إن هذا شيء مستحيل في ذلك الوقت:
لا تخف يا رجل. هذا القس (أنوصان) ألم تسمع عنه؟ إنه أفضل مسيحي عرفت به في هذه الناحية. إنه لا يعبأ بدينك ولكن يساعدك كإنسان وكروح.. هذا الرجل الرحيم به مسحة من المسيح.
قالها أحد الرجال وهو يحثّه على الطعام. لم يكن (الغريب) يتخيل وجود بقايا للرحمة في هذا العالم الموحش. لم يكن يظن أن هناك رحمات لم تستبدل بالاضطهاد والعنصرية بعد. شرب الحساء نهمًا ثم نام آمنًا في تلك الليلة. بعد ذلك تيقن كم كان القس (أنوصان) إنسانًا رحيمًا محبًّا للناس وكان بشوشًا هادئ الطباع فصبغ على مساعديه من الكهنة في كنيسة (جواديكس) نفس الطباع من اللين والرحمة.

كان (الغريب) واحدًا من عشرة لاجئين موريسكيين يرعاهم القس في كنيسته. لم يحاول أن يجبر أحدًا من اللاجئين على الصلاة في الكنيسة، ولم يحاول أن يفرض المسيحية على أي منهم بل إنه كان يكرر مقتطفات من الإنجيل دالة على الرحمة والعطف بالإنسان والمسامحة. ثم كان يطلب منهم بكل أدب أن يساعدوه في زراعة الحقل التابع للكنيسة فكان اللاجئون يتسابقون في ذلك إرضاء لذلك الرجل الكريم بل كان يعمل معهم بيديه ويساعد من يُجرح منهم أو يتعب. شعر (الغريب) أن هذا الرجل هو الرسول الحق للمسيحية الحقة. رسول صادق لرسالة رحيمة لا تبعث على الحقد والكراهية وإقصاء الآخر. ذكَّره هذا الرجل بالشيخ (عبد الصمد) في حلمه ورحمته ومساعدته للاجئين والمشردين والمحتاجين بغض النظر عن دينهم أو أصلهم. هل من الممكن أن يكون هذا المكان هو المستقر الأخير لـ(الغريب)؛ حيث ينعم بالهدوء والسكينة حتى يموت ويلقى الأحبة؟ لم يكن القس (أنوصان) ورعايا الكنيسة هم سبب ذلك فقط، كان موقع الكنيسة المطل على جبال البشرات في الأفق البعيد وقد اكتست قممها بالثلوج البيضاء التي تبدو لامعة في الصباح تدعو لراحة داخلية وسكينة داخل نفسه المضطربة المكسورة. فكان لا يفتأ يتوقف عن العمل في الحقل ثم يرمي بنظرة بعيدة إلى جبال البشرات متنسمًا هواءًا باردًا بكرًا محملًا برائحة الحقل والنباتات. هل تستمر هذه الحياة الهادئة بعد أن قضى بها (الغريب) بضعة أيام نال فيها الهدوء والسكينة؟! اقتربت ليلة الميلاد وملأ القس الكنيسة بهجة بقدوم العيد واستعد لها أيَّما استعداد وأغدق على (الغريب) ورفاقه من المشردين بالعطايا احتفالًا بالعيد. لكن كان هذا حلمًا صعب المنال في هذا الوقت في قرية تقع على مفترق الطرق بين قرى ثائرة وجبال مشتعلة.

وصل الدون (خوان النمساوي) وجيشه الكبير الذي سلّحه بأثقل وأحدث المعدات إلى غرناطة ومكث بها بضعة أيام يجهز نفسه لحملة قوية وسريعة وحاسمة على الثوار في قرى البشرات ثم أتاه الأمر من الملك فيليب الثاني بالتحرك فقسّم الجيش الكبير إلى ثلاثة جيوش وزّعها على أرجاء الجنوب الأندلسي قاد هو بنفسه أكبر هذه الجيوش واتجه ناحية الشمال الغربي من غرناطة في اتجاه معقل الثوار في (غليرة) و(سيرون) ليساعد في حصار (غليرة) مركز المتمردين؛ حيث يربض ماركيز (دي بلش) بجيشه منذ بداية ديسمبر ١٥٦٩م دون تحقيق أي نتيجة. وفي طريقه إلى (غليرة) كان يرسل بالسرايا إلى القرى المجاورة ليمشطوها بحثًا عن متمردين مختبئين أو جواسيسهم. وكانت (جواديكس) بالتأكيد في طريق الجيش من غرناطة إلى (غليرة)، وحيث إن هذه القرية من القرى المحايدة المهادنة فقد أرسل سرية صغيرة وترك للكابتن (خوسيه- فرَّاج-) قيادتها لسهولة المهمة.

تمادى (فرَّاج) في علاقته الآثمة مع الدون (خوان) المتمرد على أخيه الملك وعلى عشيقاته البليدات اللائي فشلن في إمتاعه ووجد في (فرَّاج) ضالته التي يعكس بها طريقة حياته وتفكيره ومنهجه في الحياة كمتمرد على كل التقاليد والعادات والملك وقيوده وإصراره على تصغيره من شأنه بالرغم من أخوّته وإن كانت غير شرعية. وصار (فرَّاج) هو محظية الدون (خوان) ورفيقه في الفراش معظم الليالي منذ خرجا من بلنسية فيشربان في الليل حتى يسكرا ثم ينغمسا في علاقة جسدية شاذة حتى يغلبهما التعب والنعاس. ومع تكرار الأمر عرف المحيطون بهما بهذه العلاقة الكريهة- كما هو شائع في هذا الوقت في كل الأوساط الملكية والكنسية والشعبية أيضًا- والتي لم يحاول الدون إخفاءها نكاية في أخيه الملك. وكلما اقترب (فرَّاج) من الدون تشتعل معه غيرة قواد الجيش واحتقارهم لـ(فرَّاج) وتصغيرهم من شأنه فكانوا يعاملونه معاملة العاهرات ومحظيات الأمراء والمخصيين وليس كقائد حربي أو مساعد استراتيجي. لذلك كان (فرَّاج) يسعى مندفعًا ليقوم ببعض الأعمال البطولية المبالغ

فيها فقط لإثبات ذاته أمام قادة الجيش الصارمين بينما كان الدون يخشى على (فرَّاج)- مدللِه- أن يصاب بأذى فأوكل إليه بهذه المهمة السهلة.
دخل (فرَّاج) القرية ومعه مائة فارس وأخذوا يبحثون في طرق ومنازل القرية عن متمردين فاستيقظ أهل القرية فزعين وأمرهم الجنود بالتوجه إلى ساحة المدينة أمام الكنيسة. اجتمع أهل القرية بالساحة فصاح بهم (فرَّاج) أنه ممثل للملك فيليب الثاني وقائد بالجيش الملكي وجاء باحثًا عن متمردين مختبئين في القرية. فخرج القس (أنوصان) وأخبره بحسم وثقة:
لا يوجد متمردون بهذه القرية. نحن نعيش في سلام إسبان وموريسكيون ولا نريد لشيء أن يفضَّ هدوء القرية وسلامها فارحلوا.
لم يعجب (فرَّاج) برد القس ولم يرد أن يعود للدون بأيدٍ خالية أمام قادة الجيش المتربصين به، فأمر رجاله بتفتيش الكنيسة، ثار القس واستنكر تفتيش بيت الرب لكن الجنود سارعوا بتفتيش الكنيسة حتى خرجوا ومعهم عشرة اللاجئين المشردين.
هؤلاء من النفوس التائهة التي طلبت حماية ورعاية الكنيسة وليسوا متمردين.
صاح (فرَّاج) بغضب وتحد:
بل إنهم متمردون أو جواسيسهم أو تابعوهم ويجب القبض عليهم. وقد أقبض عليك بتهمة التستر عليهم أيها الأب.
أثارت القس كلمات (فرَّاج) فوقف حائلًا بثبات بينه وبين اللاجئين قائلًا في غضب وحزم:
لن أتركك تأخذ هؤلاء المساكين.. لقد لجؤوا إلى حماية الكنيسة ولن تخذلهم الكنيسة أبدًا حتى ولو لم يكونوا مسيحيين. رسالة الرب كانت محبة وسلام ومسامحة مع الناس على مختلف أصولهم وأعراقهم ولم يكن بها حقد وكره وإبادة وإقصاء.. أنت لست من جيش الملك ظل الرب على الأرض لكنك من جيش الشيطان تخدمه ضد الإنسانية.. و..
أخرسته طلقة من بندقية (فرَّاج) استقرت في صدره ورمته مُضَرَّجًا بدمائه على الأرض جاحظ العينين وعلى عينيه تجمدت نظرة الدهشة. صرخ أهل القرية وهم يرون القس الطيب (أنوصان) يُردى قتيلًا في غمضة عين فصاح (فرَّاج) في رجاله بالقبض على كل الموريسكيين في القرية؛ حيث سيتم ترحيلهم تفعيلًا لقرار قديم من الملك بترحيل كل موريسكي غرناطة وأعمالها إلى قشتالة وأراجون فبدأ الجنود بالتنفيذ فورًا.
كان (الغريب) من بين عشرات الرجال الذين قبض عليهم وسط هذه الأحداث. كان من الصعب أن يتعرف على (فرَّاج) أو أن يتعرف عليه (فرَّاج) وسط عشرات الوجوه وتلك الأحداث العصيبة، فسار (فرَّاج) راجعًا إلى معسكر جيش الدون محملًا بعشرات الضحايا الموريسكيين وبـ(الغريب) أيضًا بينهم وهو مستسلم لقدره أيًّا كان وقد رمى بنظرة يأس إلى جثة القس (أنوصان) التي ارتمت على الأرض والكهان يبكونه.

(٢)

(غليرة) فبراير ١٥٧٠م
كاد (عُمير) أن يُجن بعد مرور شهرين على محاصرتهم بـ(غليرة) بواسطة جيش الإسبان بقيادة ماركيز دي بلش ثم انضم إليه جيش الدون (خوان النمساوي) لاحقًا ليحكم الحصار ويسرع من نتائجه. لم يكن يتخيل أن يتحول الأمر بغتة هكذا من حال إلى حال بعد أن كانت المبادرة في أيدي

الثوار المسلمين واشتعلت قرى البشرات بالثورة مدة عام وامتدت إلى العديد من القرى شرقًا وغربًا في الجنوب الأندلسي. بعد أن كان (عُمير) ينطلق بفرقته يهاجم ويغير ويحرر ويناور، صار قابعًا على أسوار (غليرة) كالفأر المحبوس مذعورًا في انتظار مصيره المحتوم بعد أن أفقدهم الشيطان (موندیخار) العديد من القرى الجبلية الأخرى وفعل بها وبأهلها الأفاعيل. كان اندفاع واستعجال وسذاجة (عُمير) تؤثر على حالته تلك فهو لم يتعود على حصار بل لم يخُض حصارًا طويلًا من قبل. على العكس من ذلك كان المجاهدون الأتراك قويي العزيمة والشكيمة ولديهم من الحلم والصبر والبصيرة ما يهدِّئ من روعهم ويوسِّع مداركهم ويجعلهم يفكرون بطريقة أكثر وضوحًا وعقلانية عن (عُمير).

لقد توطدت علاقته بالمجاهدين الأتراك بطريقة وثيقة مع مرور أيام الثورة منذ بدايتها منذ أكثر من عام منذ رافق القائد التركي (الكوسالي) في (إينوكس)، ثم كانت المرحلة الفاصلة في الثورة في أكتوبر الماضي حين وصل إلى القائد (ابن عبو) رسائل مسربة بين الأمير (ابن أمية) وبين الإسبان يتآمر فيها على (ابن عبو) والمجاهدين الأتراك وقياديين آخرين من الثورة مقابل تحرير أبيه وأخيه المسجونين بغرناطة. وعلى الفور اجتمع (ابن عبو) بعُمير وبقادة المجاهدين الأتراك (الحسين) و(كاركاش) و(نبيل) و(محمدي) في سرية وقرروا التخلص من (ابن أمية) ليحافظوا على الثورة واستمراريتها والقضاء على الخونة فيها. كان (عُمير) مع (ابن عبو) والمجاهدين الأتراك الذين قبضوا على (ابن أمية) في مقره في (لوشر) وحاكموه فأنكر كل التهم الموجهة إليه وأن الرسائل المنسوبة إليه مزورة لكنهم أجمعوا جميعًا على خلعه وسجنه ثم وجد قتيلًا بعد ذلك في محبسه وأصبح (ابن عبو) بعدها هو الأمير المطلق للمسلمين وأصبح المجاهدون الأتراك أهم أسلحته على الإطلاق.

كانت هذه الفترة التي شعر فيها (عُمير) أن الأتراك مخلصين حقًا للقضية الأندلسية وثورة المسلمين بها. لقد كان يتخيل أن ردَّة فعلهم في مثل هذا الموقف أن يرتحلوا عن البشرات عائدين إلى الجزائر متخلين عن الثورة والثوار بما فيهم من ضعف وخور وخيانة، لكنهم تمسكوا بالقضية أكثر من أصحابها وزادوا عن الثورة بدمائهم تاركين أهليهم وموطنهم. لقد ازداد (عُمير) ثقة وأخوّة للمجاهدين الأتراك بعد مقتل (ابن أمية) وأصبح لا يقوم بفعل ولا يدلي برأي قبل أن يتشاور معهم دون غيرهم. بالنسبة إليه أصبح من الجائز جدًّا أن يشك بأمر أيٍّ ممن يشاركون بالثورة من الموريسكيين أما المجاهدون الأتراك فلا يوجد سبب واحد للشك فيهم وفي دوافعهم. إنهم يعملون بدافع من دينهم ومبادئهم مهما كانت سلطة السلطان العثماني عليهم. وكان أكثر هؤلاء القادة الأتراك قربًا منه وثقة فيه الريس (محمدي) أكبرهم سنًا ورتبة وآخر من انضم إليهم في الخريف الماضي.

كان الريس (محمدي) بالرغم من قوته وشكيمته ووضوح رؤيته العسكرية لا يفتأ أن يجلس وحيدًا شاردًا لبعض الوقت يفكر فيمن تركهم خلفه. جاء الريس (محمدي) على شواطئ ألمرية مع دعم جزائري من فرقة كاملة للإنكشارية مكونة من أربعمائة رجل محملة بالعدة والعتاد؛ حيث استقبله القائد التركي (الحسين). لم يكن دعمًا كبيرًا في العدد كالسابق بعد أن أخذ الأمير (أولوج عليّ) معظم قواته وقوادسه إلى شرق المتوسط تنفيذًا لأمر السلطان العثماني. لكن مهمة الريس (محمدي) كانت استراتيجية أكثر منها عسكرية فقد كانت مهمته توحيد قيادة الثوار المشتتين وتوجيههم ومساعدتهم على التخطيط والتنسيق الداخلي والخارجي برًّا وبحرًا والأكثر من ذلك توثيق العلاقة بين الثوار والمجاهدين الأتراك. لكن (محمدي) لم يأتِ وحده. أصرت زوجته (ناجية- حمدة) على مرافقته هي ووليدهما (نجم الدين):

هذه أرضي وهي الدماء التي تسري في عروقي.. وأنت زوجي وحبيبي الذي يسكن في قلبي فلن أتخلى عن أي منكما وسأرافقكما مهما كانت الظروف ومصيري مرتبط بمصيركما سويًّا.
حاول إقناعها بالبقاء في الجزائر فأبت قائلة إنها أرض غريبة عليها مهما كانت آمنة. فاصطحبها معه وابنهما (نجم الدين) الصغير. عبرت البحر معه على قادس وتجنبت الخروج من قمرتها فمشهد الأمواج العالية والبحر الممتد يصيبها بالقشعريرة والرعب. وصلوا إلى شواطئ مهجورة بعيدة لألمرية ونجحوا في التسلل بفرقة الإنكشارية ومعداتهم دون أن ينكشف أمرهم. وفي رحلة خطيرة شمالًا من ألمرية درس (محمدي) الوضع الجاري للثورة مع (الحسين) وقرر أن ينضم للثوار في (غليرة) المركز الأقوى لهم في ذلك الوقت. ولكن بحكم خبرته السابقة فاصطحاب زوجته وابنهما إلى (غليرة) فيه من الخطر الكبير عليهما فهيَّأ لهما منزلًا آمنًا في قرية (بيليث بلانكو) الهادئة التي تقبع في حضن سفح الجبال وعلى مسافة قريبة من (غليرة) و(سيرون) الثائرتين في الاتجاه المعاكس لغرناطة بعيدًا عن الجيوش الإسبانية المتتابعة. استأجر منزلًا في أطراف القرية واستأجر خادمة موريسكية أمينة لخدمتهما ثم عهد إليهم بأخلص أتباعه (مراد) ومعه أربعة من الإنكشاريين لحمايتهم أثناء غيابه. وظل هو يتردد عليهم بين الحين والآخر في سرية وخفاء.
مراد.. لقد استودعتك زوجتي (ناجية) وابني (نجم الدين). احمهما في غيابي ودافع عنهما بروحك أنت ورجالك. فإن وقعت شهادتي فمهمتك توصيلهما إلى الجزائر إلى الأمير (أولوج عليّ).
لا تخف شيئًا يا سيدي.. لن يمس هلالنا ولا نجمنا شيئًا. هذا عهد الإنكشارية والإنكشارية لا يحنثون بعهودهم أبدًا.
ثم شارك في فتنة (ابن أمية) وكان (محمدي) أحد رجال (ابن عبو) الأثيرين الموثوق فيهم عندما نصحه (محمدي) بخلع (ابن أمية) من الإمارة ما دامت أحاطته الشكوك حتى وإن كانت زائفة، وأن يتولى (ابن عبو) بنفسه الإمارة وأنه يضمن له الدعم الجزائري التام من الأمير (أولوج عليّ) لاستتباب الأمر له وأنه هو ورجاله من الإنكشارية سيكونون سلاحه ضد الخائنين. وبرغم أنه لم يكن راضيًا عن قتل (ابن أمية) إلا إنه لم يقف حائلًا ضد تنفيذه. لكنه الآن محاصر في (غليرة) منذ شهرين لم يستطع خلالهما التسلل خارج (غليرة) وزيارة زوجته وابنه. وبالرغم من أنه على أتم الثقة في (مراد) ورجاله الإنكشاريين الأشداء المخلصين إلا أنه يشعر دائمًا بالقلق عليهما والحنين إليهما فيشرد بين حين وآخر.
كيف نكسر هذا الحصار يا ريس (محمدي)؟ لقد مللت المكوث عاجزًا سجينًا.
أفاق الريس (محمدي) من شروده وابتسم لـ(عُمير) قائلًا:
لا تتعجل الأمور يا (عُمير). حصار المدن والقلاع قد يأخذ شهورًا طويلة والصبر أحد مفاتيح النصر. وهل تعتقد أن الإسبان سينتظرون وقتًا أطول من ذلك.
الشتاء ينحصر والربيع يقبل وبعده الصيف فمن الوارد أن يطول أمد الحصار، لكني أعتقد أنه مع انضمام جيش (خوان النمساوي) سيتعجل الإسبان الاقتحام فلا يزال هناك العديد من القرى التي يريدون إخضاعها بسرعة أيضًا.
إذن ماذا نفعل برأيك؟
فكر الريس (محمدي) طويلًا ثم انتقل ببصره عبر السور الذي يعتلونه بين معسكر الإسبان من جهة وبين داخل القرية من جهة أخرى وما بها من نساء وأطفال وعجائز ثم قال:

الرأي العسكري السديد أن نتخلى عن (غليرة) فلا نملك الأدوات أو الدعم الكافي للصمود أمام مدافعهم طويلًا. وبينما ينشغل الإسبان باقتحامها نقوم بإحكام فخ جديد لهم في خطوتهم القادمة.
نتخلى عن (غليرة)؟! هذا مستحيل! إنها أكبر معاقل الثورة.
عندما تتقن استراتيجيات المعارك تعرف أن حروب العصابات تلك لا معاقل لها. أنت تتخلى عن وكر للثورة لتنشئ وكرًا جديدًا في مكان أفضل آخر تستنزف فيه عدوك لتبقي الثورة حية أطول أمد ممكن.
هذه ليست حرب نظامية يا (عُمير) بين جيشين نظاميين تنتهي باقتحام العاصمة.
وماذا عن هؤلاء المساكين؟
تنهد (محمدي) تنهيدة حارة وقال آسفًا:
للأسف هؤلاء هم ضحايا الحروب يا (عُمير). مهما حاولت إنقاذ أكبر عدد منهم سيسقط منهم السواد الأعظم. هذا هو الجانب المظلم من تلك الحرب التي لا نستطيع تجنبه أبدًا.
نظر (عُمير) إلى القرية غير مصدق أن تنتهي الثورة الإسلامية في (غليرة). القرية التي ظن أنها ستكون هي النواة للدولة الإسلامية بالأندلس. في صباح اليوم التالي انطلقت مدافع الإسبان العنيفة على الأسوار بكثافة غير مسبوقة.
أخذت أسوار (غليرة) تتهاوى واحدًا تلو الآخر وأخذ الجنود المسلمون في السقوط قتلى بالعشرات. وبالرغم من محاولات القائد (بن مليح) قائد الحصن صد الهجوم الإسباني إلا أنه قتل ببسالة تحت الأنقاض ومع مقتله انهارت المقاومة فجأة بالرغم من محاولة (عُمير) ومعه (محمدي) وبقية المجاهدين الأتراك الرد على الهجوم الإسباني العنيف وبدأ كلٌّ ينجو بنفسه من الثوار تحت زخات المدافع فبدأت وحدات الجيش الإسباني الراكبة والراجلة في التحرك لاصطيادهم وبدأت المذبحة تتخطفهم واحدًا تلو الآخر. عندما أدرك (محمدي) أنه لا فائدة من الصمود في هذا الموقف الضعيف صاح بـ(عُمير) أن يتخلى عن موقعه لأنه انكشف تمامًا وأصبح هدفًا سهلًا للمدافع وليصحبه فورًا للناحية الجنوبية من السور. وفعلًا بمجرد أن تخلى (عُمير) عن موقعه على السور هو ورجاله انهار السور تمامًا بعد أن أصابته قذيفة مدفعية مباشرة. لم يصدق (عُمير) أنه قد نجا للتو من الموت بفضل (محمدي). انطلق (عُمير) وبعض ممن تبقى من رجاله بصحبة (محمدي) ورجاله من الإنكشاريين ناحية السور الجنوبي.
كان هروبهم من مجزرة (غليرة) معجزة حقيقية. اقتحم جيش الدون (خوان) (غليرة) بعد أن أمطروها بالقذائف المدفعية. فعاثوا في القرية وحصنها فسادًا وتقتيلًا في الناس من الجنود والعزل بل إنهم قاموا بتخريبها ونشر الملح على أرضها حتى تبور ولا تستزرع أبدًا وقاموا بإعدام مئات من الجنود المأسورين من المسلمين والمجاهدين واغتصبوا واسترقوا آلاف النساء والأطفال قبل أن يرحّلوهم في أفواج إلى مراكز الترحيل إلى قشتالة وأراجون. بالرغم من انشغال (محمدي) على زوجته وابنه إلا إنه لم يكن ليضيع هذه الفرصة وقد صار الوقت عنصرًا مهمًّا في نصب كمين لجيش (خوان النمساوي) على مشارف (سيرون) هدفهم المنطقي المقبل. انضم إليهم (هرناندو الحبقي) كقائد عام للثوار بعد مقتل (بن مليح) في (غليرة). أخذ الثوار والمجاهدون بالعمل سويًّا على قدم وساق في الاستعداد لصد الهجوم المرتقب لجيش الدون (خوان) وإحكام فخ لقواته. وفعلًا جاءت الأنباء باقتراب جيش الدون (خوان) استعدادًا لاقتحام (سيرون) التي مكثت في أيدي الثوار منذ الصيف الماضي.
تقدمت قوات الدون (خوان) في فوجين الفوج الأول بقيادة القائد (ريكويسنس) والفوج الثاني بقيادة (كيخادا) معلم (خوان) ورفيقه. اقتحم الجنود المهاجمون خطوط المسلمين الدفاعية على الفور فتشتتت

خطوط الثوار وانطلقوا هاربين إلى الجبال وإلى داخل المدينة فظن الجيش المهاجم أن الأمور قد حسمت بهذه السرعة. انطلق الجنود الإسبان إلى داخل المدينة مشتتين بين طرقها ودروبها استعدادًا للسلب والنهب، لكن بعد أن أوغلوا داخل القرية ارتفعت خيوط من الدخان من منازل القرية بطريقة غريبة مفاجأة جعلت الإسبان في حيرة من أمرهم. لكن المفاجأة الحقيقية حدثت عندما نزلت أسراب من الجنود المسلمين بقيادة (الحبقي) عبر ممرات الجبال المحيطة إلى القرية في سرعة خاطفة ثم انفتحت أبواب منازل القرية جميعًا كأبواب الجحيم وخرج منها الجنود المسلمون والأتراك الإنكشارية تلتحم مع الجنود الإسبان المذعورين وجهًا لوجه وجسدًا لجسد وسيفًا لسيف. كانت مفاجأة مزدوجة شلت الجنود الإسبان عن الحركة والتفكير لبعض الوقت خاصة وأنهم تشتتوا في الطرقات والأزقة فانفرط عقدهم وفقدوا الاتصال بقيادتهم حتى بدأ القتل والذبح يشيع فيهم من الجهتين فالفرسان المسلمون الراكبين هبطوا عليهم من السماء كالسيل والجنود الأتراك الراجلين ومن معهم خرجوا عليهم من أبواب المنازل. حتى النساء والأطفال صعدوا إلى أسطح منازلهم وقذفوهم بالحجارة والماء المغلي. أخذ الجنود الإسبان يتساقطون بالعشرات تحت أعين الدون (خوان) الذي كان يراقب المعركة من تلٍ بعيد. حتى إن الإسبان كانوا يقصدون المنازل ليختبئوا فيها فكان الأتراك يحبسونهم بها ثم يشعلون فيها النيران فيحترقون أحياء. كانت مقتلة عظيمة قتل فيها مئات الجنود من الإسبان كذلك قتل دون (كيخادا) معلم الدون (خوان) المقرب منه.

كان فخًّا محكمًا صممه الريس (محمدي) ووافق عليه القائد (الحبقي) وانضم (عُمير) إلى (محمدي) في القوات الأرضية المختبئة في المنازل بينما قاد (الحبقي) فرقة الفرسان المغيرين من الممرات الجبلية التي يعرفونها جيدًا بعد أن شاهدوا إشارة الدخان المتفق عليها ثم الهجوم المزدوج على الإسبان.

كان (فرَّاج) مرافقًا للدون (خوان) على التل يشاهد سير المعركة. حين بدأت المعركة وظن الجميع أنها محسومة للإسبان طلب (فرَّاج) المندفع من الدون أن ينضم برجاله في المشاركة بالسَّبي والغنيمة فوافق الدون (خوان) عندما اطمأن على نتيجة المعركة. ما إن دخل (فرَّاج) برجاله إلى القرية وسار في طرقها حتى تحوّل سير المعركة بغتةً فتشتتت فرقته من الجنود محاولين النجاة بأنفسهم. فجأة وجد (فرَّاج) نفسه وحيدًا فانطلق هو الآخر باحثًا عن ملجأ يحتمي به فوجد منزلًا قصده بعض رجاله فركض نحوه بسرعه. لمحه بعض الجنود الإنكشارية فنادى زملاءه وقاموا بإيصاد الباب من الخارج ثم رموا على سقيفة المنزل شعلات من النيران. فوجئ (فرَّاج) وبعض رجاله المحبوسين في المنزل بالدخان يتصاعد من حولهم وألسنة النيران تستعر رويدًا رويدًا. صرخ في رجاله أن يبحثوا عن مخرج حاولوا وفشلوا فصرخ فيهم مجددًا وأخذ يسعل من كثافة الدخان دون جدوى. حاول وحاول وأخذ يطرق الأبواب الموصدة ويصرخ مستنجدًا حتى سقط على الأرض بين الحياة والموت. وبدأ عقله يهلوس بخيالاته بعد أن فقد الهواء النظيف وأخذ يسترجع نفس المشهد الذي عاشه يوم من الأيام مع اختلاف الأدوار فظن أنه يرى أمامه بين سحب الدخان أمه وأخاه (طاهر) وهما يراقبانه بجمود وعلى وجهيهما ندوب الحروق المقززة:

هل عرفت الآن شعور الموت حرقًا يا (فرَّاج)؟

قالتها أمه وهي تنظر إليه بجمود الموتى. فأخذ يشيح بيديه في وجهها لتبتعد عنه:

لا.. لا.. اذهبي بعيدًا.. لن أحترق.. لن أموت بعد كل هذا..

سيذوب جلدك.. وستشعر بكل أنملة في جسدك وهي تحترق وتذوب.. حتى عينك الوحيدة الباقية سيحترق جفنها وينسال ماؤها.. ستستنشق الدخان وستسعل حتى تنفجر رئتاك حتى الموت.. هذا هو شعور الجحيم يا ولدي. الجحيم الذي تستحقه.. لأنك مسخ.. مسخ.. مسخ!
أخذ يصرخ ويصرخ ويرفض ويستنكر:
لا.. لن أذهب أنا إلى الجحيم.. الجحيم لكم أنتم وحدكم..
حتى انتشلته يد أحد الجنود الإسبان الذي اقتحم المنزل المشتعل واستطاع أن ينتشل جسد (فرَّاج) قبل أن ينهار المنزل المحترق على بقية الجنود. استند (فرَّاج) على الجندي وبدأ يستعيد وعيه رويدًا رويدًا بعد أن استنشق هواء نظيفًا ووقف مترنحًا على قدميه مستندًا على الجندي الذي أسنده إلى حائط قريب ليتفحصه:
الموريسكيون الملاعين يحاوطون بنا من كل جانب.. سأذهب لأحصل على جواد نهرب به من هذا الجحيم.
قالها الجندي وقبل أن يعتدل ليذهب فوجئ (فرَّاج) بذلك الشبح المراقب لهما بين سحب الدخان. كان (عُمير) يقف أمامهما بسيفه مشدوهًا وهو لا يصدق ما شاهده بعينه. (فرَّاج) الذي اتهم في قتله حرقًا منذ سنوات جعلته يفر من بلد إلى بلد يُبعث حيًّا من جديد من بين رماد منزل مشتعل آخر. وكأن قدرهما يرتبط سويًّا وتتكرر نفس الأحداث مع اختلاف الظروف. لقد تعرف عليه للوهلة الأولى بالرغم من ملبسه العسكري وشكله المتغير. لم يصدق (فرَّاج) عندما تعرف على (عُمير). كيف نجا من كل هذه الأخطار التي كانت محدقة به؟ كيف هرب وأتى إلى هنا عبر آلاف الأميال؟ ولماذا هنا بالذات والآن بالضبط؟:
لم أرد في حياتي انتقامًا أجمل من هذا..
قالها (عُمير) وهو يضغط بأسنانه على كل حرف غيظًا وغضبًا. لقد جاء أوان الانتقام ولن يردعه أحد. ارتعد (فرَّاج) فصرخ في الجندي:
اقتل هذا الموريسكي اللعين الآن..
لم يتردد الجندي وأخرج سيفه من جعبته وبدأ في مبارزة (عُمير) في زقاق ضيق. كان الجندي الإسباني أقوى جسدًا وأكثر مهارة من (عُمير) فأخذ (عُمير) يتقهقر تحت ضربات سيفه حتى سقط (عُمير) على الأرض وسقط منه سيفه واستعد الإسباني لقتله لكن انشقت الأرض عن الريس (محمدي) وانطلقت طلقة من بندقيته في اللحظة الأخيرة لتُردي الجندي الإسباني قتيلًا وتنقذ (عُمير) من موت محقق مرة أخرى. اعتدل (عُمير) بسرعة يبحث عن (فرَّاج) لكنه اختفى فجن جنونه حتى ظن للحظات أنه كان شبحًا غير حقيقي من خياله. لم ينتظر (فرَّاج) نتيجة المبارزة وأطلق لرجليه الرياح من زقاق إلى زقاق ومن شارع إلى شارع يحتمي بجندي هنا أو هناك ثم استلَّ جوادًا من أحد الإسبان وأخذ يعدو به بأسرع مما يستطيع هروبًا من أشباح الماضي التي تلاحقه في كل مكان عندما ظن أنها نسيته إلى الأبد. وبينما كان المسلمون في (سيرون) يحتفلون بهزيمة الإسبان وتكبدهم خسارة فادحة لأول مرة منذ وقت طويل. كان (عُمير) يغلي من داخله وهو يفكر في ذلك الشبح الذي أتى من الماضي ليحاربه في حلمه.

(٣)

غرناطة مارس ١٥٧١م

ما الذي فعلناه حتى تكون تلك هي النهاية يا (الغريب)؟
قالها (عُمير) وهو مقيد بالأصفاد ملقى على الأرض في سجن غرناطة وهو مثخن بالجراح والسحجات في كل جزء من جسده وبجواره كان يجلس (الغريب) يائسًا دافنًا رأسه بين قدميه وهو في حالة يرثى لها. وكانا كلاهما معزولين عن باقي سجناء وأسرى المتمردين الموريسكيين المتبقين بعد أن خمدت الثورة وانتهت شعلتها.
هي نهاية مثل كل النهايات التي تنتظرنا.. الموت غرقًا.. الموت في جحور الديدان.. الموت بين المدافع والبارود.. الموت حرقًا في الساحات.. كلها سيّان!
شرد الاثنان يتذكران كيف وصلا إلى سجن غرناطة وكيف ترافقا مرة أخرى بعد أن افترقا على مشارف (غليرة) منذ أكثر من عام.
ظل (الغريب) مأسورًا لدى الإسبان بعد أن ألقي القبض عليه في (جواديكس) واعتباره ورفاقه من جواسيس الثوار المنتشرين في كل مكان ولهذا لم يُضم لمخيم ترحيل الموريسكيين لقشتالة وأراجون بل ظل ضمن عشرات الرجال في أحد سجون سهل (البدول)؛ حيث معسكر جيش الدون (خوان). في الوقت نفسه وفي نفس المعسكر كان (فرَّاج) يقوم بعمل بعض التحقيقات مع الأسرى الموريسكيين بحثًا عن معلومات تساعده في الوضع العسكري المتأرجح. فكان بين الحين والآخر يأمر الحارس باستدعاء أحد الأسرى عشوائيًّا ويقوم باستجوابه بشتى الطرق. هذه المرة قام الجندي باختيار (الغريب) وساقه في أصفاده إلى غرفة (فرَّاج) الذي كان منشغلًا على مكتبه الخشبي يكتب أمرًا ما ثم سأله بعدم اكتراث دون أن يلتفت إليه:
ما اسمك؟ ومن أين قرية أتيت؟
رد (الغريب) ببطء واستسلام:
(أنخليتو) من (أوليبا) بمملكة بلنسية.
وقع الاسم على أذن (فرَّاج) كوقع الرعد فرفع رأسه بسرعة ووسعت عينه الوحيدة على أقصى اتساع لها وهو يرمق (الغريب) بتفحص. انتبه (الغريب) لردة فعله فأخذ يتفحصه بدوره. نعم إنه (فرَّاج) بعين وحيدة وشعر قصير وزي إسباني عسكري. أشار (فرَّاج) للجندي بالخروج من الغرفة دون أن يرفع بصره عن (الغريب) ثم تقدم ببطء إليه:
أي حظ ألقى بمليك السماء (الغريب) إلى (فابريسيو) المسكين مسخ (أوليبا)؟
(فرَّاج)؟! ماذا تفعل هنا؟ ولماذا تنضم للإسبان؟ وماذا حدث لعينك؟ ألم تمت حرقًا في منزلك؟
ضحك (فرَّاج) ضحكة متهكمة:
يا لك من غرٍّ ساذج يا (أنخيليتو). تلك السذاجة التي دفعتك أن تظن أن أحدًا ما سيترك لك المهرة الجميلة تنالها وحدك.
لم يفهم (الغريب) شيئًا مما قاله (فرَّاج) فاستمر صامتًا وفي عينيه ألف سؤال.
يبدو أنك قد نجحت في الهروب من جحور الديدان في (ألمادن) بعد أن مصَّت دماءك أليس كذلك؟
ازدادت دهشة (الغريب) لمعرفة (فرَّاج) عن أخباره في (ألمادن). فأكمل (فرَّاج):
ويبدو أنك قد التحقت بالثوار مع (أوريليانو).
ابتلع (الغريب) لعابه قلقًا من كلامه وتبعاته ثم قال مترددًا:
لم أنضم للثوار ولا لغيرهم. لا تحتاج أن تلفق لي اتهامات.

ضحك (فرَّاج) ضحكة مجلجلة قبل أن يضع ساقه على المكتب الخشبي في مواجهة (الغريب) وقال بتعجرف:
أنت على حق. أنت أتفه من ذلك يا (أنخيليتو). أنت أتفه حتى من (أوريليانو) الذي صار قائدًا بين المتمردين. أو (بيليتا) التي صارت سيدة الحانات ببلنسية. أو حتى أنا تابع الملوك ورفيقهم.
لم يكن لدى (الغريب) أي نية أو جهد لمجادلة (فرَّاج). وبرغم عشرات الأسئلة التي تراوده قرر تجاهله مهما كانت النتائج. أما (فرَّاج) لم يكن ليتركه دون التلاعب به كما يحب ويبرع:
حتى (إيلينا) فشلتَ في حمايتها والهروب بها وتركتها تغرق.
تدغدغت مشاعره حينما أتى على ذكر (حمدة) وموتها فلم ينتبه لكمِّ المعلومات التي يعلمها ذلك الثعبان عنه فنكَّس رأسه وقال:
لا تحتاج لأي من هذا. لست عدوًا لك ولم أكن أبدًا عدوًا لك لكل هذه الشماتة.
بل كلكم أعدائي.. كل من كان في (أوليبا) عدو لي. ويجب عليكم أن تشاهدوا المسخ الذي سخرتم منه وهو يتحكم في مصائركم ويمتلك حيواتكم بين إصبعيه.
ما هذا الهراء؟ لم ندعك يومًا بالمسخ، ولم نبعدك عنا. أنت من اختار طريقه بعيدًا عنا ظانًّا أنه الطريق الأسهل والأصوب والأسرع. أنت من تباعدت عن الموريسكيين الحقراء كما دعوتهم بنفسك كما لو كانوا موبوئين مدنسين لتنضم إلى الأسياد حتى تلعق من عسلهم.. انظر..
ثم كشف عن ساقه وبها ندبة الجرح القديم:
هذا الجرح عندما كنا أنا وأخوك نعدو بين الأسطح حتى نأتيك بالدواء يوم أن مرضت بالحمى. لم يدنس أحد براءتنا برغم ما واجهناه من ذل وقهر وظلم. وتدعوني بعدو لك؟! انظر إلى نفسك في المرآة يا (فرَّاج) تعرف من هو عدوك. أنت تستحق الشفقة لا العداء.
نزلت كلمات (الغريب) على (فرَّاج) كماء بارد على جمر متقد. لقد شعر أنه قد حوصر بكلام أصاب جانبًا من حقيقة لم يطرقها بعد ومنظورًا لم يره قط. استدعى الجندي وأمره بأخذ (الغريب) وعزله عن بقية السجناء دون أن تتلاقى عينه بعيني (الغريب). ثم جلس شاردًا في كلماته بينما ظل (الغريب) في الأسر منذ ذلك الوقت حتى انتقل إلى سجن غرناطة مع من قُبض عليهم من المتمردين الموريسكيين.
أما (عُمير) فأخذ يتذكر كم كانوا قريبين من النصر حتى انقلب كل شيء رأسًا على عقب وصار بهم الحال من الهجوم والانتصار إلى التقهقر والدفاع ثم التفاوض المهين ثم الهروب كالفئران المذعورة حتى السقوط في شباك الإسبان كالأرانب البرية.
بعد انتصار (سيرون) شعر الثوار بنشوة زائفة وشعور غير حقيقي بالقوة. فبعد عدة أيام أرسل الملك فيليب الثاني بالدعم للدون (خوان) آمرًا إياه بالانتهاء من هذا التمرد بالقوة أو بالتفاوض في أسرع وقت حتى يتفرغ لحرب بحرية مرتقبة مع العثمانيين يعد لها في شرق المتوسط بالاتحاد مع البندقية وبضغط من بابا روما. كان الضغط شديدًا على الدون (خوان) لإنهاء التمرد وكان يستطيع أن ينهيه بالقوة لو أن المتمردين جيش نظامي مهما كبر في العدة والعتاد. لكن عصابات المتمردين منتشرة في الجنوب الأندلسي كالطاعون يقضي على جيب ثائر فيبزغ آخر في مكان جديد ولهذا أيقن ضرورة التفاوض مع الثوار لإنهاء المواجهات المسلحة. وحتى يبدأ التفاوض من موقف قوة كان لابد له أن يعيد هيبة جيشه بعد فخ (سيرون). جاءه دعم ببضعة آلاف من الجنود الإيطاليين كانوا في طريقهم إلى حرب الأرض الواطئة فوجههم الملك فيليب الثاني إلى الجنوب لدعمه. ما إن وصل الدِعم حتى

هاجم (خوان) بكل قوته على (سيرون) فاكتسحها وقضى على كل من فيها. كان هجومًا عنيفًا غاضبًا سبّبه فخ (سيرون) المخجل ومقتل معلمه (كيخادا) ومقتل أكثر من ستمائة جندي إسباني فيها إضافة إلى جرح الدون في رأسه بطلقة بارود طائشة بل كاد عشيقه (خوسيه- فرَّاج-) أن يُقتل أيضًا. لم يتوقف الأمر عند (سيرون) بل أخذ يتتبع خطوات الهاربين من قرية إلى قرية ومن حصن إلى حصن حتى كاد أن ينهي على الثورة في ألمرية شرق البشرات بعد أن قُتل المئات وسُبي الآلاف من النساء والأطفال والعجائز ثم أصدر الأوامر لرجاله بترحيل كل الموريسكيين من الجنوب وقرى غرناطة إلى الغرب والشمال في قشتالة وأراجون وأشبيلية عبر تجمعات لمخيمات الترحيل. ودفع بدوق (سيسة) مع جيش قوامه عشرة آلاف فارس لتواجه الثوار في شمال البشرات.

نجح الدون (خوان) في إخافة الثوار، وتشتَّت آراؤهم ما بين الهروب للمغرب أو القتال حتى آخر رجل أو قبول التفاوض. اضطروا لقبول التفاوض للمرة الأولى عبر أحد معارف (ابن عبو)؛ حيث تم تبادل الرسائل الممهدة للتفاوض بإلقاء اللوم المتبادل بين الإسبان والمسلمين على أسباب اشتعال الثورة ثم وافق (ابن عبو) على التفاوض وعين (الحبقي) على رأس المفاوضين الممثلين له. وبدأ الفريقان بالتفاوض المباشر لوضع النهاية للصراع المسلح.

على الجانب الآخر خرج (محمدي) من (سيرون) بعد الانتصار على الإسبان واتجه إلى أسرته في (بيليث بلانكو) بينما نجا (عُمير) وبعض من فرقته عندما حدث الهجوم الكاسح على (سيرون). لم يجد (محمدي) بدًا من أن يصطحب زوجته (ناجية) -(حمدة)- وابنه (نجم الدين) وحراسهم معه إلى قلب قرى البشرات الجبلية الثائرة القليلة الباقية.

أما (فرَّاج) فقد استعاد توازنه بعد نجاته من فخ (سيرون) لكن ظل يستعر بداخله من الغضب بعد أن واجه (عُمير) وجهًا لوجه مرة أخرى وتعرَّف كل منهما على الآخر بعد سنين طويلة منذ واقعة العرس. ومع شعور (فرَّاج) بالغضب وضرورة الانتهاء من (عُمير) شخصيًّا ومن الثورة بأكملها، انضم إلى فريق المفاوضين الإسبان بعد أن طلب ذلك من الدون (خوان) فوافق بعد ليلة صاخبة قضياها سويًا. كان هدف (فرَّاج) واضحًا من انضمامه إلى المفاوضين وهو مراقبة المفاوضات والبحث عن أي ثغرات أو نقاط ضعف في فريق الثوار بقيادة (الحبقي) لتقوية موقفهم التفاوضي أو الخروج بأي معلومات تفيد الوضع العسكري. وفعلًا استغل (فرَّاج) مهاراته في قراءة العقول والبحث في بواطن الأمور وخلفيات كل واحد من الثوار المشاركين في المفاوضات فأصبح لديه معلومات كافية عن كل فرد مشارك من المفاوضين الثوار وعائلته وأملاكه بداية من (الحبقي) حتى أصغر جندي حارس معهم ثم لا يفتأ أن يدلي بنصيحة ما للمفاوضين الإسبان. مع حدوث تقدم إيجابي في المفاوضات نصح (فرَّاج) الدون (خوان) أن يُبقِي على (الحبقي) في ضيافته بعض الوقت دون سائر الفريق المسلم في قرية (وادي آش). وفعلًا حدث ذلك وبالغ الدون بالاحتفاء بـ(الحبقي) بعد أن توصل الفريقان إلى شبه اتفاق على تسليم الثوار أسلحتهم خلال عشرين يومًا والخضوع للملك فيليب الثاني وتعهد الملك بعدم ملاحقتهم بعد ذلك على أن يرحَّلوا ويخلوا قرى البشرات ويوطنهم الملك في أماكن أخرى بالمملكة. كان (فرَّاج) يعلم أن هذه البنود لن تعجب العديد من الثوار وربما لن تنال إعجاب (ابن عبو) نفسه. حتى أتباعه المرتزقة الأتراك لن يوافقوا عليها بالتأكيد وهنا سيحدث شرخ عميق في درع الثورة المهلهل بالفعل وسينقلب الثوار على أنفسهم مما يتيح لجيش الإسبان التفوق عليهم. ضيافة (الحبقي) ستكون هي بذرة الشك في ولاء (الحبقي) للثورة التي ستنمو منها شجرة الخلاف. كانت

خطة طموحة من (فرَّاج) أكملها باتفاقه مع (خوان دي سوتو) أمين سر الدون (خوان) بصياغة بنود الاتفاق بطريقة تبدو أكثر إهانة وتصغير من شأن الثوار مما تتيح لنمو بيئة خصبة للشك.
لم يكن يتخيل (فرَّاج) أن تنجح خطته ذلك النجاح الباهر. فبعد ضيافة (الحبقي) بـ(وادي آش) شعر (الحبقي) بالأمان والثقة فقام في اليوم التالي بالتوقيع على بنود الاتفاقية ثم قام هو وثلاثمائة من أتباعه بالاستسلام إلى الدون (خوان) في خيمته وتسليم أسلحتهم. ثم قام (الحبقي) بالرجوع إلى مقره في قرية (برشل) الجبلية وقام بإرسال نسخة الاتفاق إلى (ابن عبو) في مقره في قرية (مسينة). ثار (ابن عبو) وهاج وماج عندما قرأ بنود الاتفاقية المذلة والاستسلام المهين والترحيل القصري، ثم وردته الأخبار من جواسيسه عن الليلة الاحتفالية التي قضاها (الحبقي) في (وادي آش) تحت ضيافة الدون (خوان) ثم تسليمه للسلاح. كل هذا تم دون أن يرجع إلى (ابن عبو) فشعر بالتخاذل والخيانة من جانبه. أيد (محمدي) والمجاهدون الأتراك موقف (ابن عبو) ومعهم (عُمير) بالتبعية إذ كيف يتخذ (الحبقي) قرارًا مصيريًّا هكذا دون الاستشارة. على الفور أرسل (ابن عبو) برسالة إلى الدون (خوان) يرفض فيها البنود وأن (الحبقي) قد تجاوز صلاحياته كمفاوض فقط لكن الدون رد أن الاتفاق موقع عليه من (الحبقي) ممثل الثوار بإقرار (ابن عبو) نفسه.
على الجانب الآخر غضب (الحبقي) لتجاوز (ابن عبو) في حقه فاتفق مع الدون (خوان) على سريان الاتفاق وأنه سيقوم بنفسه بخلع (ابن عبو) وطرد المجاهدين الأتراك. كان الأتراك حاسمين دائمًا في أمورهم غير مترددين فأشاروا على (ابن عبو) القبض على (الحبقي). ومع تصاعد الأمور سار (محمدي) و(عُمير) بفرقة عسكرية إلى (برشل) وألقوا القبض على (الحبقي) بعد مناوشات مع حرسه وعادوا به إلى (مسينة) مقيدًا بالأصفاد تحت تصرف (ابن عبو). مرة أخرى قام (ابن عبو) ومساعدوه الأتراك بمحاكمة (الحبقي) كما فعلوا مع (ابن أمية) سابقًا وتوترت الأمور فأصدر الأمر بإعدام (الحبقي) فأعدمه (عُمير) بيديه وفي عينيه شرر الغضب:
أنت جاهل يا (عُمير).. جاهل وغبي.. لن تنجح ثورة بمثلك..
قالها (الحبقي) و(عُمير) يصوب بندقيته إلى صدره قبل أن يطلق النار ويرديه قتيلًا. ثم أمر (ابن عبو) بإخفاء جثة (الحبقي) حتى لا يحدث انقسام وسط الثوار فأخفوها في وادي عميق بالبشرات لا يصل إليه أحد. عرف الدون (خوان) بمقتل (الحبقي) فأرسل (ابن عبو) برسالة إليه يخبره بعدم اعترافه بالاتفاقية وأنه إن كان لا يزال يرغب في السلام فعليه إعادة التفاوض على البنود من جديد. سمح الدون (خوان) لـ(ابن عبو) بإرسال مفاوضين جدد للتفاوض في (وادي آش). انضم (عُمير) هذه المرة لفريق المفاوضين المسلمين بالتنسيق مع (هرناندو برادة) المفاوض المحايد.
ظهر جليًّا خلال المفاوضات صعوبة التوصل إلى اتفاق هذه المرة بعد تشدد (ابن عبو) في طلباته بعودة الوضع إلى ما قبل مرسوم ١٥٦٧م وعودة اللغة العربية والعادات الأندلسية وإقامة الشعائر الإسلامية بحرية وعدم الترحيل عن البشرات وغيرها فكان من المستحيل قبول الجانب الإسباني لشروط (ابن عبو) فرحل فريق الثوار دون إحراز أي تقدم. أثناء ذلك كان (فرَّاج) و(عُمير) يتبادلان سويًّا النظرات المتوعدة الغاضبة وكل منهما في جانب مضاد للمفاوضين. انفصلا عن واقع التفاوض وظلت عيونهما تتلاقى وتتصارع بنظرات التهديد والوعيد حتى انتهى الاجتماع ورحل فريق الثوار لكن (فرَّاج) لم يكن يريد لهذه المواجهة أن تنتهي دون أن يحرز أي نصر على غريمه، فخرج بجواده حتى لحق بفريق الثوار على أطراف المدينة ومعه جنديان فقط لحراسته دون أي نية لعراك. أدرك

(عُمير) (فرَّاج) يقترب بجواده منهم فالتفت إليه. توقف (فرَّاج) في مواجهة (عُمير) الذي قدم إليه فقال (فرَّاج):
هذا موقف يليق بك يا (أوريليانو).. تتفاوض لكسب بعض الوقت لا غير متنكرًا للنهاية الحتمية.. يا لك من جاهل غبي!!.
بل يليق بك يا (فرَّاج).. الشر الكامن فيك وضعك حيث تستحق في خدمة الشيطان وأتباعه!.
ضحك (فرَّاج) في تهكم قائلًا:
(فرَّاج)؟! لم أسمع هذا الاسم من سنين. (فرَّاج) مات هناك في (أوليبا) حين أشعلت بيته وقتلت أمه وأخاه ألا تتذكر؟
تتقن الكذب لكن الحقيقة لا يمكنك إخفاءها إلى الأبد أليس كذلك؟!
الحقيقة يكتبها الأقوى، والحقيقة الوحيدة التي أعرفها أنكم تنتهون يا صديقي.. وأنها أيام قليلة متبقية لكم ونعلق رؤوسكم على أبواب غرناطة أو نحرقكم في ساحة البَيَّازين كما حُرق أبوك في سوق (أوليبا) ألا تتذكر؟!
ابتلع لعابه وكانت هذه الذكرى الأليمة تهزه دائمًا لكنه استعاد جأشه قائلًا:
أنت تخفي رعبك ورعب أسيادك منا بتهكمك هذا وأستطيع أن أرى ارتعاد فرائصك في عينيك مثل ذلك اليوم في (سيرون) حينما كنت تجثو على ركبتيك هاربًا من البيت المشتعل. أرى ذلك بمنتهى الوضوح يا عشيق الدون!
قالها (عُمير) عامدًا إهانة (فرَّاج) بعد أن أشيعت العلاقة الآثمة بين الدون وبين (فرَّاج) وعرفها الجميع حتى الثوار. تجاهله (فرَّاج) وابتسم ابتسامة صفراء ثم قال في هدوء الثعابين:
حسنًا سنرى من سيجثو طالبًا العفو والرحمة..
رد له (عُمير) الابتسامة الصفراء ثم التف راحلًا لينضم لبقية فوج المفاوضين حتى استوقفه (فرَّاج) صائحًا:
ألم تعلم أن (ماديلينا) ابنة الدون (دييجو) ماتت!
وكأن طعنة رمح قاتلة قد نفذت من ظهره إلى قلبه فاستوقفته متجمدًا ثم التف بحدة واقترب بسرعة إلى (فرَّاج) وعلى وجهه علامات الغضب وشرر التطير:
ماذا تقول أيها التعس؟! (ماديلينا) لم تمت.
قال (فرَّاج) في هدوء وهو يستمد من إغاظة (عُمير) وغضبه مصدر قوته وحكمته وهدوئه وقدرته على التلاعب بعقله ومشاعره:
بل ماتت هذا الشتاء يا صديقي العزيز بعد أن تخليتَ عنها وتركتها. ماتت بسببك أنت وجن جنون أبيها الدون (دييجو) وفقد رشده.
دارت الأرض بعُمير وهو على جواده ولم يدر ما حدث بعد ذلك حتى وجد نفسه مرة أخرى بين الثوار في قرى البشرات. لم يدر كم من الوقت مر عليه وهو يجلس وحيدًا في كهف جبلي صامتًا متألمًا يجترُّ ذكراه مع (ماديلينا) وتلك الأيام القليلة التي عاشها معها وعرف من خلالها الحب ودق قلبه للمرة الوحيدة في حياته لها هي فقط. يغلبه البكاء أحيانًا ويغلبه النوم أحيانًا وهو يتذكر آخر حديث لهما:
بل قلبي من زجاج يتهشم حين أفقدك يا (أوريليانو).. هذا القلب وعدك أن ترجع لي مرة أخرى..

وسط صخب الأحداث لم يشعر أحد بـ(عُمير) إلا (محمدي). بالرغم من شكيمته وحزمه إلا أن اقتراب (عُمير) منه خلال الفترة السابقة جعله يشعر بشيء من البنوة له وصار يساعده وينصحه بأمانة وشفافية. فهوَّن (محمدي) على (عُمير) عذاب الفراق وألم الموت قدر الإمكان لكن (عُمَير) فقد نفسه ورشده وقلبه إلى الأبد، واستحال إلى شبح باهت مطموس.
أما (فرَّاج) فقد أدرك أنه قد أصاب (عُمير) في مقتل سيفقده صوابه لا محالة. منذ كان في بلنسية وجواسيسه المنتشرين في كل مكان ينقلون إليه الأحداث في بلنسية وما حولها من قرى. ومنهم من نقل له قصة (ماديلينا) ابنة الدون (دييجو) مع (عُمير) وأنها خبَّأته في منزلها شهورًا طويلة وأحبته وهربته من الشرطة قبل أن تسقط فريسة للأمراض حزنًا على فراقه. حاول أبوها نجدتها لكن ظلت الأمراض تلتهمها يومًا بعد يوم حتى ماتت وفقد أبوها صوابه وعقله حزنًا على فقدان ابنته الحبيبة وتولى (بيدرو) ابنه بعد ذلك مصالح الأسرة والإقطاعية.
بعد فشل المفاوضات أرسل (ابن عبو) عبر (برادة) رسالته الأخيرة للدون (خوان) أنه سيكمل طريق الثورة حتى النهاية حتى لو تبقى هو وحده يحارب. كان شعور (فرَّاج) أقرب للانتصار وهو يشاهد نتيجة مخططه الناجح في كسر وحدة الثوار، وفعلًا تحول هذا الصيف إلى خسائر فادحة للثوار وهروبهم من قرية إلى قرية ومع انقطاع المدد من المغرب والجزائر إضافة إلى العداء بين السعديين والعثمانيين وانشغال العثمانيين بشرق المتوسط وانشغال (أولوج عليّ) بتصفية جيوب الإسبان في تونس واستدعائه لشرق المتوسط أيضًا، ومع إحكام الحصار من جيوش الدون (خوان) المنتشرة عليهم أخذ موقف الثوار يضعف أكثر وأكثر. حاول (الغالب) أخو (ابن عبو) محاولة أخيرة بفتح نافذة جديدة للثورة في الغرب في جبال رندة وافتتحوا (الحصينة) و(أربوطو) لكن مع نهاية ذلك العام ١٥٧٠م تم تصفية الثورة في رندة وقامت جيوش دون (دي أركش) و(ريكويسنس) بتتبع الثوار بمنتهى القسوة والعنف حتى هرب الآلاف عبر البحر متجهين إلى شواطئ المغرب والجزائر. ومع بداية العام الجديد لم يتبق من الثورة إلا (ابن عبو) ومعه بضع مئات من أتباعه وبعض المجاهدين الأتراك منتشرين في كهوف جبال البشرات ومعزولين عن العالم ومعهم القليل مما يبقيهم أحياء.

(٤)

كهوف البشرات مارس ١٥٧١م
أيقظها (محمدي) وكانت تغط في نوم عميق بعد أن ظل (نجم الدين) ساهرًا حتى وقت متأخر من الليل في كهفهما الجبلي في عمق جبال وتلال البشرات؛ حيث كانت الكهوف التي يقيم بها آخر ما تبقى من الثوار مع الأمير (ابن عبو) وبضع مئات قليلة من جنوده مع العدد الشحيح الباقي من المجاهدين الأتراك يرأسهم (محمدي). صارت كل أسرة تقيم في كهف يتسع لهم منذ خريف العام المنصرم بعد نهاية الثورة في كل أرجاء قرى البشرات في غرناطة وألمرية ورندة. لم يبق إلا هؤلاء القلة القليلة الباقية؛ حيث أقسموا أن يظلوا على عهودهم وثورتهم حتى الرمق الأخير بقيادة (ابن عبو) أمير المسلمين الأخير. كان الكهف دافئًا بفعل مدفئة الحطب وكانت الخادمة الموريسكية تنام بجوار (نجم الدين) الصغير.
ماذا هناك يا محمدي؟
تعالي أريد أن أريكِ شيئًا ما.
هل نترك (نجم الدين)؟

دعيه نائمًا وسنعود قبل الفجر.
ألقت (حمدة) على طفلها نظرة حانية تطمئن عليه فوجدته نائمًا كالملائكة وقد توردت وجنتاه الرقيقتان من الدفء ثم قامت وتبعت (محمدي) متعجبة فأركبها (محمدي) الجواد خلفه ثم اطمأن أن حراس كهفه الأربعة من الإنكشارية مستيقظين متحلّقين أمام الكهف حول كومة حطب مستعرة ثم تحرك بالجواد في هدوء وصمت وتروٍّ عبر الممرات والطرق الجبلية الوعرة الضيقة التي تكاد تتسع لجواد واحد وتنحدر إلى الأسفل في بعض مواقعها بدرجة خطيرة لكن (محمدي) كمعظم ساكني الكهوف تعودوا عليها صعودًا إلى كهوفهم أو هبوطًا إلى سفح المرتفعات في الوادي. كان (مراد) ينتظر (محمدي) في أسفل الطريق الجبلي المنحدر ثم أشار له (محمدي) بالبقاء وعدم التقدم معهما. اتجه (محمدي) إلى أدنى مكان في سفح المرتفعات وعبر بجواده جدول ماء ضحل تكوَّن بفعل ذوبان جليد الشتاء على القمم حتى وصلا إلى مكان ملتف الأشجار فنزل من على الجواد وأنزلها ثم أخذها من يدها بهدوء إلى باطن شجرة عظيمة صنعت الطبيعة فيها تجويفًا هائلًا كونت غرفةً صغيرة وضع فيها (محمدي) شرشفًا ووسادة وأشعل قنديلًا صغيرًا صانعًا غرفة مبهجة دافئة للأحبة:
ما هذا؟
أدركت كم كنت مقصرًا معكِ يا حبيبتي خلال تلك الأحداث السابقة.
تلون وجهها بحمرة الخجل وقالت مبتسمة بغنج:
ألهذا أيقظتني وأتيت بي كل هذا الطريق؟
ابتسم وقال برقة:
حبيبتي.. أعتذر لك إن أتيت بك إلى هذا المكان الموحش الخطر. عبرنا بحارًا وجبالًا ووديانًا وخضنا معارك وقتل وسلب ما كان يجب أن تخوضيه أنت و(نجم الدين). هذا طريق المحاربين لا طريق الملائكة.
أنا من طلبت ذلك يا حبيبي ألا تتذكر؟
لم يجب عليّ الإنصات لكِ. تآمر الجميع على الثورة حتى ماتت ولم يبق إلا النجاة بأنفسنا.
ربَّتت على وجنتيه وقالت:
لا يهم يا حبيبي. ألسنا معًا أنا وأنت و(نجم الدين)؟ حتى ذلك الشبح الذي يقطن في ذاكرتي الممحوَّة أشعر براحة ما أنه قريب مني في مكان ما على هذه الأرض يشم هواءها ويشرب من مائها. في أي مكان نكون سويًّا يكون جنة لنا. انظر إلى السماء والنجوم ومنظرها يريح العيون، انظر إلى جدول الماء بجوارنا وصوت خريره يدغدغ الآذان، اشتم عبق الأشجار ورائحة الورود.
لم يتحمل (محمدي) ذلك الجمال المطلق والرقة العالية وصوتها ورائحتها ودفئها فانطلق يقبلها على فمها ووجنتيها ورقبتها ثم تسللت يديه إلى جسدها البض يتحسس منها ما برز منه وما اختبأ. تنهدت (حمدة) تنهيدة حارة واستسلمت ليديه وفمه وجسده في سلام وأرخت بجسدها على الشرشف وأحاطت جسده بذراعيها تضمه إليها أكثر وأقوى وأعمق. تطارحا الغرام تحت ضوء القمر والنجوم والطبيعة الغنّاء تحتفل بمتعتهما وروعتهما. تطارحا الغرام كأفضل ما يكون فلم يدَّخر (محمدي) قوة ولا متعة إلا قصدها ولم تدخر (حمدة) غنجًا أو صوتًا أو تأوهًا أو تلامسًا تشعل به حبيبها إلا وفعلته. تطارحا غرامًا أوصلها إلى مدارات النجوم صارخة بحب فاض بداخلها حدَّ كل متع الحياة وأغدق عليها سيلًا من الحنان ووهبها دفئًا سرى في أحشائها مسرى الحياة في جسد ميت. تطارحا الغرام وكأنها مطارحة أخيرة ليس بعدها أخرى، ثم انتهت الجنة وارتعشت الأوصال وانتفض الجسد واستسلمت

عيناهما للنوم متشابكين ذراعًا بذراع وجسدًا بجسد، وكأن عينيهما تحاولان أن تبقيا تلك الجنة بداخلهما أطول فترة ممكنة فناما آمنين كعروسين في ليلة زفاف.
قبل الفجر انطلقت صرخة أنثوية مدوية تستصرخ وصوتها يتردد صداه في الوادي الحجري كالنفير: قتلوا الأمير.. قتلوه.. قتلوا (ابن عبو).. النجدة يا أهل الكهوف.. النجدة يا أهل البشرات.
فزع (محمدي) عند سماعه صدى الصوت المتردد في أرجاء الوادي الحجري وانتفض من نومته الهادئة وقطرات العرق لم تجف بعد من على جبهته. كذلك قامت (حمدة) مفزوعة. اعتدل (محمدي) بسرعة وخرج من تجويف الشجرة يتطلع إلى الكهوف العالية فوق المنحدر فلم يرَ شيئًا قبل أن يسمع طلقات بارود مدوية. أتى (مراد) مسرعًا إلى (محمدي) وقبل أن يتكلم تهاوى جسد من فوق المنحدر في صمت وسقط تمامًا أمام ثلاثتهم بصوت مدوٍّ حتى انفجرت الدماء من رأس الجسد وتطايرت حتى أصابتهم. صرخت (حمدة) من وقع الجثة واقترب (مراد) بحذر منها وتعرف على (ابن عبو) مذبوحًا والدماء لا تزال تسيل من عنقه، فصرخت (حمدة) مرة أخرى. تزايد الصراخ الأنثوي في أرجاء الوادي وترددت الطلقات التي ضجت بسكون الليل وسُمع صوت جنود وأقدام وسيوف تصطك وآهات مكتومة وبدأت تتهاوى أجساد من فوق المنحدر. كان من الواضح أن شيئًا ما يدور في الكهوف بأعلى المنحدر. لا يمكن أن يكون هجومًا لجيش الإسبان في هذا المكان الضيق الذي حماهم طوال الشتاء فلم تجرؤ أي فرقة إسبانية على التقدم صوبه. أكيد أنها خيانة من بين الثوار. صرخت (حمدة) هلعة:
نجم الدين!!
تمالك (محمدي) نفسه وأمر (مراد) بالبقاء مع (ناجية) وحمايتها:
كما اتفقنا يا مراد. عهد الإنكشارية!
هز (مراد) رأسه موجبًا بعزيمة قابضًا يديه. اندفعت (حمدة) لتركب الجواد خلفه لكن (مراد) منعها وصاح فيها (محمدي):
لابد أن تنتظري هنا يا حبيبتي وسآتي بـ(نجم الدين) أعدك بذلك. إن أتيتِ معي ستبطئين حركتي وقد أفقد كليكما.
رضخت (حمدة) وجذبها (مراد) بعيدًا عن سفح الوادي وقد بدأت العديد من الجثث تتساقط كالأمطار مع صراخ مرعب مصاحب لسقوطها واختبئا في مكان خفي عن العيون.
انطلق (محمدي) كالسهم عبر الطرق والممرات الضيقة الرفيعة محاولًا في نفس الوقت التوازن على جواده حتى لا يميل الجواد وتزلّ أقدامه ويسقط من فوق الطريق الصخري المنحدر. لن يسامح نفسه إن أصاب ابنه مكروه. انطلق وهو يدرس الموقف محاولًا أن يتفهم الأحداث وملابساتها. وصل إلى قمة المنحدر؛ حيث الكهوف الجبلية المتناثرة وبدأ يشتم رائحة الدخان فازداد غضبه ويقينه من انتشار الإسبان في المكان فهي أساليبهم الشنيعة أن يحرقوا الأغصان والحشائش الجافة على مداخل الكهوف ليقتلوا من بداخلها من ثوار وأهاليهم خنقًا. وبالفعل توجه بسرعة إلى كهفهم وإذا به يرى مدخله مشتعلًا بالحشائش وأمامه جثث حراسه من الإنكشارية مقتولين غدرًا. لم يفكر (محمدي) كثيرًا واندفع إلى داخل الكهف بالرغم من النيران. قفز بأعلى ما يكون وسط اللهب عابرًا بوابة النار حتى دخل الكهف وسط سحابات كثيفة من الدخان فأخذ يسعل ويتلمس طريقه فورًا إلى مكان نجم الدين فلم يجده، لكن حمد الله عندما سمع صوت صراخه وسعاله فوجد الخادمة في أقصى ركن من الكهف وهي تحتضنه وتقيه من الدخان وقد أغشي عليها أو ماتت.

لم يكن هناك مفر من الخروج من الكهف حتى لا يموتوا اختناقًا فاحتضن صغيره في صدره ووضعه بداخل سترته ليقيه الدخان وانطلق بأسرع ما يستطيع وقفز مرة أخرى عبر خط النار حتى سقط خارج الكهف يتحاشى السقوط على النار أو على (نجم الدين). وما إن اعتدل واقفًا وجد أربعة بنادق لجنود إسباني موجهة إليه. في ثوانٍ درس (محمدي) الموقف باحثًا عن مخرج لكنه أدرك يقينًا أنها النهاية. لكنها نهايته هو ولا يجب أن تكون نهاية الصغير. فانطلق (محمدي) كالأسد الجريح وهو يحمل بذراعه الأيسر الطفل ويحاول أن يضرب بيمينه مصدًّرا كتفه الأيمن ليقي الصغير طلقات البارود التي انطلقت كلها صوب (محمدي) لكنه لم يتوقف وأخذ يصرخ ويضرب يمينًا ويسارًا بيد واحدة كالأسد. كانت محاولة يائسة من (محمدي) لإنقاذ الصغير الذي لا ذنب له في هذا القتال. جاءه المدد أخيرًا من (عُمير) ورفيق له انقضوا على الجنود الإسبان فقتلوهم بعد عراك شديد وقد كانوا في طريقهم للهرب من كهوفهم المشتعلة. اندفع (عُمير) ناحية (محمدي) الراقد على الأرض وعدله فوجد الطفل صارخًا باكيًا وقد تلقَّى (محمدي) عنه كل طلقات البارود في كتفه وعنقه وظهره.

إنها النهاية يا (عُمير). نهاية المغامرة.. نهاية زفرتكم الأخيرة.

نظر إليه (عُمير) في أسى وقد أيقن حقًا أنها نهاية الثورة، ونهاية أكثر من قابلهم إخلاصًا للثورة والأندلس فلم يجد ما يرد به.

خذ ابني نجم الدين وأنقذه من هذا الجحيم يا (عُمير). عدني أن تنقذه من الموت. أمه (ناجية) في السفح مع (مراد) ينتظرونني. أعطهم (نجم الدين) واهربوا جميعًا عبر البحر إلى الجزائر. لا تبقوا يومًا واحدًا على هذه الأرض يا ولدي. سقط الأمل الأخير من فوق المنحدر.

ثم أغمض عينيه وتوقفت أنفاسه ومات فصرخ الرضيع كما لو أنه قد أحس توقف نبض والده. شعر (عُمير) بغصة في حلقه وهو يترك جثة (محمدي) ويتلقف (نجم الدين) الصغير منه.

أعدك يا (محمدي).. أعدك.

ترك جثة (محمدي) وانطلق هو وصاحبه عدوًا على الأقدام محاولين الفرار من جحيم المنحدرات والصراخ لا يتوقف والدخان يُعمي العيون وطلقات البارود تتطاير حولهما بين حين وآخر تقتل وتجرح والأجساد تتسابق إلى سفح المنحدر كالأمطار فالإسبان يوفرون بارودهم بدفع الثوار أو أسرهم من النساء والأطفال للسقوط من فوق المنحدر بالرغم من توسلاتهم. تتبَّعهما جنديان إسبانيان وأطلقا عليهما البارود فأصيب صاحبه لكن (عُمير) لم يصب بعد فأكمل العَدْو هربًا وحده وهو يحاول أن يقي الطفل طلقات البنادق المتطايرة أو صدمات الصخور الناتئة. جرى عبر الممرات المنحدرة الضيقة وقفز بين الصخور ولم يتوقف. وصل أخيرًا سفح الوادي وبدأ يرى الجثث المتناثرة على الأرض وسط جدول الماء الذي تلون بلون الدماء.

بحث يمينًا ويسارًا فعرفه (مراد) المختبئ. ناداه فاتجه نحوه ومعه (حمدة) الموتورة خوفًا على ابنها وزوجها. انطلقت (حمدة) إلى الطفل المحمول فور أن نادى (مراد) على (عُمير). أعطاها (عُمير) الطفل ونظر إلى وجهها ليطمئنها عليه ثم تجمدت عيناه على وجهها. إنها (حمدة)! ندبة وجهها الهلالية فقط ما طرأت عليها لكنها هي (حمدة) بوجهها وعيناها وجسدها الذي يعرفه جيدًا. إنها هي منذ شاهدها للمرة الأخيرة أمام مخدع جده وهو على فراش الموت. نفس لهفتها وحزنها. إنها لم تمت كما قال (الغريب) فناداها متسائلًا:

(حمدة)؟!

لم تتعرف عليه بل لم تلتفت إليه من الأساس وكان كل همها منصبًّا على طفلها تتفحصه وتحتضنه. لم يكن الموقف يتحمل المزيد. أخذه (مراد) بعيدًا عن (حمدة) وسأله عن (محمدي) فأخبره بمقتله. صرخت (حمدة) وأخذت تلطم وجهها وقد جثت على الأرض واضعة ابنها أمامها لا يتحرك. التفت (عُمير) و(مراد) بسرعة إلى الطفل كان جثة لا حراك فيها وقد ازرقَّ وجهه وتوقفت أنفاسه. حاول (مراد) إنعاش الصغير وإفاقته لكن دون جدوى. أخذت (حمدة) تصرخ وتولول وتلطم وجهها منادية على (نجم الدين) في هستيرية وحاول (مراد) إيقافها عن ذلك دون جدوى ووقف (عُمير) متجمدًا لا يعرف ماذا فعل أو ماذا يفعل.

هل مات الرضيع في يديه؟ هل قتله حرصه الزائد عليه؟ هل مات مختنقًا من الدخان أو محمومًا أو صدمته صخرة ما أو أصابته طلقة بارود كانت تقصده هو؟ لا يعلم ولكن مهما كان السبب فالنتيجة واحدة لقد أخفق في المهمة الوحيدة التي كلفه بها (محمدي) كما أخفق في حفظ وعده سابقًا لـ(ماديلينا). ودون أي مقدمات هوى جسد (محمدي) بجوارهما من فوق المنحدر في عنف فانتشر رذاذ الجدول الدامي على وجوههم وأجسادهم. تجمد ثلاثتهم أمام منظر جسد القائد المجاهد النبيل المسجَّى على وجهه والدماء تسيل من رأسه إلى جدول الماء وكأن (محمدي) أبى إلا أن يترك دماءه تروي أرض الأندلس. لم يتبق لـ(حمدة) صراخٍ أو ولولة بعد هذا. تجمدت أمام مشهد جثة حبيبها المتهالكة وقد كان في حضنها منذ قليل نشطًا منطلقًا بالحياة وماؤه لا يزال يسري دافئًا حيًّا في أحشائها. وقفت مبهوتة أمام مشهد أحب اثنين لها في هذه الدنيا وقد تخلت عنهما الحياة فصارا جثتين هامدتين جنبًا إلى جنب.

أنتم توقفوا هناك!

قالها الجنود الإسبان وهم يندفعون إلى سفح الوادي. صاح (عُمير) بمراد:

اذهب بـ(حمدة) من هنا واهربا إلى البحر وأنا سأعطل هؤلاء العلوج. لو لم ننقذ ابنه فلننقذ زوجته على الأقل.

لم يفهم (مراد) ما يقصده (عُمير) بـ(حمدة) لكنه انطلق بها وقد استسلمت إليه شاحبة مبهوتة كالأموات لكنها أبت إلا أن تنحني وتلتقط جثة رضيعها قبل أن يرحلا ويختفيا. أما (عُمير) فحاول أن يختبئ بين الأحراش ليراقب الموقف.

احذر ربما يكون أحد الملاعين مختبئًا هنا.

قالها أحد الجنود فقال الآخر.

أنا متأكد أنني سمعت أحدًا يتحدث. هيا ابحث معي بين الجثث عن جثة (ابن عبو) حتى ننال الجائزة الكبرى.

أخذا يقلبان في الجثث يمينًا ويسارًا يبحثان عن جثة الأمير (ابن عبو) حتى وجداه وهمَّا بحمله. لكن (عُمير) تجمد على نصل سيف وضع في ظهره بعنف وأمْرٍ من جندي إسباني بعدم الحركة. حاول (عُمير) أن يهرب لكن أسكتته ضربة على رأسه أفقدته الوعيَ!

(٥)

غرناطة مارس ١٥٧١م

شعر (فرَّاج) أنه على قمة العالم أجمع في تلك الليلة التي قضاها في فراش (خوان النمساوي) بالذات:

أنت تستحق أعلى وسام في المملكة يا عزيزي وسأحرص أن تناله من يد فيليب بنفسه.

قالها (خوان) بعد أن فرغ للتو من ليلته مع (فرَّاج). ومع شعور (فرَّاج) بالمتعة الجسدية، اكتملت متعته بنجاح خطته والقضاء أخيرًا على الثورة وكان هو بطل النهاية.
مع انضمامه لفريق المفاوضين في المفاوضات الأخيرة مع المتمردين سمع اسم أحدهم (الشونيش) أحد المفاوضين المقربين لـ(ابن عبو). بعد انقضاء المفاوضات ظل الاسم يتردد في ذهنه وكان متأكدًا أنه قد سمع هذا الاسم سابقًا. لم ينم تلك الليلة محاولًا أن يتذكر أين وكيف سمع بهذا الاسم حتى تذكر أخيرًا. أثناء تحقيقه مع أحد الأسرى الموريسكيين قال إنه خادم في بيت (الشونيش). أخذ يبحث في ذاكرته حتى تذكر كل التفاصيل وبعث بأحد الجنود ليأتي بذلك الخادم. أتى الخادم في القيود فاستجوبه (فرَّاج) بكل الأساليب حتى عرف أن عائلة (الشونيش) زوجته وابنتيه مأسورتان في مخيم (أوخيخار) لترحيل الموريسكيين إلى قشتالة. هنا لمعت الفكرة في رأسه. قام بالتواصل مع (الشونيش) عبر قنوات خفية من الجواسيس والأتباع. قاموا بإغرائه أن يشِي أو يقبض أو يقضي على (ابن عبو) في سبيل إطلاق سراح ابنتيه وزوجته وعفوٍ عام عنه وإرجاع لكل أملاكه بل وزيادتها من أملاك المتمردين الآخرين. في البداية رفض (الشونيش) قطعيًّا لكن مع تدهور وضع الثورة وشعور الجميع باقتراب النهاية شعر (الشونيش) أنه لا فائدة من التمادي في التمرد وعليه أن يلحق بجَنْي أفضل المكاسب وتكبد أقل الخسائر قبل النهاية المحتومة. وَشَى بمكان (ابن عبو) ومَن تبقى معه من الثوار في منطقة الكهوف، ثم تم الاتفاق معه على ليلة يقوم فيها بقتل (ابن عبو) مع من يستطيع أن يجنِّدهم من بين المتمردين. في نفس الليلة تهاجم فرقة انتحارية من الإسبان الكهوف التي يسكنها الثوار بينما يحيط جيش إسباني بالمنطقة الجبلية الوعرة حتى يضمن الإجهاز على كل من يحاول الهروب. وفعلًا نجح الأمر كما خطط (فرَّاج) بالضبط وكما وعد الدون (خوان) أن يأتيه بـ(ابن عبو) تحت قدميه أحضر جثة (ابن عبو) في كيس إلى خيمته واضعًا قدمه عليها في نشوة وغرور.
أغبياء.. أنتم كلكم أغبياء أن تسوِّل لكم أنفسكم أن تقفوا أمام أقوى جيش في الكون بل أقوى حتى من الرب.
قالها (فرَّاج) وهو يقف أمام (عُمير) و(الغريب) المقيدين بالأصفاد في سجنهم المعزول. كان (فرَّاج) يشعر بانتشاء لا مثيل له وقد أثبت للجميع أنه الأذكى والأمهر والأقوى. حتى قُوَّاد الإسبان انحنوا جميعًا له والدون يقلده وسام الصليب القرمزي السامي نظرًا لخدماته في القضاء على التمرد بعد أكثر من سنتين من المعارك والحروب. لم يكن (عُمير) ولا (الغريب) في وضع يريدان فيه الانخراط في جدل عبثي مع شخص مريض كـ(فرَّاج). كما أنهما قد وصلا إلى نهاية طريقيهما وقد استسلم كل منهما إلى مصيره يائسًا. لا (الغريب) يريد مواصلة الحياة منذ فقد (حمدة) في قاع البحر، و(عُمير) قد فقد كل شيء فقط كل شيء، ماتت (ماديلينا) حبيبته بعد أن تخلى عنها وتركها فريسة للكره والأمراض، وانتهت الثورة حلمه في إقامة الدولة الإسلامية في الأندلس من جديد ولم يعد من أمل لبعثها من جديد. حتى (محمدي) فشل في إنقاذ ابنه وها هو ذا في انتظار أبشع نهاية على يد أخسِّ البشر.
أي طريقة للموت تريدان أيها الموريسكيان؟ ألن تتوسل لي يا (أوريليانو) أن أعفو عنك؟ أقسم أن أعفو عنك لو جثوت على قدميك راجيًا إياي.
نظر (عُمير) إليه محتقرًا ولم يرد. شعر (فرَّاج) بالغيظ من تجاهلهما له وإفسادهما للحظة انتصاره الثمينة:

يا لكما من جاحدين! طريق طويل قطعته حتى أصل إلى هذه اللحظة ولا تريدان أن تشاركاني نخب النصر؟!.. ألا تريدان أن تعلما هذا الطريق؟ حسنًا.. سأقوله لكما على أي حال.. حسنًا من أين أبدأ.. نعم أنا من أحرقت منزلنا وقتلت فيه أمي وأخي حرقًا وهما أحياء.. ودفعت بالتهمة إليك.
نظرا إليه بامتعاض قبل أن يكمل:
وسجنت خالي (جميل) في ديوان التفتيش وقمت بتعذيبه بنفسي في غرفة الجحيم وقطعت لسانه بيدي هاتين.
ضحك ضحكة قصيرة قبل أن يكمل:
وأنا من جعلت (بيليتا) أختك تعمل عاهرة في الحانة خادمة لفراش الإسبان.
اشتعل الغضب الصامت في عين (عُمير):
وأنا من خططت للهجوم على قوارب الموريسكيين الهاربين في السبلايا حين كنت تهرب مع (إيلينا) يا (أنخيليتو).. وأنا من وضعك في جحور (ألمادن).. وأنا من جندت (الشونيش) لقتل (ابن عبو)..
ثم تحولت لهجته من التهكم للجدية والشكيمة وهو يصرخ فيهما بصوت كأنه الشيطان نفسه:
أنا الحاكم القادر الجبار.. أنا (فابريسيو ابن الزانية) ظننتموني مسخًا فصرت لكم ربًّا أقدِّر الأقدار بأطراف أصابعي..
ثم أخذ يضحك بهستيرية وهو يخرج من سجنهما. ظلا صامتين لا يعقّبان على هذا الشر المطلق. الشيطان تجسد في هذا الجسد المسخ وظن أنه قادر قاهر. لا فائدة من الحديث والنهاية تطل أمامهما بأبشع وجه ولم يعد لديهما سوى الاستسلام.
دخل أحد الفرسان إلى السجن وحيدًا وهو يتلفت حوله حتى وقف أمام زنزانتهما وهمَّ بفتح بابها الحديدي وهو يقول في همس:
من منكما (أوريليانو)..
نظر كل منهما للآخر متسائلين فصاح فيهما هامسًا:
لا وقت لذلك؟ لقد أوكل إليَّ مهمة تهريب (أوريليانو) وإنقاذه..
تعجب (عُمير) وسأل:
من أنت؟ ومن أوكل إليك بهذه المهمة؟
أنا الفارس (ماوريسيو) من بلنسية.. الدون (دييجو رودريجيز) أوكل إليَّ بهذه المهمة منذ أكثر من عامين.. أمرني أن أحضر (أوريليانو) حيًّا دون أذى أيًّا كان الثمن. طوال عامين وأنا أبحث وأتقصى أثره وأرشو هذا وذاك من أجل ذلك.. هل أنت (أوريليانو)؟ أنا أعلم أنه أحدكما.
أراد (الغريب) أن يتحدث لكن أسكته (عُمير) ثم أخذه بعيدًا عن مسامع الرجل وقال له في أذنه:
أنت (أوريليانو) يا (الغريب).. اهرب أنت.. واتركني لمصيري الذي اخترته.. لم يعد لدي ما أعيش من أجله وصار العالم أكثر وحشة عن ذي قبل.. لا حبيب ولا وطن..
قاطعه (الغريب):
وهل لدي أنا من أعيش من أجله؟
قاطعه (عُمير) بحزم:
نعم.. (حمدة) لا تزال حية لم تمت.. هربت منذ أيام عبر الشواطئ الجنوبية إلى الجزائر.. اذهب لها وجدها..

صعق (الغريب) مما سمع. أحقًا هي الحقيقة؟ ألم تمت؟ هل عاش كل هذه السنين معاتبًا نفسه على ذنب لم يقترفه؟ هل رحمته السماء من عذاب زائف؟ برقت عين (الغريب) ببريق الحياة مرة أخرى بعد أن انطفأ من سنين. واندفعت دماء الأمل في عروقه من جديد.
لم يكن الوقت يسمح بمزيد من التفاصيل. احتضنه (عُمير) وودعه وجلس ينتظر مصيره. في صباح اليوم التالي تمت محاكمة جثة (ابن عبو) ومن معه من أسرى من المتمردين بتهمة الخيانة العظمى في مشهد عظيم شاهده الدون (خوان) و(فرَّاج) جالسًا بجانبه كالطاووس في أزهى حلله يتحسس جَيْبه من آنٍ لآخر؛ حيث وضع القارورة الصغيرة التي تحوي عينه الموريسكية، إنه أحضرها معه لتكون شاهدة على انتصاره. لكنه كان حائرًا إذ لا يرى (الغريب) بين المحاكَمين. ثم تم إعدام جثة (ابن عبو) بقطع الرأس وسُحِل الجسد ومزق تقطيعًا. ثم تم وضع الرأس في قفص حديدي علق على باب غرناطة مواجهة للبشرات لتكون عبرة لكل من تسول له نفسه التمرد على الملك فيليب الثاني. وبجانب رأس (ابن عبو) تم صلب (عُمير) والمتمردين في مشهد عظيم.
وظلت روحه تتصفى من جسده لأيام ببطء وهو على هذا الحال يتذكر كل شيء مر به في رحلته الطويلة من بدايتها إلى نهايتها. تذكر أنه لا يزال شابًّا في عشرينيات عمره بالرغم من أن روحه قد شابت قبل ذلك بكثير منذ كان طفلًا في سوق (أوليبا) يشهد حرق جثة أبيه. واستعد للقاء الأحبة أبيه و(ماديلينا). ثم تذكر جده الشيخ (عبد الصمد) وقبل أن يلفظ النفس الأخير تمتمت شفتاه بتثاقل وكأنه يحادثه:
«ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون»..
فأتاه صوت جده الشيخ (عبد الصمد) يتردد في أذنه:
إن كنتم مؤمنين.. إن كنتم مؤمنين يا (عُمير)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استطاع الفارس (ماوريسيو) تهريب (الغريب) من سجن غرناطة بل من غرناطة كلها وكان (الغريب) يتساءل عن تلك السلطة التي سهلت له كل هذا لكن لا يهم. لقد عرف وجهته وخطته لقد وجد مرة أخرى سببًا للحياة. ذلك السبب المسافر عبر البحر نفس المكان الذي فقده فيه ولن يتخلى عنه هذه المرة. لن يمنعه جسده الهزيل. لن يمنعه بحر ولا جيش ولا أسطول. لن يمنعه (ماوريسيو) وسيهرب منه في الطريق. لقد عاد قلبه يضخ بالأمل مرة أخرى ولن يتوقف حتى يجد (حمدة) أينما كانت.
وكان محقًا استطاع (مراد) أن يهرب بـ(حمدة) على ظهر جواد بمعجزة حقيقية بعد أن نجا من كمائن الإسبان طوال الطريق من البشرات إلى أقصى الجنوب؛ حيث البحر وحيث عشرات من الموريسكيين لا يزالون يهربون عبر القوارب إلى عرض البحر ناشدين النجاة بأنفسهم من مذابح الإسبان الأخيرة ضد الموريسكيين الباقين من التمرد. وصلا إلى الشاطئ.
أعطى (مراد) أحد البحَّارة بعض المال.. أمسك بيديها يدل خطواتها إلى القارب. كل هذا و(حمدة) لا تزال مبهوتة شاحبة كالأموات وكأنها مسحورة منذ أقنعها أن تدفن جثة وليدها في الطريق. لكن قبل أن تطأ أقدامها القارب أفاقت فنظرت حولها.. شاطئ.. ورمل.. وبحر.. وأمواج.. وقارب.. فصاحت:
لا أستطيع يا (الغريب)!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما اسمك؟

سكتت (صبح) ولم ترد وهي جالسة مكسورة منحنية مقيدة على كرسي خشبي في ديوان التفتيش بكنيسة بلنسية. كرر القس سؤاله:
ما اسمك؟ ألست (بيليتا)؟ أنتِ متهمة بتهريب موريسكيين عبر البحر، وأنك أخت المتمرد (أوريليانو) الشهير بـ(عُمير المختون).. وأنك شاركت في قتل الماركيز (فرناندو دي مويز).. ما جوابك؟
نظرت إليه ثم شردت لقليل من الوقت قبل أن تقول بوجه جامد الملامح:
اسمي (صبح).. (صبح الملوكي)!

(تمت ١١ مايو ٢٠٢١)

نشأت يونس
سيدني -أستراليا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞
(تمت بحمد الله وتوفيقه)
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

إهداء..

الفصل الأول: الشيخ (بينيديكتو)

(١) الرقصة الافتتاحية:

ليلة (فيرَّاج)

(٢) رقصة: الذكريات المُرَّة

(١)

(٢)

(٣)رقصة النار والغضب

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

(٦)

الفصل الثاني: الهاربون

(١) رقصة المتحالفين

(١)

(٢)

(٢) رقصة (ماديلينا)

(١)

(٢)

(٣) رقصة القلوب الغارقة

(١)

(٢)

الفصل الثالث: الحب والبارود

(١) أين الله

(١)

(٢)

(٣)

(٤)
(٥)
(١) رقصة الختام: من فوق المنحدر
(١)
(٢)
(٣)
(٤)
(٥)

-